كتـــاب

الإمتاع والمؤانسة

تأليف

أبي حيان التوحيدي

وهو مجموع مسامرات في فنون شتى
من الأدب واللغة والتاريخ والسياسة والفلسفة
حاضر بها الوزير أبا عبد الله العارض في أربعين ليلة

الجزء الثالث

صححه وضبطه وشرح غريبه ورتب فهارسه

أحمد أمين و أحمد الزين



بسم الله الرحمن الرحيم

«بقية الليلة الحادية والثلاثين في آخر الجزء الثاني»

ثمَّ ترامَى الحديث إلى أَمْر المُطْعِمين وَالطاعِمين[1]، والذين يهشُّون[2] عند المائدة، والذِين يعْبِسُون[3] ويجمُون ويُطْرِقون، والذين يَصْخَبُون[4] وَيَلْغَطُون، ويَضْجَرُون وَيغْتَاظون.

فقال: أُحبُّ أن أسمعَ في هذا أكثرَ ما فيه، ويَمُرَّ بي أعجبُه، فإنّ في معرفةِ هذا الباب تَهذيبًا وإيقاظًا كثيرًا.

فكان من الجواب: إنّ الناس قديمًا وحديثًا قد خاضوا في هذا الفنّ خوضًا بعيدًا، وما وَقَفوا منه عند حَدّ، لأن الحديث عن الأخلاق المختلِفة بالأمزجة[5] المُتَباينة، والطبائع المتنائية لا يكاد يَنْتَهي إلى غاية يكون فيها شفاءٌ للمستمِع المُسْتَفِيد [و] لا للراوية المُفيد.

قال: قبل كل شيء أَعْلِمُونا[6] يا أصحابَنا: الحثُّ على الأكل أحسَن، أم الإمساك حتى

(١) فى (أ) بالطاعمين، والباء محرفة عن الواو كما هو ظاهر من السياق.

(٢) في (أ) يمشون، وهو تحريف.

(٣) في (أ) «يعيشون»؛ وهو تصحيف.

(٤) في (ب) «يضجون».

(٥) في كلتا النسختين بالأزمنة؛ وهو تحريف.

(٦) في (ب) «إعلموا»؛ وهو تحريف.

يكون من الأكل ما يكون؟

فكان [من] الجواب: أن هذه المسألة بعينها جرَت بالأمس بالرَّيّ عند ابن عبَّاد فتُنُوهبَ الكلامُ فيها، وأَفْضي [إلى] أن الأولى الحثُّ والتأنِيسُ والبَسْط والطَّلاقة ولينُ اللَّفظ وقِلّة التَّحديق وإسْجاءُ الطَّرف مع [اللُّطْف] والدَّماثة، من غير دلالةٍ على تكَلُّفٍ في ذلك فاضح[١] ولا إمساكٍ[٢] عنه قادح.

وحكى ابن عبَّاد في هذا الموضع أنَّ بَعض السَّلف قال: الطعامُ أهوَنُ مِنْ أَنْ يُحَثَّ على تَناوُله.

وقال الحسن بن عليّ: الطعام أَجلُّ من أن لا يُحَثَّ على تناوُله - ومذهبُ الحَسَن أَحْسَن.

قال: ولقد حضرتُ مَوائد ناسٍ لا أَظُنُّ بهم البخلَ فلم يحُثُّونِي ولم يَبْسطوني فَقَبَضَني ذلك، وكأنَّ انقباضي كان بمَعُونَتِهم، وإن لم يكن بإرادتهم.

قال الوزير: هذه فائدة من هذا الرجل الّذي يُتهادَى قوله، وتُترَاوَى أَخْبارُه[٣].

ثم حكيتُ له أن أسماء بنَ خارجةَ قال: ما صنعتُ طعامًا قطّ فدَعوْتُ عليه نَفَرًا إلَّا كانوا أمنَّ عليَّ مِنِّي عليهم. فقال: زدنا من هذا الضرب ما كان، قلتُ: لو أُذِن لي في جَمْعه كان أَوْلَى؛ قال: لك[٤] ذلك فمَا يَضُرُّنا[٥] أن تُطرِبَ آذانَنا بما تَهْوَى نُفوسُنا.

فكان من الجواب أَنَّ الجاحظ قد أَتَى على جمهَرَة هذا الباب إلَّا ما شَذَّ عنه مِمَّا لم يَقَعْ إليه، فإن العالِمَ - وإن كان بارعًا - ليس يجوز أن يُظَن [به] أنهُ قد أحاط بكلّ باب، أو بالباب الواحد إلى آخره؛ على أنَّه حَدَث من عَهْد الجاحظ إلى وَقْتنا هذا أُمورٌ وأمور،

(١) في (أ) ناصح؛ وهو تحريف.

(٢) في (أ) «الإمساك» ولا يستقيم به المعنى.

(٣) في (أ) ويتراوى اختياره.

(٤) في (أ) «إلى»؛ وهو تحريف.

(٥) في (أ) «ينصرنا»؛ وهو تحريف.

وهَناتٌ وهَناتٌ، وَغرائبُ وعَجَائب، لأنَّ الناس يَكتَسبون على رَأس كلِّ مائة سنةٍ عادةً جديدة، وخليقةً غيرَ مَعْهودةٍ، وبَدْءُ هذه المِئين[1] هو الوقت الذي فيه تَنْعَقد شريعة، وتظهر نبوّة، وتَفْشوا أحْكام، وتَسْتَقرُّ سُنَن، وتُؤَالَف أحوالٌ[2] بعد فطامٍ شديد، وتلكُّؤٍ واقع؛ ثم على استنان ذلك يكون ما يكون.

وقال مَيْمون بنُ مِهْران: مَن ضافَ البخيلَ صامَتْ دابّتُه، واستَغْنى عن الكَنيف، وأَمِنَ التُّخَمة.

وقال حامد[3] اللَّفَّاف المتزهِّد[4]: المرائي إذا ضاف إنسانًا حدَّثَه بسَخاوَة إبراهيم، وإذا ضافَه إنْسانٌ حدَّثَه بزُهد عيسى بن مَرْيَم.

وقال مالك[5] بن دينار: دَخَلْنَا على ابن سِيرينَ فقال: ما أَدْرِي ما أُطْعِمُكم؟ ثم قَدّم[6] إلينا شُهْدَة.

وقال الأعمش: كانَ خَيْثَمة يَصْنَع الخَبِيصَ ثم يقول: كُلُوا فوالله ما صُنِعَ إلَّا من أَجْلِكُم.

وقال بكْر بنُ عبدِ اللهِ المُزَنيّ[7]: أَحَقُّ الناس بلَطْمَةٍ مَن إذا دُعِيَ إلى طَعامٍ ذَهبَ بآخَر معه، وأحقُّهم بلَطْمَتين مَن إذا قيل له: اجلِس هَا هنا قال: بل ها هنا؛ وأحقُّ النَّاس بثلاثِ لَطَمات مَنْ إذا قيل له: كُلْ، قال: ما بالُ صاحِب البَيْتِ لا يَأْكُلُ مَعَنا.

(١) في (أ) «وبدهره المتين». وفي (ب) «ويد هذه المبين»؛ وهو تحريف في كلتا النسختين وما أثبتناه هو ما يقتضيه سياق الكلام.

(٢) في (ب) «أحكام»؛ وهو تحريف.

(٣) كذا في كلا الأصلين؛ وقد وردت هذه الكلمة في الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٦٩ منسوبة إلى حاتم، أي حاتم الأصمّ.

(٤) في (ب) «الزاهد».

(٥) في (أ) «خالد»؛ وهو تبديل من الناسخ.

(٦) في (ب) «أخرج»؛ والمعني يستقيم عليه أيضًا.

(٧) في (أ) «المرء»؛ وهو تحريف.

وقال إبراهيم بنُ الجُنَيْد[1]: كَان يقال: أربع لا يَنْبَغي لشريف أن يأنَف منهُنَّ وإن كان أميرًا: قِيامُه مِن مجلسه لأبيه، وخِدْمَتُه للعالِم يَتعلَّمُ منه، والسؤالُ عمّا لا يَعْلم ممن هو أَعْلمُ منه، وخِدْمَةُ الضيف بنفْسِه إكرامًا له.

وقال حاتم الأصمّ: كان يقال: العَجَلة من الشيطان إلا في خمس، فإنها من سُنَّة رَسُولِ الله ﷺ: إطعام الضَّيف إذا حَلَّ، وتجهيز الميِّت إذا مات، وتزْويجِ البِكْر إذا أَدْرَكتْ، وقضاءِ الدَّين إذا حَلَّ وَوَجَب، والتَّوْبة من الذَّنْب إذا وَقَع.

وقال النبي ﷺ: «ليلةُ الضَّيفِ حقٌّ واجبٌ على كلِّ مُسْلم، فمن أَصْبَحَ بِفنائِه فهو أَحَقُّ به إن شاء أَخَذَ، وإن شاءَ ترَك»[*].

وجاءت امرأة إلى الليث بن سعد وفي يدها قَدَح، فسألتْ عسلًا وقالت: زَوْجي مريض؛ فأمر لها براويَةِ عَسَل[2]؛ فقالوا: يا أبا الحرث: إنما تسأل قَدَحا. قال: سألتْ على قَدْرِها ونُعْطِيها على قَدْرنا.

خَرَجَ ابنُ المُبارَك يومًا إلى أصحابه، فقال لهم: نَزَلَ بنا ضَيْفٌ اليومَ فقالَ: اتخذوا لي فالوذَجًا؛ فسرَّنا ذلك منه.

وقال الحسنُ في الرَّجُل يَدْخُلُ بَيْتَ أخيه فيرَى السَّلَّة فيها الفاكهة: لا بأسَ أنْ يأكلَ مِنْ غير أن يَسْتَأْذِنَه.

وقال ابنُ عمر: أُهْدِيَتْ لرجل من أصحاب النبي – صلى الله عليه وعلى آله – شاةٌ فقال: أخي فلانٌ أَحْوَجُ إليها، وَبعث بها إليه، فلم يَزَلْ[3] يَبعث بها واحدٌ بعد واحد حتى تداولها تسعةُ أبيات، ورَجَعَتْ إلى الأوّل، فنزلت الآية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

---

(١) في (أ) «ابن الحنبل»ن وهو تصحيف. وقد سبق كلامه هذا في الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ٦١ سطر ٩.

(*) رواه ابن ماجة (٣٦٧٥) وأحمد في مسنده (١٦٨٤٣) مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) هذه الكلمة في (أ) لم يظهر منها إلا بعض حروفها وفي (ب) مطموسة كلها.

(٣) سياق الكلام يفيد أن الثاني قال مثل ما قال الأول وبعث بالشاة إلى أخ ثالث وحذف ذلك للعلم به.

قال أبو سعيد الخُدْريّ: قال رسول الله ﷺ: «من كان له ظَهرٌ فلْيَعُدْ على من لا ظَهْرَ له؛ ومن كان له زادٌ فَلْيَعُدْ على من لا زادَ له»(*)، حتى رَأَيْنا أنّه لا حَقَّ لأحدٍ منَّا في الفَضْل(١).

وسُئِلَ ابنُ عُمَرَ. ما حَقُّ المُسْلِم على المُسْلم؟ قال: ألَّا يَشْبَعَ ويَجُوع، وألَّا يَلْبَسَ ويَعْرَى، وَأَنْ يواسِيَه ببَيضَائِه وصَفرائه.

وكان ابنُ أبي بَكرةَ يُنْفق على جيرانِه أربعين دارًا سِوَى سائرِ نَفَقَاته، وكان يَبْعَث إليهم بالأضاحيِّ والكسوة في الأعياد، وكان يعْتق في كلِّ يوم عيدٍ مائةَ مملوك.

وكان حمَّاد بنُ أبي سُليمان يُفطِّر كلَّ ليلةٍ مِن شهر رمضان خمسين إنسانًا، وإذا كان يوم الفِطْرِ كَسَاهم ثَوْبًا ثَوْبًا وَأَعْطاهم مائة مائة.

وقال الشاعر:

أَرَاك تؤمِّل حُسْنَ الثَّنـــاء ... ولم يَرْزُق اللهُ ذاكَ البَخِيـــلا

وكيف يسود أخُـــو بطنــةٍ ... يَمُنُّ(٢) كثيرًا ويُعطـــي قَلِيلا

وقال النبيُّ ﷺ: «تجافَوا عن ذَنْب السَّخِيِّ، فإن الله يأخذُ بيَدِه كلَّما عَثَر»(**).

وقال عليه السلام: «من أَدَّى الزَّكاة، وقَرَى الضَّيف، وآوَى(٣) في النائبة، فقد وُقِيَ شُحَّ نفسه»(***).

وقالت أُمُّ البَنِين أُختُ عمرَ بنِ عَبْدِ العزيز: أُفٍّ للبُخْل، لو كان طريقًا ما سَلَكْتُه، ولو كان ثوبًا ما لبِسْتُه، ولو كان سِراجًا ما استضأتُ به.

وقال الأصمعيّ: قال بعضُ العَرب: ليست الفتوَّةُ الفِسقَ ولا الفُجُور، ولا شُربَ الخُمور، وإنما الفُتوَّةُ طَعامٌ موضوع، وصنيع مصْنُوع، ومكانٌ مرْفوع، ولسانٌ مَعْسُول، ونائل مبذول، وعَفاف مَعروف، وأذًى مكفوف.

(*) رواه مسلم باب اللقطة (١٧٢٨) وأبو داود في سننه (١٦٦٣).

(١) يريد بالفضل هنا: ما فضل من المال وزاد.

(**) حديث صحيح، أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ص٣١ والطبراني في المعجم الأوسط ٤/ ٢١٩.

(٢) هذه الكلمة مطموسة في (أ) ولم يظهر منها في (ب) غير النون؛ وما أثبتناه هو المناسب للسياق.

(٣) في (أ) وأدى؛ وهو تحريف.

(***) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٩٨٩).

وقال أبو حازم المدنيّ: أسعَدُ النَّاس بالخُلق الحَسَن صاحبُه، نَفْسُه منه في راحة، ثم زَوْجَتُه، ثم وَلَدُه، حتى إن فَرَسَهُ ليَصْهَل إذا سَمع صَوْتَه، وكلْبَه يُشَرْشِر بذَنبه إذا رآه، وقطّه يدخل [تحت] مائدته، وإنَّ السيءَ الخُلُق لأشقى الناس، نَفْسُه منه في بَلاء، ثم زَوْجَتُه، ثم وَلَدُه، ثم خَدَمُه، وإنّه ليَدْخُل وهم في سُرُور فيتفرَّقَون فرَقًا منه، وإنَّ دابَّته لتحيد عنه إذا رَأتْه، ممَّا تَرَى منه، وكلْبَه يَنْزُو على الجدار، وقِطّه يفرُّ منه.

وكان على باب ابن كيسانَ مكتوب: ادْخُلْ وَكُلْ.

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول في بكائها [على النبي ﷺ]: بأبي مَنْ لم يَنمْ على الوَثير، ولم يَشْبَع مِن خُبز الشَّعير.

وقال النبيّ ﷺ: «إنّ الله لم يخلق وِعاءً مُلئ شرًّا من بَطْنٍ، فإن كان لا بُدَّ فاجْعَلُوا ثُلُثًا للشراب، وثُلُثًا للرِّيح»(*).

قال الشاعر:

ليسوا يُبَالون إذا أَصْبَحُوا ... شَبْعَى بِطانًا حَقَّ مَنْ ضَيَّعُوا[1]

ولا يُبَالُون بِمَوْلاهُمُ ... والكلْبُ في أموالهم يَرْتَع

وحَكى لنا أبو بكر أَحْمَدُ بنُ إبراهيمَ بجُرْجَانَ [إمامُ الدُّنيا] قال: رأيتُ أبا خليفة المفضَّلَ[2] بن الحُباب، وقد دُعِي إلى وَليمةٍ فرأى الصِّحاف تُوضَعُ وتُرْفَعُ، فقال: أَلِلْحُسْن والمَنْظَرِ دُعِينا، أَمْ للأكل والمَخْبَر؟ فقيل: بل للأكل والمخبر، قال: فاتركوا الصَّحْفَةَ يُبْلَغْ قَعْرُها.

وكان سليمانُ بنُ ثَوَابَةَ ضَخْمَ الخِوان، كثيرَ الطَّعام، وافرَ الرَّغيف، وكان مُعجَبًا بإجادة الألوان، واتِّخاذ البدائع والطَّرائفِ والغرائِبِ على مائدته؛ وكانت له ضُروبٌ من الحَلْوَى لا تُعرفُ إلا به، وكان خُبزُه الذي يُوضع على المائدة الرغيفُ من مكّوكٍ[3] دَقيق، ولذلك

(*) رواه ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم، وفيه: «فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»..

(١) في (أ) «صنعوا»؛ وهو تصحيف. (٢) في (أ) المفضل بن الحيان؛ وهو تحريف.

(٣) المكوك: من مكاييل العراق، وهو صاع ونصف أو هو ثلاث كبلجات والكبلجة منا وسبعة أثمان منا، والمنا رطلان.

قال أبو فرعون العَدَويّ:

ما النَّاسُ إلا نَبــــــطٌ وخُوزَانْ[١] ككَهْمَسٍ أو عمرَ بن عمرانْ

ضَاق[٢] جِرابي عن رغيف سَلْمان[٣] أيرُ حمار في حِرِ أمِّ قَحْطـانْ

وأيْرُ بَغْلٍ في اسْتِ أمِّ عدنَان

................[٤]

وعَشِقَ رَجُلٌ جاريةً رُوميّة كانت لقوم ذَوي يسار، فكتبَ إليها يومًا: جُعِلتُ فِداكِ، عندي اليومَ أصحابي، وقد اشتهيت سكباجَةً[٥] بقَرِيَّةً فأحبُّ أن توجِّهي إلينا بما يَعُمّنا ويكفينا منها، ودَسْتَجَةً[٦] من نبيذٍ لنتغذَّى ونشْرَبَ على ذِكْرك، فلما وَصَلتِ الرُّقْعةُ وَجَّهَتْ إليه بما طَلَب؛ ثم كتَب إليها يومًا آخر: فَدَتْكِ نفسِي، إخواني مجتمعون عندي، وقد اشتَهَيت قَليَّةَ جَزُوريَّة وَجِّهي بها إليّ وما يَكْفينا من النَّبيذ والنَّقْل، ليعرفوا مَنْزلَتي عِندَكِ، فوجَّهَتْ إليه بكل ما سَأل، ثم كتب إليها يومًا آخَر: جُعِلْتُ فِدَاكِ، قد اشتهيتُ أنا وأصحابي رؤوسًا سمانًا، فأُحِبُّ أن توجِّهي إلينا بما يَكفينا، ومن النبيذ بما يُرْوينا؛ فكَتَبَت الجارية عند ذلك: إنِّي رأيتُ الحبَّ يَكونُ في القَلْب، وحُبّك هذا ما تجاوز المعدة. وكَتَبَتْ أسْفَلَ الرُّقعة:

عَذيـرِي من حَبيبٍ[٧] جـــا ءنـــا في زَمَـنِ الشِّــــدَّهْ

وكـــــان الحُـبُّ في القَلبِ فصـــارَ الحُبُّ في المِعْدَهْ

(١) لعله يريد بالخوزان: أهل خوزستان، وهم – فيما يقال – ألأم الناس وأسقطهم نفوسًا.

(٢) في (أ)صار؛ وهو تحريف.

(٣) سلمان، أي سليمان؛ وهي لغة فيه.

(٤) ورد موضع هذه النقط في (أ) وحدها كلام هذا نصه: انزل بقوم قفرة صيام ولم يأتوه به ولكن دلوه على موضعه، وقالوا له: اذهب ما منه وكأنه يذم أم مبواء:

إذا دعيت بما في البيت قال نحن من الجدال وما حييت

ولا يخفى ما في هذا كله من التحريف الكثير وقد بحثنا عنه في مختلف المصادر التي بين أيدينا فلم نجده.

(٥) السكباجة: مرق يصنع من اللحم والخلّ.

(٦) وردت هذه الكلمة في (أ) مهملة الحروف من النقط، وفي (ب) «دسجة»؛ والصواب ما أثبتنا. والدستجة: إناء كبير من زجاج فارسيته دسته.

(٧) في (أ) «حيث»؛ وهو تصحيف.

وقال جرير[١]:

ولا يَذْبَحُونَ الشـــاةَ إلا بمَيْسـرٍ[٢] كثيرٌ تَناجيهـــا لِئامٌ قُدُورُهـــا

وقالت عادِية[٣] بنتُ فَرْعَةَ الزّبيريّة في ابنها دَوْس:

تشْبُـــه[٤] دَوْسُ نفرًا كرامــا

كانوا الذُّرَى والأنــف والسَّناما

كانوا لمن خالَطهــم إدَامَــا

كَالسّمْن لمّــا سَغْبَلَ الطعامــا

يقال سَغْبَلَ رأْسَه [بالدُّهْن] وسَغْسَغه[٥] وَرَوَّاه وأمرعه[٦].

قال الواقديّ: قيل لأمّ أيوبَ: أيُّ الطَّعام كانَ أحَبّ إلى رسول الله ﷺ: فقد عَرَفتُم ذلك بمُقامه عندكم؟ فقال: ما رأيتُه أَمَرَ بطعامٍ يُصنَع له بعَيْنِه، ولا رأيْناه أُتي بطعام فعابه قَطّ. وقد أخبرني أبو أيوب أنه تَعَشى عنده ليلةً من قَصْعَة أَرسلَ بها سعدُ بن عُبادة [فيها] طَفَيْشَل[٧] فرأيتُه ينهك تلك القَصْعة[٨] ما لم يَنْهَكْ غيرها، فرجع إليّ فأخبرني، فكنا نَعْمَلُها له.

---

(١) البيت لغسان بن ذهل يهجو جريرا وقبله:

لعمري لئن كانت بجيلة زانها جرير لقد أخزى كليبا جريرها

إذا نزعت يوما كليب وسومت تقاعس في ظهر الأتان مغيرها

رأيت كليبا يعرف اللؤم ريحها إذا اسود بين الأملحين جعورها

ولا يذبحون الشاة الخ...

انظر الجزء الأول من ديوان جرير ص ١٣٤ طبع المطبعة العلمية.

(٢) في (أ) «بمئزر»؛ وفي (ب) «بمنسر» بالنون وهو تحريف في كلتا النسختين والتصويب عن ديوان جرير ج١ ص ١٣٤ طبع المطبعة العلمية. يريد أن ذبح الشاة عندهم أمر ذو بال لا يفعلونه إلا بواسطة قداح الميسر التي يشترك فيها الجميع وتفرق بينهم كل بنصيبه كما يذبح الجزور في زمن الجدب والقحط.

(٣) كذا ورد هذا الاسم في كلتا النسختين.

(٤) في (أ) «أسنه»؛ وهو تصحيف.

(٥) في (ب) «وسعسعه» بمهملتين؛ والمعنى واحد.

(٦) كذا في (ب) وكتب اللغة والذي في (أ) «وأمرغه» بالنين المعجمة.

(٧) الطفيشل: نوع من المرق.

(٨) في (أ) القدر؛ وهو تبديل من الناسخ.

وكنا نَعْمَل له الهريسة، وكانت تُعْجبه، وكان يحضر عَشاءَه[١] من خمسة إلى ستّةٍ إلى عَشَرة كما يكون الطعام في القِلة والكَثْرة.

وكان أسعد بن زرارة يَعْمل له هَرِيسةً ليلةً وليلةً لا، فكان رَسُول الله ﷺ يسأل عنها؛ أجاءت قصعة أسعد أم لا؟ فيقال نعم، فيقول: هَلمُّها؛ فنعرف بذلك أنّها تُعْجبه.

قَدِمَ صُهَيْب على رسول الله ﷺ بقُباءَ ومعه أبو بكرٍ وعُمر، بين أيديهم رُطَبٌ قد جاءهم به كُلْثوم بن الهِدْم[٢] أُمّهاتُ جَراذِين[٣] وصُهَيبٌ قد رَمِدَ في الطَّريق، وأصابَتْه مَجاعةٌ شديدة، فوَقَع في الرُّطَب؛ قال صُهَيْب: فجَعلتُ آكُل، فقال عمر: يا رسول الله، أَلا ترى إلى صهيب يَأكلُ الرُّطبَ وهُوَ رَمِد؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَتأكُلُ الرُّطَبَ وأَنْتَ رَمِد؟» فقال صهيب: أنا آكل بشقّ عيني الصحيحة، فتَبَسَّمَ [رسول الله] ﷺ[*].

وقال الأعْشَى:

لو أُطْعِموا المَنَّ والسَّلْوَى مَكانَهُمُ ... ما أَبْصَرَ الناسُ طُعْمًا فيهمُ نَجَعا

وقال الكُمَيْت:

وما استُنْزِلَتْ في غيرِنا قِدْرُ جارِنا ... ولا ثُفِيَتْ إلَّا بنا حِينَ تُنْصَبُ

يقول إذا جاوَرَنا جارٌ لم نُكلِّفْه أن يَطْبُخَ مِنْ عنده، ويكون ما يَطْبُخه مِن عنْدِنا بما نُعْطِيه من اللحمِ ليَنْصُبَ[٤] قِدْرَه. ويقال للحَيْسِ[٥] سَوِيطَة[٦]. وقال: الرَّغِيفَة[٧] لبن

(١) في (ب) «عنده».

(٢) في (أ) «ابن مبروم»؛ وفي (ب) ابن الهرم؛ وهو تحريف في كلتا النسختين والتصويب عن كتب اللغة ومعجمات الأعلام التي بين أيدينا.

(٣) في (أ) حرافين؛ وفي (ب)حرادين؛ وهو تحريف في كلتا النسختين؛ والتصويب عن كتب اللغة وكتب الحديث، وأم جرزان: نوع من الرطب كبار، وسمي بذلك لأن نخله يجتمع تحته الجرزان لحلاوة ثمره. وأم جرزان آخر نخلة بالحجاز إدراكا، وهى أم جرزان رطبا، فإذا جفت فهي الكبيس.

(*) رواه ابن ماجة والحاكم ورجاله ثقات.

(٤) في (ب) «ينضب»؛ وهو تحريف.

(٥) الحيس تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن شديدًا ثم يخرج منه نواه.

(٦) السويطة: من السوط وهو الخلط؛ وفي (أ) «الصريطة»؛ وهو تحريف.

(٧) في اللسان أن «الرغيعة»: حسو من الزبد؛ وقيل: لبن يغلي ويذر عليه دقيق.

يُطْبخ. وقال: هي العصيدة، ثم الحَرِيرة[١] ثم النَّجِيرة[٢]، ثم الحَسُوُّ[٣]. واللُّوقَة: الرُّطَب بالسَّمنِ[٤]، والسَّلِيقَة: الذُّرَة تُدَقُّ وتُصْلَح باللبَن، والرَّصِيعةَ[٥]: البُرُّ يُدَقُّ بالفِهْر وَيُبَلُّ ويطبَخُ بشَيء من السَّمْن، والوَجيئة: التَّمرُ يُوجَأُ ثم يُؤكل باللَّبَن.

وقال أعرابيّ: ليس من الألبان أَحْلَى من لبن الخَلِفَة[٦] والنَّخِيسة والقَطِيبَةُ يُخْلَط لبن إبِلٍ بلَبن غَنَم[٧].

وقال أعرابيّ: الحمد لله الذي أغنانا باللَّبن عَمَّا سِواه. ويقال أكل خبزًا قَفارًا وعَفارًا وعفِيرًا: لا شيءَ معه[٨] وعليه العَفَار والدَّمار وسُوءُ الدار[٩]؛ وأكَلَ خُبْزًا جَبيزًا[١٠] أي فَطِيرًا[١١] يابسًا. وجاء بتَمر فَضٍّ[١٢] وفَضًا وَفَذٍّ وحَثٍّ[١٣]: لا يَلْزَقُ بَعْضُه ببعض.

قال أبو الحسن الطُّوسيّ: أخبرني هشام قال: دَخَلَ عليَّ فَرَجٌ الرُّخَّجِيُّ وقد تَغَدَّيْتُ واتَّكَأتُ، فقال: يا أبا عبد الله، إنَّمَا تُحْسِنُ الأكلَ والاتِّكَاء. [قال]: فتركتُ [الأَكلَ] عنده أيَّامًا، وبلغه ذلك، فَبَعَثَ إليَّ: إن كُنْتَ لا تَأكُلُ طَعامَنا فليس لنا فيك حاجَة: قال:

---

(١) في اللسان أن «الحريرة» دقيق يطبخ بلبن أو دسم.

(٢) في اللسان: أن النجيرة لبن وطحين يخلطان؛ وقيل: هي لبن حليب عليه سمن. وقيل: هى ماء وطحين يطبخ. والنجيرة: بين الحسو وبين العصيدة. والذي في كلتا النسختين «النحيرة»؛ وهو تصحيف.

(٣) الحسو: طعام يعمل من الدقيق والماء.

(٤) وقيل: إن اللوقة الزبدة.

(٥) وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين مضطربة الحروف في رسمها. وقد قلبناها على عدة وجوه، وهذا الذي أثبتناه هو ما وجدناه في كتب اللغة بالمعنى الذي ذكره المؤلف هنا.

(٦) الخلفة: المخاض من النياق.

(٧) في كتب اللغة أن «النخيسة» و«القطيبة» لبن الماعز يخلط بلبن الضأن، لا لبن إبل كما هنا.

(٨) عبارة اللغويين «لا أدم معه».

(٩) في (أ) «وشواء النار».

(١٠) وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين مصحفة الحروف يحتاج إصلاحها إلى بحث في كتب اللغة. وهذا الذي أثبتناه هو ما وجدناه في تلك الكتب بالمعنى المذكور هنا، وهو الخبز اليابس.

(١١) «الفطير» هو الذي أعجل قبل أن يختمر.

(١٢) كذا في كتب اللغة، وقد وردت هاتان الكلمتان في كلتا النسختين مصحفتي الحروف يحتاج إصلاحهما إلى تقليبهما على عدة وجوه.

(١٣) في كلتا النسختين، «قد وحاء حب»؛ وهو تصحيف في كلتا الكلمتين، وما أثبتناه عن كتب اللغة.

«فأكلتُ[١] شيئًا ثم أَتَيْتُه» فلَم يعْتذر ممّا كان.

قال أبو الحسن: أخبرني الفرَّاءُ قال: العرب تُسمِّي السِّكْبَاجَةَ[٢] الصَّعْفَصَة. وأنْشَدَ:

أبو مالِكٍ يَعْتَادُنَا فـــي الظَّهَائِرِ   يَجُوء فَيُلْقِي رَحْلَهُ عِنْدَ عامِرِ[٣]

أبو مالك: الجوع، هكذا تقول العرب ويَجِيء(٢) ويَجُوءُ لغتان.

وقال الآخر:

رأَيْتُ الغوانـــي إذْ نَزَلْتَ جَفَوْننـــى   أَبا مـــالِكٍ إنـــي أظُنُّكَ دائبـــا[٤]

أبو مالك ها هنا الشَّيْب.

قال أبو الحسن: أخبرني النَّوْرِيّ[٥] عن أبي عُبَيْدةَ في الحديث الذي يُرْوَى عن عمرَ ابن الخطاب أنّه رَأَى في رَوْثِ فَرَسِهِ حَبَّةَ شَعِير، فقال: لأجعلنَّ[٦] لك في غَرَزِ[٧] النَّقِيع ما يَشْغَلُك عن شَعِيرِ المُسْلمين. قال: والنقيع: موضع بالمدينة أَحْمَاهُ عمر [بن الخطّاب] لخيل المسلمين، خِلاف البَقيع بالباء.

قال الطّوسِيُّ: العرب تقول: «أيدِي الرّجال أعناقُهَا» أي مَن كان أطولَ يدًا على المائدةِ تناوَل فأكل، الهاءُ تَرْجِع على الإبل، أي أيدي الرجال أعناق الإبل، أي مَنْ طالَ نال.

قال الأصمعيّ: سألت بعضَ الأكَلَة فيمَن كان يُقدِم على مُيَسِّرِي الناس كيف تَصْنَع إذا جَهَدَتْكَ الكِظَّة - والعَرَبُ تقول: «إذا كنتَ بَطِنًا فعُدَّكَ زَمِنًا» -؟ قال: آخُذُ رَوْثًا حارًّا

(١) وردت هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين في كلتا النسختين مضطربة الحروف، تتعذر قراءتها، والسياق يقتضي إثباتها على هذا الوجه.

(٢) السكباجة: مرق يعمل من اللحم والخل.

(٣) عامر: من أسماء الخبز، ويسمى أيضًا جابرا وعاصما. والذى في الأصل: يجوّ مكان «يجوء»... ويجيّ ويجوّ في التفسير بعد؛ وهو تحريف، والتصويب عن اللسان. وفي كتاب ما يعول عليه «بلم فيلقي». وجابر مكان «عامر».

(٤) في كلتا النسختين «دانيا»؛ وهو تصحيف. والتصويب عن اللسان وما يعول عليه وروايته في كلا الكتابين: أبا مالك إن الغواني هجرنني أبا مالك إلخ.

(٥) في (ب) التوزي؛ والثوري؛ والتوزي، كلاهما معروف.

(٦) في (أ) لأجعلنك.

(٧) الغرز بالتحريك: نبات يشبه الثمام ينبت على شواطئ الأنهار، وفي كلتا النسختين عزيز؛ وهو تصحيف.

وأَعْصِرُه وأشرب ماءَه، فأَخْتَلِفُ[(١)] عنه مِرارًا، فلا أَلْبَثُ أن يَلْحَقَ بَطْني [بِظَهْرِي] فأشتهي الطعام.

قال ابن الأعرابي: قال الكِلابيّ: هو يَنْدِفُ الطَّعامَ إذا أَكَلَهُ بيَدِه، ويَلْقَمُ الحَسُوَّ، واللَّقْمُ بالشَّفَة، والنَّدْفُ: الأَكْلُ باليَد. وقال الزبيريّ: يَنْدِف[(٢)].

وأنشد ابن الأعرابيّ:

ويَظَلُّ ضَيْفُ بَنِي عُبَادَةَ فِيهِمُ ... مُتَضَمِّرًا وبطُونُهُمْ كُتُمُ

أي مُمْتَلِئة. والتَّضَمُّرُ: الهُزال والنَّحافَةُ، كالنخل المُضَمَّر، أي الذي قد ذَوَتْ[(٣)] جُذُوعُه. قال الشَّنَبُوذيّ في قول الله تعالى[(٤)]: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ [الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٤] قال: الذين يَثْرُدُون ويأكُلُ غَيْرُهم. قال أبو الحسن: كانت ليَ ابنة تجلِسُ مَعي على المائدةِ فتُبْرِزُ كَفًّا كأنها طَلْعَةٌ، في ذِرَاعٍ كأَنَّها جُمَّارَة، فلا تقع عينُها على أكلةٍ نفِيسَةٍ إلا خَصَّتْني بها، فَزَوَّجْتُها، وصار يجلسُ مَعي على المائدة ابنٌ لي، فيُبْرِزُ لي كفًّا كأَنَّها كِرْنَافة[(٥)]، في ذراعٍ كأنها كَرَبَة[(٦)]، فوالله إنْ[(٧)] تَسْبِقُ عيني إلى لُقْمةٍ طَيِّبَةٍ إلَّا سَبَقتْ يدُه إليها.

وقال أعرابيٌّ للنبي ﷺ: إني نَذَرْتُ إذا بَلَّغَتْنِي نَاقَتِي أن أَنْحَرَهَا وآكُلُ مِنْ كَبِدِهَا. قال: «بئسما جازَيْتَها»[(*)].

أضلَّ أعرابيٌّ بعيرًا له، فطلبَه، فرأى على باب الأمير بُخْتِيًّا، فأخذه وقال: هذا بعيري، فقال: إنّك أضْلَلْتَ بعِيرًا وهذا بُخْتِيّ. فقال: لَمّا أَكَلَ عَلفَ الأمير تَبَخَّتَ. فضحك منه

---

(١) يقال: اختلف إلى الخلاء، إذا أصابه إسهال فتردد إليه.

(٢) يظهر أن في هذه العبارة نقصا وقع من الناسخ.

(٣) في (أ) «وقت» بالواو؛ وهو تحريف، ولعل صوابه «رقت» بالراء مع تشديد القاف. وفي (ب) «درت» بالدال المهملة والراء؛ وهو تحريف أيضًا، ولعل صوابه ما أثبتنا، كما يقتضيه سياق الكلام.

(٤) في (ب) في قوله عز وجل.

(٥) الكرنافة: أصول الكرب التي تبقى في جذع النخلة بعد قطع السعف.

(٦) الكربة بالتحريك: أصول السعف الغلاظ العراض التي تقطع منها.

(٧) إن تسبق، أي ما تسبق؛ فإن هنا نافية. (*) رواه مسلم وأحمد.

وتركه [يعيدُ قولَه ويُعْجِبُه].

الكِدْنَةُ: غِلَظُ اللَّحْم وتَراكُمُه، ومنه قول هشام لسالم - وقد رآه فأعجبه جسمُه: ما رأيتُ ذا كِدْنَةٍ أَحْسَنَ مِنْك، فما طعامُك؟ قال: الخُبْزُ والزَّيْتُ. قال: أما تَأْجمه[١]؟ قال: إذا أَجَمْتُه تركتُه حتى أشتهِيَه، ثم خرج وقد أصاب في جسمه بَرَصًا. فقال لَقِعَنِي[٢] الأَحْوَلُ بعينه، فما خَرَجَ هِشَام من المدينة حتى صلّى عليه.

وقال عبد الأعلى القاصّ[٣]: الفقير مَرَقَتُه سِلْقَة، وغِذاؤه[٤] عُلْقَة[٥]، وخُبْزَتُهُ فِلْقَة[٥]، وَسَمَكَتُهُ شِلْقَة، أي كثيرة الشَّوكِ[٦].

قال رجاء بن سَلَمة: الأكلُ في السُّوقِ حَماقة.

قيل لذُؤيْب بن عَمْرو: إنك مُفْلِسٌ لا تَقْدر على قُرْصٍ ولا جُمْعٍ[٧] ولا حُفَالة[٨]، وَبيْتك عامرٌ[٩] بالفأر.

قال علي بن عيسى: الطلاق الثّلاث البَتَّة إن كان يمنَعُهم[١٠] مِنَ التَّحَوُّل عنه إلا أنهم يسرِقونَ أطعمة الناس يأكلونها في بيته لأَمْنِهِمْ فيه، لأنه لا هِرَّ هناكَ ولا أحدَ يأخذ شيئًا ولا يُؤْذَوْن، وإنّ لهم لَمِسْقَاةً مملوءةً كلما جفَّتْ سُكِبَ لهم فيها ماءٌ.

جعَلَ الخَبَرَ عن الفأر على التلمح، كالخبرِ عن قومٍ عُقلاء.

---

(١) أجم الطعام: مله.

(٢) لقعه بعينه، أي أصابه بها.

(٣) في ب «القاضي» بالضاد المعجمة؛ وفي (أ) العاص بالعين المهملة.

(٤) في (أ) «ورداؤه»، وفي ب «وعداؤه» وهو تصحيف.

(٥) العلقة: ما يتبلغ به من الطعام. والفلقة: القطعة، كالفلذة.

(٦) في كتب اللغة أن الشلقة شيء على خلقة السمك صغير له رجلان عند ذنبه كهيئة الضفدع، ويكون في أنهار البصرة، ولعله المعروف عندنا بأبي جلنبو.

(٧) الجمع بضم الجيم وسكون الميم: ما يملأ جمع الكف، أي قبضته من الطعام ونحوه.

(٨) الحفالة: الحثالة، أو عكر الدهن؛ أو ما رق من رغوة اللبن؛ كل من هذه المعاني الثلاثة تصح إرادته هنا. وفي (أ) «ولا صفالة»؛ وهو تحريف.

(٩) سيأتي ما يفيد تعليل كون بيته عامرا بالفأر مع خلوه من الطعام.

(١٠) «يمنعهم»، الضمير يعود على الفترة.

وقال النبي ﷺ: «أَكرِمُوا الخُبْزَ فإنَّ اللهَ أَكْرَمَه وسخَّرَ لهُ بَرَكات السَّموات والأرض»(*).

وقال آخر:

كأنّ صـــــوتَ سَحْبِهَا[1] المُمْتَـــاح سُعَالُ شَيْخٍ مِنْ بَنـــــي الجُــــلَاحِ
يقولُ من بعد السُّعَال آحِ

قال الأصمعيّ: الرَّجيعُ: الشِّوَاء يُسَخَّنُ ثانيةً. والنَّقِيعَةُ: ما يُحْرِزُه رئيس القوم مِنَ الغنيمة قبل أن تُقسَم والجمع نَقائع. وقال: أنشدني عيسى بن عمر لمعاوية بن صعصعة:

مثلُ الذُّرَى لُحبتْ عَرَائكُــــهَا[2] لَحْبَ الشِّفارِ[3] نَقائعَ النَّهْــبِ

وقال مُهَلْهِل:

إنا لنَضْرِبُ بالسيوفِ رُؤوسَهُـمْ ضرْبَ القُدَارِ نَقيعَـــةَ القُـدَّامِ

القُدَار: الجزّار والقُدَار: المَلِكُ أيضًا. والقُدَّام: رؤساء الجيوش، والواحد قادم.

وقال مَعْن[4] بن أوس يصف هَدِير قِدْرٍ:

إذا التَطَمَت[5] أمواجُها فكأنهـــا عــوائذُ دُهْمٌ في المَحَلَّةِ قُيَّــلُ

(*) ذكره الألباني في صحيح الجامع برقم (١٢١٩) وقال: خلاصة حكم المحدث حسن. وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٠).

(١) سحبها، أي سحب البكرة التي يستقي بها من البئر. وفي (ب) «شحنها»، وهو تصحيف. «والممتاح» من امتاح الماء إذا أخرجه من البئر.

(٢) لحبث عرائكها، أي أهزلت أسنمتها، جمع عريكة.

(٣) لحب الشفار الخ: اللحب في هذا الشطر بمعنى القطع، أي كما تقطع الشفار، أي «السكاكين»- لحم النياق العظيمة، أو لعله السفار بالسين المهملة مكان الشين، أي كما يهزل السفر تلك النياق بمشقته فيذهب بما فيها من لحم وشحم.

(٤) كذا في (ب)، والذي في (أ) «بكر». وقد ورد هذا الشعر في ديوان معن بن أوس المطبوع في ليبزج سنة ١٩٠٣ من قصيدة يمدح بها سعيد بن العاص؛ وأولها:

إليك سعيد الخير جابت مطيتي فروج الفيافي وهي عوجاء عيهل

(٥) يريد بالتطام الأمواج هنا اضطراب ما في القدر عند غليانها. ويريد بقوله «عوائد دهم» خيلا سودًا حديثات النتاج. شبه القدور بتلك الخيل التي معها أولادها. وقيل: من القائلة. ويروى «عواتب» مكان قوله. «عوائذ»، وهي التي تمشى على ثلاث قوائم وعقرت رابعتها. شبّه القدر بها، لأنها توضع على أثافيّ ثلاث.

إذا ما انتحاها المُرْمِلـون[1] رأيتَها لِوَشْكِ قِرَاهـا وهـي بالجَـزْلِ تُشْعَـلُ

سمعتَ لها لَغْطًا[2] إذا ما تَغَطْمَطتْ كهَـدْرِ الجِمَال رُزَّمًا حيـن تَجْفُـلُ

وقال آخر:

إذا كان فَصْدُ العِرْق والعِرْقُ ناضِبٌ وكَشْطُ سَنَام الحَـيِّ عَيْشًا[3] وَمَغْنَما

وكان عَتِيقُ[4] القِدِّ خيرَ شِوائهـم وصارَ غَبُوقُ الخُـودِ ماءً مُحَمَّمـا

عَقَرْتُ لهم دُهْمًـا مَقاحِيدَ[5] جِلَّةً وعادت بَقايـا البَـرْكِ نَهْبًـا مُقَسَّمـا

قال[6]: وإذا كان القَحْط فصدوا الإبل وعالجوا ذلك الدَّمَ بشيء من العلاج لها كما يَصنع الترك، فإنها تجعله في المُصْرَان، ثم تشويه أو تطبخه، فيؤكل كما تؤكل النّقانِق[7] وما أَشْبَه ذلك.

وأما قوله: «والعِرْق ناضِبٌ» فإنما يعني قلّةَ الدَّم لهزال البعير، وكذلك جميع الحيوان، وأكثر ما يكون دمًا إذا كان بينَ المَهْزُول والسَّمين.

وقالت أمّ هِشَام السَّلوليَّة: ما ذكَرَ الناسُ مذكورًا خيرًا من الإبل وأَجْدَى[8] على أَحَدٍ بخير؛ هكذا رُوي.

---

(١) المرملون: الذين نفدت أزوادهم. والجزل: الحطب الغليظ. والذي في كلتا النسختين: «إذا ما امتطاها الموقدون»؛ وهو تحريف.

(٢) اللغط (بفتح أوله وتسكين ثانيه): اللغط بفتحهما معا، وهو نشيش القدر. وفي كلتا النسختين: «لفظا»؛ وهو تحريف. والتصويب والتفسير عن ديوان معن بن أوس المطبوع في ليبزج. وتغطمطت، أي صوتت في غليانها. والرزّم من الإبل: التي تخرج أصواتها من حلوقها لا تفتح بها أفواهها، كما ورد ذلك في التفسير المكتوب على هذا البيت في شعر معن ابن أوس. وفي كلتا النسختين: «تحفل» بالحاء المهملة مكان «تجفل» بالجيم؛ وهو تصحيف.

(٣) في رواية: «زادا ومطعما». وكانت العرب في الجدب تشق أسنمة الإبل وهي حية وتأخذ ما فيها من الشحم وتأكله.

(٤) عتيق القد، أي القديم من الجلد، وكانت العرب تشتويه وتأكله إذا أجدبت. ويشير بالشطر الثاني إلى قلة اللبن حتى إن الخود (وهن الشوابّ الحسان الناهمات) لا يجدن اللبن يغتبقن به أي يشربنه في المساء، فهن يشربن الماء الحار المسخن. يقال: حمّم الماء إذا سخنه. وفي الأصل «الجود» بالجيم مكان «الخود» بالخاء؛ وهو تصحيف.

(٥) المقاحيد من النياق: العظيمة الأسنمة. والجلة: العظيمة منها. والبرك: الإبل الباركة.

(٦) قال، أي من روى عنه المؤلف؛ ولعله الأصمعي؛ إذ هو أقرب مذكور.

(٧) لم نجد هذا النوع من الطعام فيما راجعناه من الكتب.

(٨) في (أ) التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب): واجاءه؛ وهو تحريف؛ ولعلّ صوابه ما أثبتنا.

وقال الأندلسيّ: إنْ حَمَلتْ أثقلَتْ، وإنْ مشَتْ أبعدَتْ، وإنْ حَلَبتْ أَرْوَتْ، وإنْ نُحِرَتْ أَشْبَعَتْ.

قال أبو الحسن الهَيْثَم، عن عبد العزيز بن يسار قال: قدمتُ ياجُمَيْرى[1] بخمس سَفائِفَ[2] دقيق، وذاك في زمن مصعب وهو مُعسكِرٌ بها فلَقِيَني عِكْرِمَةُ بنُ رِبْعيّ الشَّيبانيُّ فقال: بكم أَخَذْتَها؟ قلتُ بتسعين ألفًا. قال: فإني أُعْطيكَ مائةً وخمسين ألفًا على أن تؤخِّرني. فدفعتُهنَّ إليه، وما في المُعَسكر يومئذ دقيق. قال: فجاء بنو تَيْم الله فأخذوا ذلك الدقيق، فجعل كلُّ قومٍ يَعْجِنون على حِيالهم، ثم جاءوا إلى رَهْوَةٍ[3] من الأرض فحفروها، ثم جعلوا فيها الحَشيش، ثم طرحوا ذلك العجينَ فيها، ثم أقبلوا فأخذوا فرَسًا وَدِيقًا[4]...[5] فَخَلَّوْا عنه، ثم أقبلوا وهو[6] يَتْبَعهم حتى انتهوا إلى الحَفيرة، فدفعوا الفرَسَ الوَدِيق فيها، وتَبِعَها الفرس، وتَنادَى الفريقان: إن فرَس حَوْشب وقع في حَفيرة عِكْرِمَةَ فما أخرجوهُ إلا بالعَمَد. قال: فَغَلَبه عِكرمة.

قال شاعر:

لا أَشْتُمُ الضَّيْفَ إلا أن أقـول له: ... أَباتَكَ[7] اللهُ في أبياتِ عَمَّـارِ

أباتَكَ[7] اللهُ في أبياتِ مُعْتَنِزٍ[8] ... عن المكارم لا عَفٍّ ولا قـارِي

(١) ياجُمَيْرَى: موضع دون تكريت من أرض الموصل كان يعسكر فيه مصعب بن الزبير. والذي في (أ) الوارد فيها هذه القصة وحدها دون (ب) بأحمز وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب التاريخ ومعجم البلدان لياقوت.

(٢) السفائف: جمع سفيفة؛ وهي النسيجة من الخوص نحو الزنبيل. وفي الأصل «سقائق»؛ وهو تصحيف.

(٣) الرهوة: المكان المنخفض من الأرض.

(٤) الوديق: من الوداق بكسر الواو، وهو شهوة الفحل.

(٥) يظهر لنا أن موضع هذه النقط كلام ساقط من الأصل يفيد أنهم أقبلوا إلى فرس آخر ذكر لرجل منهم يسمّى حوشبا، فخلوا عنه الخ ما هنا، وذلك أخذا من قوله فيما يأتي بعد: فدفعوا الفرس الوديق فيها وتبعها الفرس الخ القصة.

(٦) وهو، أي فرس آخر ذكر، ولم يذكر في الكلام؛ فلعل فيه نقصا كما نبهنا على ذلك في الحاشية التي قبل هذه.

(٧) في (أ) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها دون (ب): «أثابك» في كلا الموضعين وسياق الشعر يقتضي ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة.

(٨) في (أ) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها: «معتمر»، ولم نتبين له معنى يناسب السياق. والصواب ما أثبتنا. والمعتنز: المنتحيّ بعيدًا.

جَلْدِ النَّدَى زاهدٍ في كــلّ مَكْرُمَـــةٍ ... كَأَنَّما[1] ضَيْفُـــه فـــي مَلَّةِ النَّـــارِ

وقال آخر:

وهـــو إذا قيـــل له: وَيْهًا كُـــلْ ... فإنّه مُوَاشِـــكٌ مُسْتعجِـــلْ

وهو إذا قيـــل له: وَيْهًا[2] فُـــلْ ... فإنَّهُ أَحْـــجِ بهِ أن يَنْكُـــلْ

[قيل لصُوفِيٍّ: ما حدُّ الشِّبَع؟ قال: لا حدَّ له، ولو أراد الله أن يؤكل بحَدٍّ لبَيَّنَ جميعَ الحدود. وكيف يكون للأكل حدّ، والأكَلَةُ مخْتلِفُو الطِّباعِ والمزاج والعارض والعادة، وحكمة الله ظاهرة في إخفاء حدّ الشِّبَع حتى يأكل مَن شاء على ما شاء كما شاء].

وقيل لصوفيٍّ: ما حدُّ الشِّبَع؟ فقال: ما نشَّطَ على أداء الفرائض، وثَبَّطَ عن إقامة النَّوافِل.

وقيل لمُتكَلم: ما حدُّ الشِّبَع؟ فقال: حدُّه أن يجلِبَ النوم، ويُضْجِرَ القَوْم، ويبعثَ عَلَى اللَّوْم.

وقيل لِطُفَيْلِيّ: ما حَدُّ الشِّبَع؟ قال: أنْ يُؤْكَلَ على أَنَّه آخِرُ الزَّاد، ويُؤْتَى على الجِدِّ والدِّقِّ.

وقيل لأعرابيّ: ما حَدُّ الشِّبَع؟ قال: أمّا عندكم يا حاضرَة فلا أدْري؛ وأما عندنا في الباديةِ فما وجَدَت العيْن، وامتدَّت إليه اليَد، ودارَ عليه الضِّرْس، وأساغَهُ الحَلق، وانتفَخَ به البطن، واستدارت عليه الحوَايا، واستغاثَت منه المَعِدَة، وتقوَّست منه الأضلاع، والْتَوَتْ عليه المصارين، وخِيف منه الموت.

وقيل لطبيب: ما حدُّ الشِّبَع؟ قال: ما عدَّل الطبيعة، وحفِظَ المِزاج وأبْقَى شَهوَةً لما بَعْد.

وقيل لقصَّار: ما حدُّ الشِّبَع؟ قال: أَنْ تَثِبَ إلى الجَفْنَةِ كأَنَّكَ سِرْحان، وتأكل وأنتَ غَضْبان، وتَمْضَغَ كأنك شيطان، وتَبلَعَ كأنك هَيْمَان، وتَدَعَ وأنت سَكران، وتَسْتَلقيَ كأنك

(١) في (أ) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها: «كأنهم ضيقة»؛ وهو تحريف. وسياق الشعر يقتضي ما أثبتنا. وملة النار: موضعها.

(٢) «وبها فل» بالفاء، أي إذا نودي باسمه لعظائم الأمور فقيل: يا فلان، نكل عن النداء وتنكّب. وفي الأصل: «قل» بالقاف... ويتكل. وهو تصحيف في كلتا الكلمتين. والتصويب عن اللسان. وويها: كلمة حض واستحثاث.

أَوَان[1].

وقيل لحمَّال: ما حدُّ الشِّبَع؟ قال: أن تأكل ما رأيتَ بعَشْرِ يديْكَ غيرَ عائِفٍ ولا مُتَقَزِّزٍ، ولا كارِهٍ ولا متعزِّز.

وقيل لمَلَّاح: ما حدُّ الشِّبَع[2]؟ قال: حدُّ السُّكر. قيل[3]: فما حَدُّ السُّكْر؟ قال: أَلَّا تَعْرِفَ السَّماءَ من الأرض، ولا الطُّولَ من العَرْض، ولا النافلةَ مِنَ الفَرض، مِنْ شِدَّةِ النَّهْسِ والكَسْرِ والقَطْعِ والقَرْض. قيل له فإنَّ السكر محرَّم، فلِمَ جعلْتَ الشِّبَع مِثلَه؟ قال: صدَقْتُم، هما سُكْران: أحدُ السُّكْرَين موصوفٌ بالعَيْب والخَسار، والآخَرُ معروفٌ بالسَّكينة والوقار. قيل [له]: أما تخاف الهَيْضَة؟ قال: إنما تُصيبُ الهَيْضَةُ مَن لا يسمِّى اللهَ عند أَكْلِه، ولا يشْكُرُه على النعمة فيه. فأما من ذكَرَ اللهَ وشَكَرَه فإنه يَهْضِم ويستَمْرِئ ويَقرَمُ إلى الزِّيادة.

وقيل لبخيل: ما حدُّ الشِّبَع؟ قال: الشبَعُ حَرامٌ كلُّه، وإنّما أَحلَّ الله من الأكل ما نَفَى الخَوَى، وسكَّنَ الصُّدَاع، وأمسكَ الرَّمَق، وحال بين الإنسان وبين المَرَح، وهل هَلَكَ الناسُ في الدِّين والدنيا إلا بالشِّبَع والتَّضَلُّع والبِطْنَة والاحتشاء، والله لو كان للناس إمامٌ لوَكَّلَ بكلّ عَشرةٍ منهم مَن يحْفَظ عليهم عادةَ الصحة، وحالةَ العدالة، حتى يزول التعدِّي، ويفْشُوَ الخير.

وقيل لجُنْدِيّ: ما حدُّ الشِّبَع؟ قال: ما شدَّ العضُدَ، وأَحْمَى الظَّهر، وأَدَرَّ الوَريد، وزادَ في الشَّجاعة.

وقيل لزاهد: ما حدُّ الشِّبَع؟ قال: ما لم يَحُلْ بينَك وبينَ صوم النهار وقيامِ اللَّيْل. وإذا شكا إليك جائعٌ عرَفْتَ صدقَه لإحساسك به.

وقيل لمَدَنيّ: ما حدُّ الشِّبَع؟ فقال: لا عهْدَ لِي به، فكيف أصِفُ ما لا أعرف؟

---

(١) الأوان: العدل (بكسر العين)، كالأون (بسكون الواو).

(٢) في (ب)ك «الأكل» مكان «الشبع»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٣) كذا في (ب) وهو أنسب. والذي في (أ): «قال».

قيل ليَمَنيّ: ما حدُّ الشِّبَع؟ قال: أن يُحْشَى حتى يُخْشَى.

وقيل لتُركيّ: ما حَدُّ الشِّبَع؟ قال: أن تأكلَ حتى تَدْنُوَ من الموت.

وقيل لِسِمّويه[١] القاصّ: مَن أفضلُ الشهَدَاء؟ قال: من مات بالتُّخَمَة، ودُفِنَ عَلَى الهَيْضَة.

قيل لسَمرقَنْديّ: ما حَدُّ الشِّبَع؟ قال: إذا جَحَظَتْ عَيْناك، وبَكِمَ لِسانُك، وثَقُلَتْ حَرَكتُك، وَارْجَحَنَّ بَدَنُك، وزالَ عَقلُك، فأنت في أوائل الشِّبَع. قيل له: إذا كان هذا أوَّلُه، فما آخِرُه؟ قال: أن تَنْشَقَّ نِصْفَيْن.

قيل لهنديّ: ما حَدُّ الشِّبَع؟ قال: المسألة عن هذا كالمُحال، لأنّ الشِّبَع من الأرُزِّ النقيّ الأبيض، الكبارِ الحَبِّ، المطبوخ باللَّبن الحليب، المَغْرُوف على الجام البِلَّوْر، المَدُوف[٢] بالسُّكَّر الفائق، مخالفٌ للشِّبَع من السَّمَك المَمْلُوح وخُبْز الذُّرَة، وعلى هذا يختلف الأمرُ في الشِّبَع. فقيل له: فَدَعْ هذا، إلى مَتَى يَنْبَغي أن يأكلَ الإنسان؟ قال: إلى أن يقع له أنّه إن أراد لُقْمة زَهَقَتْ نَفْسُه إلى النّار.

قيل لمُكارٍ: ما حَدُّ الشِّبَع؟ قال: واللهِ ما أَدْري، ولكنْ أُحِبُّ أَنْ آكلَ ما مَشَى حِماري مِنَ المنْزِلِ إلى المنْزِل.

قيل لجمَّال: ما حَدُّ الشِّبَع؟ قال: أنا أُوَاصِلُ الأكلَ فما أعرفُ الحدّ، ولو كنتُ أَنتهي لوَصَفْتُ الحال فيه، أعني أني ساعةً ألتّ[٣] الدقيق، [وساعةً أَمَلّ المَلَّة، وساعةً أَثْرُد، وساعةً آكلُ] وساعةً أَشْرَبُ لَبَنَ اللِّقاح؛ فليس لي فَراغ فأدري أني بَلَغْتُ من الشِّبَع، إلا أنني أَعْلَم في الجُمْلة أَنّ الجُوعَ عَذَابٌ وأَنَّ الأكلَ رَحْمَة، وأَنَّ الرَّحمةَ كلَّما كانت أكثرَ، كان العَبدُ إلى اللهِ أقرب، واللهُ عنه[٤] أَرْضَى.

(١) كذا ورد هذا الاسم في الأصول؛ ولم نقف عليه فيما راجعناه من الكتب.

(٢) المدوف: المخلوط. وفي كلتا النسختين: «المدفون»؛ وهو تحريف.

(٣) في (ب): «أعجن».

(٤) في (ب): «عن العبد».

قال الوزير: لمَّا بلغتُ هذا الموضع من الجُزء - وكنتُ أَقرأُ عليه-: ما أحسنَ ما اجتَمعَ مِن هذه الأحاديث! هل بقيَ منها شيء؟ قلت: بَقيَ منها جزءٌ آخر[1]. قال: دَعْهُ لِلَيلةٍ أخرى وهاتِ مُلْحَةَ الوَداع. قلت: قيل لصُوفِيّ في جامع المدينة: ما تَشْتَهي؟ قال: مائدةً رَوْحاء[2] عليها جَفْنَةٌ رَحَّاء[4]، فيها ثَرِيدَةٌ صَفْراء، وقِدْرٌ حمراءُ بيضاء.

قال[3]: أَبَيْتَ[4] الآن [أَلَّا] تودِّع [إِلَّا] بِمِثْلِ ما تَقَدَّم؟ وانصرفْتُ.



(١) في (ب): «واحد» مكان قوله: «آخر».

(٢) يقال: جفنة روحاء، إذا كانت واسعة عريضة؛ والرحّاء كذلك.

(٣) قال، أي الوزير.

(٤) وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين مهملة الحروف تتعذّر قراءتها، والسياق يقتضي إثباتها على هذا الوجه.

الليلة الثانية والثلاثون

ثم حضَرْتُ فقرَأْتُ ما بَقِيَ من هذا الفَنّ.

قال رجلٌ مِن فزارة[١]:

تَنْبَـحُ أحـيانًا وأحيانًـا تَهِـرّ وتَتَمَطَّى[٢] سـاعةً وتَقْدَحِـرّ
تَعْدُو على الضَّيْفِ[٣] بعودٍ مُنْكسِرْ يَسقُط عنهـا ثوبُهـا وتَأْتَـزِرْ
لو نُحِرَتْ في بيتِها عَشـرُ جُزُرْ لَأصْبَحَتْ مِنْ لَحْمِهنَّ تَعْتَـذِرْ
بحَلِفٍ سَـحٍّ[٤] ودَمْـعٍ مُنْهَمِرْ يَفِرُّ مَنْ قَاتَلَهَـا[٥] وَلا تَفِـرّ

المُقْدَحِرّ: المتهيئ للسِّباب.

وقال أبو دُلامة الأسَديّ[٦]:

قد يُشْبِع الضَّيفَ الذي لا يَشْبَعُ مِنَ الهَبِيدِ وَالحِـرَادُ تَسَـعُ[٧]

(١) ورد بعض هذا الرجز في المحاسن والأضداد ومجموعة المعاني ولسان العرب. وبعض ما ورد في هذه الكتب لم يرد هنا، كما أن بعض ما ورد هنا لم يرد هناك، وهذا ما ورد في اللسان، وهو ما لم يذكر هنا:

أم حوار ضنؤها غير أمـر صَهْصَلِقُ الصوت بعينيها الصبر
سائلة أصداغها لا تختمـر إلخ.

(٢) في كلتا النسختين: «وتمطر»؛ وهو تحريف، والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٣) في اللسان: «على الذئب».

(٤) سح، أي كثير متتابع، كما في كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤١ لغة. وفي مجموعة المعاني وكتاب المحاسن والأضداد: «سبيح»، وهو يستقيم على الإضافة لا على الوصف. والذي في الأصل: «سيح»؛ وهو تحريف.

(٥) في الأصل: «نفر» بالتاء... «ولا تفر»؛ وهو تصحيف في كلتا الكلمتين.

(٦) في (أ) الوارد فيها هذا الكلام وحدها: «الأسامي»؛ ولم نجد هذه النسبة لأبي دلامة فيما راجعناه من الكتب. والذي وجدناه أن أبا دلامة كان مولى لبني أسد، فلعل الصواب ما أثبتنا.

(٧) الهبيد: حب الحنظل. والحراد: ذكور الضباب، الواحد حردون بالدال المهملة أو الذال المعجمة. وتسع، أي تتسع لأكله مهما كثر.

ثم يقول ارْضُوا بهذا أَوْ دَعُوا

وقال آخر:

حتى إذا أَضْحَى تَدَرَّى[١] واكْتَحَلْ   لجارَتَيْـــهِ ثم وَلَّــى فَنَثَــلْ

ذَرْقَ الأنُوقَيْنِ[٢] القَرَنْبَى وَالجُعَلْ

وقال آخر:

[إذا[٣] أَتَوْه بطعـــامٍ وَأَكَــلْ]   بات يُعَشِّي وَحْدَهُ أَلْفَيْ جُعَـلْ

وقال أبو النَّجْم:

[تُدْني من الجَدْوَلِ[٤] مِثْلَ الجــدْوَلِ]   أَجْوَفَ فـي غَلْصَمَةٍ[٥] كالمِرْجَــلِ

تَسْمَعُ للماءِ كصَوْتِ المِسْحَــلِ[٦]   بين وَرِيدَيْها[٧] وبيـــن الجَحْـفَــلِ

يُلقِيه[٨] منْ طَرْقٍ أَتَتْهـــا منْ عَــلِ   قَذْفُ لها جَــوْفٍ وَشِــدْقٍ أَهْدَلِ[٩]

كأَنَّ صَوْتَ جَرْعِهــا المُسْتَعْجِــلِ   جَنْدَلَــةٌ دَهْدَهَتْهــا[١٠] في جَنْـدَلِ

---

(١) كذا ورد هذا الشعر في كتاب الحيوان للجاحظ، وتدرى، أي تمشط. والمدرى والمدراة: المشط. والذي في (أ) الوارد فيها هذا الشعر وحدها: «لجاذبته» مكان قوله: «لجارتيه»؛ وهو تحريف. ونثل، أي راث.

(٢) الأنوق: لفظ يطلق على كل ما يأكل العذرة من الرخم وغيرها، قاله الجاحظ في كتاب الحيوان وذكر هذا الشعر شاهدا على ذلك. والقرنبى: دويبة كالخنفساء وأعظم منها بيسير طويلة القوائم. وقد فسّر اللغويون الأنوق أيضا بأنه الطير الذي يبيض في الهواء ولا يستقيم معناه هنا.

(٣) هذا الشطر ساقط من الأصل، وقد أثبتناه عن الحيوان للجاحظ لتمام المعنى به. ويشير بقوله: «بات يعشي» الخ إلى أنه كثير البراز، فيقول. إنه إذا أكل تعشى مما يخرج منه ألفا جعل، لأن الجعل تقتات بالبراز. قاله الجاحظ.

(٤) هذا الشطر ساقط من الأصل؛ ولا يتم المعنى بدونه. ويشير إلى سعة فمها، فيشبهه بالجدول الذي يشرب منه.

(٥) الغلصمة: متصل الحلقوم بالحلق. وقيل هي اللحم الذي بين الرأس والعنق.

(٦) الضمير في «تسمع» للمخاطب. والمسحل: المبرد.

(٧) كذا في أرجوزة أبي النجم المنشورة في مجلة المجمع العلمي العربي. والذي في الأصل: «مديديها»؛ وهو تحريف. ويريد بالجحفل: شفتها.

(٨) في الأصل «يكفيه»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن أرجوزة أبي النجم المنشورة في مجلة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٨م، ويلقيه، أي يلقي الماء، وفاعله قوله بعد: «قذف».

(٩) الأهدل: المسترخي.

(١٠) دهدهتها، أي دحرجتها.

وقال آخر:

يقول للطّاهي المُطَرِّي[١] في العَمَلْ ضَهِّبْ[٢] لنا إنّ الشِّواءَ لا يُمَلّ

بالشَّحْمِ إمَّا قد أَجَمْناه[٣] بِخَلّ عَجِّلْ لنا مِنْ ذَا وَأَلْحِقْ بالبَدَلْ

وأنشد ابن الأعرابيّ:

أَعْدَدْتُ للضَّيْفِ وَللرَّفيقِ وَالجارِ وَالصَّاحِبِ وَالصَّديقِ

وللعِيالِ الدَّرْدَقِ[٤] اللُّصُوقِ حمراءَ مِنْ مَعْزِ أبي مَرْزُوقِ

تَلْحَسُ خَدَّ الحالِبِ الرَّفيقِ بلَيِّنِ المَسِّ قليلِ الرِّيقِ

كأنَّ صَوْتَ شُغْبِها الفَتيقِ فَحيحُ[٥] ضَبٍّ حَرِبٍ حَنِيقِ

في جُحُرٍ ضاقَ أَشَدَّ الضِّيقِ

وأنشد أيضًا:

هل لكَ في مِقْرَاةِ قَيْلٍ نِيٍّ[٦] وشَكْوَةٍ بارِدةِ النَّسِيِّ[٧]

تُخْرِجُ[٨] لَحْمَ الرَّجُل الضَّوِيِّ حتى تَراهُ ناهِدَ الثُّدِيِّ

وأنشد ابن حبيب:

(١) المطري: الطاهي الذي يخلط الطعام بالأفاويه. وطرّى الطعام: إذا خلطه بالتوابل.

(٢) ضهب، أي اشوِ شَيًّا غير كامل النضج، يريد الاستعجال، والتضهيب أيضا: شيّ اللحم على الحجارة المحماة.

(٣) أجمناه، أي مللناه.

(٤) الدردق: الصبيان الصغار. والذي في الأصل: «الزردق»؛ وهو تحريف.

(٥) في (أ) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها: «بجنح»؛ وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة. والفحيح: صوت الضب.

(٦) المقراة: الإناء الذي يُقرَى فيه. والقيل: اللبن الذي يشرب نصف النهار وقت القائلة. وقد ورد هذا الشطر في الأصل هكذا: «هل لك في المعرى بقيل بي»؛ ولا يخفى ما فيه من تصحيف.

(٧) الشكوة: وعاء من أدم يتخذ للبن والماء. والنسي: اللبن الحليب يصب عليه الماء.

(٨) «تخرج لحم الرجل الضوي»، أي تسمن المهزول الضامر.

نِعْمَ لَقُوحُ[١] الصِّبْيَةِ الأصاغرِ ... شَرُوبُهمْ مِنْ حَلَبٍ وحــــازِرِ[٢]

حتى يَرُوحوا سُقَّطَ المــآزر ... وُضْعَ الفِقاحِ[٣] نُشَّرِ الخَواصِــرِ

وأنشد الآمِديّ:

كأنَّ في فِيــه حِرَابًــــا شُرَّعَــا ... زُرْقًا تَقُضُّ[٤] البَدَنَ المُدَرَّعَـــــا

لو عَضَّ رُكْنًا وَصَفًّا تَصَدَّعَا

وقال محمد بن بشير:

لَقَلَّ عارًا[٥] إذا ضَيْفٌ تَضَيَّفَنــي ... ما كانَ عِنْدي إذا أَعْطَيْتُ مَجْهودي

فَضْلُ المُقِلِّ إذا أَعْطَاه مُصطَبِـرًا ... ومُكْثِرٍ في الغِنَى سِيَّانِ في الجُــودِ

لا يَعْدَمُ السائلون الخيرَ أَفعَلُـه ... إمَّــا نَوَالِي وإمَّا حُسْــنَ مَرْدُودي

قال الأعرابي: نِعْم الغَداءُ السَّوِيق، إنْ أكلتَه عَلَى الجُوعِ عَصَم، وإنْ أكلتَه عَلَى الشِّبَعِ هَضَم.

وقال العَوَّامي[٦] - وكان زَوَّارًا لإخوانه في منازِلهم -: العُبوسُ بُوس، والبِشْرُ بُشْرَى، والحاجَةُ تَفْتُقُ الحِيلة، والحِيلةُ تَشْحَذُ الطَّبيعة.

ورأيت الحنبلوني[٧] يُنشد [ابنَ آدم - وكان مُوسِرًا بخيلا]-:

وما لامرئٍ طُولُ الخُلودِ وإنَّمــا ... يُخَلِّدُه حُسْنُ الثَّنَــــاءِ فيَخْلُدُ

---

(١) اللقوح: الناقة الحلوب.

(٢) الحازر: اللبن الحامض.

(٣) الوضع: جمع أوضع وهو قليل لحم الوركين والإليتين، والأوضع والأرسح واحد.

(٤) تقض: تكسر.

(٥) كذا في ديوان الحماسة. والذى في (أ) الوارد فيها هذا الشعر وحدها: «لقد غلوا» وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ولا الوزن.

(٦) في (أ) العراقي، ولم نقف على العراقي هذا الموصوف بما ذكر. والذي أثبتناه عن (ب)؛ وإن كنّا لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من كتب الأنساب ومعجمات الأعلام، إلا أنه ورد ذكره كثيرا فيما سيأتي.

(٧) كذا في (ب). والذي في (أ): «الحيلوهي»؛ ولم نجد هاتين النسبتين فيما راجعناه من كتب الأنساب ومعجمات الأعلام التي بين أيدينا.

فلا تَدَّخِرْ زادًا فتُصْبِحَ مُلْجَـــأً إليه وكُلُّهُ اليَوْمَ يُخْلِفُه الغَـــــدُ

وحَكَى لنا ابن أسادة قال: كان عندنا - يَعْني بأَصْفِهانَ - رَجُلٌ أَعمَى يَطُوفُ ويَسْأَل، فأعطاه مرَّةً إنسانٌ رَغيفًا، فدَعا له وقال: أَحسنَ اللهُ إليك، وبارَكَ عليك، وجزاك خيرًا، ورَدَّ غُرْبتَك. فقال له الرَّجُل: ولِمَ ذكَرْتَ الغُرْبةَ [في دُعائك، وما عِلْمُكَ بالغُرْبة؟] فقال: الآن لي ها هُنا عشرونَ سَنَةً ما ناوَلَني أحدٌ رَغيفًا صحيحًا.

وقال آخر:

يُرَى جارُهمْ فيهمْ نحيفًا وضيفُهـــــمْ يجوعُ وقد باتَوا مِلاءَ المَذَاخِرِ[١]

وقال الكَرَوَّسِيُّ:

ولا يَسْتَوي الاثْنانِ[٢] للضَّيـفِ: آنِسٌ كريمٌ، وزاوٍ بين عَيْنَيْه قاطِـــبُ

وأنشد:

طَعامُهمْ فَوْضى فَضًى في رِحالِهِـــمْ ولا يُحْسِنُونَ السِّرَّ إلَّا تَنَادِيـــا[٣]

وأنشد آخر:

يُمانُ ولا يَمونُ وكـان شيخًـــا شَديدَ اللَّقْم هِلْقامًـا بطينـــا[٤]

العرب تقول: إذا شَبِعَتِ الدَّقيقة[٥] لَحَسَتِ الجَليلة.

قال ابنُ سَـــلَّام: كان يُخْبَزُ في مَطْبَخِ سُليمانَ -عليه السلامُ- فـي كلِّ يومٍ سِتُّمائة

(١) المذاخر: الأجواف.

(٢) في الأصل: «الإناء» مكان قوله: «الاثنان»؛ وهو تحريف.

(٣) فوضى فضى، أي أنهم مشتركون في طعامهم لا يختص به واحد دون رفاقه. ويريد بالشطر الثاني أنهم ليس لأحدهم سرّ دون أصحابه. وفي الأصل موص قضى مكان «فوضى فضى»؛ وهو تحريف؛ والتصويب عن اللسان.

(٤) الهلقام: عظيم اللقم. والبطين: عظيم البطن.

(٥) يريدون بالدقيقة: الغنم. وبالجليلة: الإبل. وهذا مثل يقال إذا قل العشب. وذلك لأن الشاة إذا قدرت على أكل العشب القصير القليل وشبعت منه فإن الناقة لا تقدر على أكله لقصره وقلته فتلحسه. يضرب للفقير يخدم الغني. وعبارة الأصل: «إذا شعت لحست الحليلة»؛ وفيه نقص وتحريف ظاهران؛ والتصويب عن البيان والتبيين وغيره.

كُرٍّ[١] حِنْطة، ويُذبَحُ له في كلِّ غَداةٍ ستَّةُ آلاف ثَور وعشرون شاةً، وكان يُطْعِمُ الناسَ ويُجلِسُ عَلَى مائدتِه بجانبِه[٢] اليَتامى والمساكينَ وأبناءَ السَّبيل، ويقول لنَفْسِه: مِسكينٌ بين مساكين.

ولما وَرَدَ تِهامةَ وافَى الحَرَمَ وذَبح للبَيْت طولَ مُقامِه بمكةَ كلَّ يوْم خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثَوْر وعشرين ألفَ شاة. وقال لمن حَضَر: إنَّ هذا المكانَ سيَخْرج منه نبيٌّ صِفَتُه كذا وكذا.

وقال أعرابيّ:

وإذا خَشِيتَ من الفؤادِ لَجَاجَــةً   فاضربْ عليه بجُرْعــةٍ من رائبِ

وروى هشيم أنَّ النبي ﷺ قال: مِنْ كَرَم المَرْءِ أَنْ يطَيِّبَ زادَه في السَّفر(*).

وقال ابن الأعرابيّ: يقال: جاء فلانٌ ولقد لَغَطَ[٣] رباطُه من الجوعِ والعَطَش.

وأنشد:

رَبَا الجــوعُ فـي أَوْنَيْــه[٤] حتّى كأَنَّه   جَنِيبٌ بـــه إنّ الجَنيـــبَ جَنيـــبُ

أي جاع حتى كأَنَّه يَمشي في جانب متعقِّفًا[٥].

وقال أيضا: إنَّ مِنْ شُؤم الضَّيف أن يَغيبَ عن عَشاءِ الحَيِّ، أي لا يُدْرِكه، فيُرِيدُ إذا جاءهم أَنْ يتكلَّفوا له عَشاءً عَلَى حِدة.

وأنشد:

---

(١) الكرّ: ستون قفيزًا، وهو ستة أوتار حمار، وقيل: أربعون أردبا.   (٢) في الأصل «بحاجته»؛ وهو تحريف.

(*) لم أعثر عليه بهذا اللفظ، وقد ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا. فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» (صحيح الجامع: ٥٠٠).

(٣) يريد أن بطنه قد ضمرت فاسترخى رباطه حتى صار له صوت، فشبه ذلك الصوت باللغط.

(٤) الأوتان: الخاصرتان. وقد ورد هذا البيت في الأصل هكذا:

وبال الجوع في أرنبه حتى   كأنه حبيب يدان إلى حبيب

وفيه تحريف ظاهر. والتصويب عن إصلاح المنطق لابن السكيت ولسان العرب.

(٥) متعقفًا، أي معوجًا.

حَيَّاكَ رَبُّكَ واصْطَبَحْتَ ثَرِيـــدةً وإدامُهـــــا رُزٌّ وأَنـــتَ تُدَبِّـلُ

واللُّقْمة واللَّقْمة إذا جُمِعَتا من الثريد والعصائد يقال لهما دِبْلَة، ومنه سمِّيَت الدُّبَيْلة، وهي الوَرَم الذي يَخرج بالناس. وأنشد:

أقول لمّا ابتَرَكـوا جُنوحَـــا بقَصْعَـةٍ قد طُفِّحَتْ تَطْفيحـــا

دَبِّلْ أَبا الجَوْزاءِ أو تَطِيحَا[١]

وقال الفَرَزْدَق:

فدبَّلْتُ أَمثالَ الأثافِـي كأنَّهـا رُؤُوسُ أَعادٍ قُطِّعَتْ يومَ مَجْمَـعِ

وقال سعيد بن المسيّب: قال رسول الله ﷺ: «أَطيبوا الطعامَ فإنَّه أَنْفَى للسُّخْط، وأَجْلَبُ للشُّكْر، وأَرْضَى للصاحِب»[*].

قال بشَّار:

يَغَصُّ إذا نالَ الطَّعامَ بذكرِكُـمْ ويَشْرَقُ مِنْ وَجْدٍ بكُم حين يَشْرَبُ

المَسْعُور: الجائع. قال هميان بن قُحافة:

* لاقَى صِحافًا بَطِنًا مَسْعورا *

وقال شاعر:

* يَمشِي مِنَ البِطْنةِ مشْيَ الأَبْزَخِ[٢] *

البَزَخُ: دخول البَطن وخروج الثنَّة أَسْفلَ السُّرَّة.

وقال آخر:

أَغَرُّ كمصباحِ الدُّجنّة يَتَّقـــي شَذَى[٣] الزادِ حتى تُستَفادَ أَطايِبهْ

شذاه[٣]: طيبه.

---

(١) في الأصل: «دبل أما الجوز أو بطيخا»؛ وفيه تصحيف ظاهر. والتصحيح من المخصص. (*) لم أعثر عليه.

(٢) في (أ) التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) «الأنزح».. «النزح» بالنون والحاء؛ وهو تصحيف في كلتا الكلمتين؛ والصواب ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة.

(٣) ورد هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم في الأصل بالقاف وهو تحريف.

وقال أعرابي: بنو فلان لا يَبْزرون[1] ولا يَقْدُرون.

وقال الثوريّ: بَطِّنوا غَداءكم بشَرْبة.

[وقال الشاعر[2]]:

لا يَسْتَوي الصَّوتـانِ حينَ تجاوَبَـا   صَوْتُ الكَرِيبِ[3] وصَوت ذِئبٍ مُقفِرِ

الكَرِيب: الشوبَق[4] وهو المِحْوَر والمِسْطَح.

وقال الشاعر:

إذا جاء باغِي الخير قُلْنا بَشاشَةً   له بوجوهٍ كالدَّنـانير: مرْحَبَا

وأَهْلا فلا مَمْنوعَ خير تريـده   ولا أنت تَخْشَى عندنا أن نُؤَوَّبا

قال الشعبي: اسْتَسقَيت عَلَى خِوانِ قُتَيْبة، فقال. ما أَسْقِيك؟ فقلت: الهيِّنُ الوُجْد، العَزيزُ الفَقْد، فقال: يا غلام، اسْقِه الماء.

مرَّ مِسكينٌ بأبي الأسْوَدِ لَيْلا وهو ينادي: أنا جائع! فأَدخَلَه وأَطعَمَه حتّى شَبِع، ثم قال له: انْصَرِفْ إلى أهلِك، وأَتْبَعَه غُلامًا وقال له: إنْ سَمعْتَه يسأل فارْدُدْه إليّ. فلما جاوَزَه المسكينُ سَأَل كعادته، فتشبَّث به الغلامُ ورَدَّه إلي أبي الأسود. فقال: ألم تَشْبع؟ فقال: بلى. قال: فما سُؤالك؟ ثم أمرَ به فحُبس في بَيْتٍ وأُغْلق عليه الباب، وقال: لا تُرَوِّع مسلِمًا سائر الليلة ولا تَكذِب. فلمَّا أَصْبَح خَلّى سَبيلَه، وقال: لو أَطَعْنا السُّؤَّالَ صِرْنا مِثلَهم.

وسمعَ دابَّةً له تَعْتَلِفُ في جَوْف الليل، فقال: إني لأراكِ تَسْهَرين في مالي والناسُ نِيام، والله لا تُصْبِحين عندى. وباعها.

---

(١) لا يبزرون، من بزرت القدر إذا رميت فيها البزر، وهو التابل. ولا يقدرون، من القدر بفتح القاف، وهو الطبخ في القدر.

(٢) لم ترد هذه العبارة في الأصل.

(٣) في الأصل: «الكريث» بالثاء؛ وهو تصحيف. والتصحيح عن إصلاح المنطق. وفي الأصل: «معقر»؛ وهو تصحيف أيضًا. والتصحيح عن إصلاح المنطق كذلك.

(٤) في الأصل: «السويق»؛ وهو تحريف. والتصويب عن إصلاح المنطق. والشوبق: هو الخشبة التى يبسط عليها الخباز الخبز.

وأبو الأسْود يُعَدُّ في الشعراء والتابعين والمحدِّثين والبُخَلاءِ والمَفَاليج والنحويِّين والقُضاة والعُرْج والمعلّمين.

وقال الشاعر:

أَنْفِقْ أَبا عَمْرٍو ولا تَعَــــــذَّرَا　　وكُلْ مِنَ المالِ وَأَطعِمْ مَنْ عَــرَا

لا يَنْفَعُ الدِّرْهَمُ إلاّ مُدْبِرَا

كان مُسلم بن قُتَيْبةَ لا يجلس لحوائج الناسِ حَتَّى يَشْبَع من الطَّعام الطيِّب، ويَرْوَى من الماءِ البارِد، ويقول: إنّ الجائعَ ضيِّق الصَّدْر، فقيرُ النَّفْس، والشبعانَ وَاسعُ الصَّدْرِ، غَنِيُّ النَّفْس.

وقال أعرابيّ:

هَلَكتُ هَرِيئةً[1] وهَلكتُ جُوعًا　　وخَرَّقَ مِعْدَتي شَــوْكُ القَتَــادِ

وحَبَّةُ حَنْظَلٍ ولُبابُ قطــــنٍ　　وتنَــوُّمٌ ينظِّــمُ بَطْــنَ وَادِي[2]

وقال الفرزدق:

وإن أبا الكِرْشاء[3] ليس بسارقٍ　　ولكنَّه ما يَسْرِق القَوْمُ يأكُــــل

ولديك الجِنّ:

إذا لم يكُنْ في البَيْــتِ مِلْـحٌ مُطَيِّبٌ　　وخَلٌّ وزَيْتٌ حــوْلَ حُبٍّ[4] دَقِيــق

فرأْسُ ابن أُمِّي في حِرِ أمِّ [ابن] خالتي　　ورأْسُ عدوِّي في حِرِ أمِّ صديقــــي

وقال آخر:

وما جِيرةٌ إلا كليبُ بنُ وَائـــلٍ　　ليالِيَ تَحمي عِزَّةً مَنْبِتَ البَقْــلِ

(١) هريئة، أي بردا. يقال قرة (بكسر القاف) فيها هربئة، أي يصيب الناس منها ضر وموت كثير. والهريئة: وقت اشتداد البرد، كما في اللسان.

(٢) التنوم: شجر له حب كحب الخروع. وينظم بطن وادي، أي يملؤه ويعمه.

(٣) كذا في (أ) وديوان الفرزدق. والذي في (ب): «أبا العرجاء»؛ وهو خطأ من الناسخ.

(٤) الحُبّ بضم الحاء: الجرة؛ ولعلهم كانوا يضعون الدقيق في الجرار.

وقال مِسْعَر بن مكدَّم لِرَقَبة بن مَصْقَلة: أراك طُفَيْلِيًا. قال: يا أبا محمد، كلُّ مَن ترى طُفَيْلِيٌّ إلاّ أنَّهم يَتَكاتمون.

وقال شاعر:

قَوْمٌ إذا آنَسوا ضَيْفًا فلم يَجِدُوا ... إلا دَمَ الرَّأْسِ صَبُّوهُ على البـاب

قال المفجّع: الرأس الرئيس.

اشتدّ بأبي فِرعونَ الشاشِيِّ الحالُ فكتب إلي بعض القُضاة بالبَصرة:

يا قاضِيَ البَصْرَةِ ذا الوَجْهِ الأغَرْ ... إليكَ أشكو ما مَضَى وما غَبَرْ

عَفَا زمانٌ وشِتاءٌ قد حضَرْ ... إنْ أبا عَمْرَةَ[1] في بَيْتي انجَحَرْ

يَضْرِبُ بالدُّفِّ وإن شاءَ زَمَرْ ... فاطْرُدْه عني بدقيق يُنْتَظَرْ

فأجابه إلي ما سأل.

ويقال: وقَفَ أعرابيٌّ على حَلْقةِ الحسَن البَصريّ رحمةُ الله عليه فقال: رَحَم اللهُ من أَعطَى مِن سَعَة، وواسَى من كفَاف، وآثَرَ من قِلّة. فقال الحسَن: ما أَبقَى أحدًا إلا سألَه.

وقال ابنُ حبيب: يقال أَحْمَقُ من الضَّبُع، وذلك أنها وَجَدَتْ تَوْدِيةً[2] في غَدِير، فجعلتْ تَشْرَبُ الماء وتقول «يا حَبَّذا طَعْمُ اللَّبَن» حتى انْشَقَّ بطنُها فماتَتْ. والتَّوْدِيةُ: العُودُ يُشَدُّ على رأْسِ الخِلْفِ[3] لئلاّ يَرضَع الفَصِيلُ أُمَّه.

دعا رجل آخرَ فقال له: هذه[4] تُكْسِبُ الزيارة وإن لم تُسعِدْ، ولعل تقصيرًا أنفعُ فيما أُحِبُّ بلوغَه من برِّك[5]. فقال صاحبه: حرصك على كرامتي يكفيكَ مؤونةَ التكلف لي.

---

(١) أبو عمرة: كنية الجوع.

(٢) في الأصل: «بودقة» بالباء والقاف؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة. وعبارة مجمع الأمثال: تزعم الأعراب أن أبا الضباع وجد تودية في غدير ... الخ ما هنا.

(٣) الخلف: الضرع. وفي الأصل: «الحلف» بالمهملة؛ وهو تحريف.

(٤) هذه: إشارة إلى دعوته إياه. أي أن هذه الدعوة تكسبني زيارتك لي وإن لم تسعد، أي تُعنى على قضاء الحق كله. وفي الأصل: «تكثر» مكان «تكسب». وهو تحريف. ولعل صوابه ما أثبتنا.

(٥) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «ترك»؛ وهو تحريف.

قيل لأعرابيّ: لو كنتَ خليفةً كيف كنتَ تَصْنَع؟ قال: كنتُ أستكْفِي[1] شريفَ كلِّ قوم ناحيتَه، ثم أَخْلو بالمطبخ فآمُرُ الطهاةَ فيُعْظِمون[2] الثّريدة ويُكْثِرون العُرَاق[3]، فأَبْدَأ فآكلُ لُقمًا، ثم آذَنُ للنَّاس، فأيُّ ضياعٍ[4] يكون بعدَ هذا؟!

وقال أعرابيّ لابن عمّ له: واللهِ ما جِفانُكم بعظام، ولا أجسامكم[5] بوِسام، ولا بَدَت[6] لكم نار، ولا طُولِبْتُم بثار.

وقيل لأعرابي: لِمَ قالت الحاضرةُ للعبد: باعَكَ اللهُ في الأعراب؟ قال: لأنَّا نُعْرِي جِلْدَه، ونُطِيلُ كدَّه، ونُجيعُ كِبْدَه.

وقال طفيليّ: إذا حُدِّثْتَ على المائدة فلا تزِدْ في الجواب على نعم، فإنَّكَ تكون بها مؤانسًا لصاحِبك، ومُسِيغًا لِلُقْمَتِك، ومُقْبلًا على شَأنك.

وقيل لأعرابي: أيُّ شيءٍ أَحَدّ؟ قال: كَبِدٌ جائعة، تُلْقِي إلى أَمْعاءَ ضالِعة[7] وقيل لآخَر: أيُّ شيءٍ أَحَدُّ؟ قال: ضِرْسُ جائع، يُلقِي [إلى] مِعًى ضالع[7].

وقال آخرُ:

أُحِبُّ أَنْ أَصْطادَ ضَبًّا سَحْبَلا[8] ... ووَرَلًا يَرْتَادُ رَمْلًا أَرْمَلا

قالت سُلَيْمَى لا أُحِبُّ الْجَوْزَلاَ ... ولا أُحِبُّ السَّمَكاتِ مَأكَلا

(١) في (أ): «استلقي»؛ وهو تحريف.

(٢) في (أ): «فيطمعون»؛ وهو تحريف.

(٣) العراق (بالضم): جمع عرق (بفتح فسكون)، وهو العظم الذي أخذ أكثر ما عليه من اللحم وبقي عليه شيء يسير.

(٤) في كلتا النسختين: «صناع»؛ وهو تصحيف.

(٥) في (أ): «ولا آجامكم»؛ وهو تحريف.

(٦) كذا في (ب). والذي في (أ): «نيرت»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٧) يريد بالضالعة هنا القوية على احتمال ما يلقى إليها، وكذلك الضالع الآتي بعد. والذي وجدناه في كتب اللغة أنه الضليع، من الضلاعة، وهي القوة. ولم نجد الضالع بهذا المعنى. والذي في كتاب التنبيه على أغلاط أبي علي القالي ص ٢٢ أن المحفوظ: ضرس قاطع يقذف في معي جائع، وهنا هو الصحيح.

(٨) السحبل: العظيم المسن من الضباب. والورل دابة تشبه الضب وأعظم منه بيسير. والأرمل: الذي لا زوج له. ويقال ذلك في المذكر على التشبيه. قاله في اللسان مستشهدًا بهذا البيت، وروايته فيه: «رعى الربيع والشتاء أرملا» مكان قوله: «وورلا يرتاد».

الْجَوْزَلُ: فَرْخ الحَمَام. والوَرَل: دابة[1]. أَرْمَل: صِفَةٌ للوَرَل. وإذا كان كذلك[2] كان أَسْمَنَ له، وهو[3] يَسْفِدُ فيَهْزُل.

ويقال: أَقْبَحُ هَزِيلَيْنِ: المرأةُ والفَرَس، وأَطَيَبُ غَثٍّ أُكِلَ غَث الإبل، وأطيب الإبل لحمًا ما أكلَ السَّعْدان[4]، وأطيب الغنم لبَنًا ما أكلَ الحُرْبُث[5].

ويقال: أَهْوَنُ مظلوم سِقاءٌ مُرَوَّب، وهو الذي يُسْقى منه قبل أن يُمْخَض وتُخْرَجَ زُبْدَتُه.

ويقال: سَقانا ظليمةً وَطْبِه[6]، وقد ظُلِمَتْ أَوْطُبُ[7] القَوْم.

وقال الشاعر:

وصاحِب[8] صِدْقٍ لم تَنَلْنــي شَكاتُه ... ظلمْتُ وفي ظلمــي له عامِدًا أَجْـرُ

يعني وَطْبَ لبن.

وكان[9] الحسنُ البَصريُّ إذا طَبخ اللحمَ قال: هَلُمُّوا إلي طعامِ الأحرار.

قال سفيانُ الثَّوْريّ: إني لألقى الرَّجُلَ فيقول لي مرحبًا فيلينُ له قلبي، فكيف بمن أَطَأُ بِسَاطه، وآكلُ ثَريدَه، وأَزْدَرِدُ عَصيدَه؟.

حكى أبو زيد: قد[10] هَجَأَ غَرْثِي[11]: إذا ذَهَب، وقد أَهْجَأَ طعامُكم غَرْثِي: إذا قَطَعَه.

قال الشاعر:

(١) في (أ): «بيت»؛ وهو تحريف، وقد سبق التعريف بهذه الدابة في الحاشية التي قبل هذه.

(٢) كذلك، أي أنه أرمل لا زوج له.

(٣) في الأصل: «مرى»؛ وهو تحريف، والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٤) السعدان: نبت تشبه شوكته حلمة الثدي، وهو من أفضل مراعي الإبل، ويقال في المثل: «مرعى ولا كالسعدان».

(٥) الحربث: نبت منبسط له ورق رقاق طيب الرائحة يزيل بخر الفم.

(٦) في الأصل: «وظبي»؛ وهو تحريف.

(٧) في الأصل: «طبية»؛ وهو تحريف.

(٨) ورد هذا البيت في الحيوان، ولم ينسبه كما هنا.

(٩) في (أ): «وقال»؛ وهو تبديل من الناسخ.

(١٠) في (أ): «قال»؛ وهو تحريف.

(١١) الغرث: الجوع.

فأَخزاهُـــمُ[١] ربي ودَلَّ عليهمُ وأَطْعَمَهُمْ مِنْ مَطْعَمٍ غَير مهجئِ[٢]

قال: ويقال بَأَرْتُ[٣] بُؤْرَةً فأنا أَبْأَرُها، إذا حَفَرْتَ حَفيرةً يُطبَخ فيها وهي الإِرَة. ويقال: أُرْتُ إِرَةً فأنا أَئرُها وَأْرًا.

وقال حسّان:

تَخَالُ قُدُورَ الصَّـادِ[٤] حَوْلَ بيُوتنـــا قَنَابِـــلَ دُهْمًـــا في المَبــاءةِ صُيَّما

قال أبو عُبيْدة: كان الأصمعيّ بخيلا، وكان يَجْمَع أحاديثَ البخلاء ويُوصِي بها وَلَدَه ويَتَحَدَّثُ بها.

وكان أبو عبيدة إذا ذُكر الأصمعيّ أَنْشَد:

عَظُم الطَّعـــام بعَيْنِـــه فكـــأنّه هـــو نَفْسُه للآكِليـــنَ طعـــام

ويقال: أَسْأَرْتُ، إذا أبقَيْتَ من الطعام والشراب أو غيرهما، والاسم السُّؤْر وجَماعتُه الأَسْآر. ويقال: فَأَدْتُ[٥] الخُبْزَة في المَلّة[٦] أَفأَدُها[٥] إذا خَبَزْتَهَا فيها. والمِفْأَد[٥]: الحديدة التي يُخبَزُ بها ويُشوَى. ويقال: تملّأتُ من الأكْل والشراب تملُّؤًا، إذا شَبِعْتَ منهما وامتلأْتَ. ويقال: لَفَأت[٧] اللحمَ عن العظم لَفْأً[٧] إذا جَلَفْتَ[٧] اللحمَ عن العظْم. اللّفِيئةُ[٨] هي البَضْعَةُ التي لا عَظْمَ فيها نحو النَّحْضَة[٨] والهَبْرة والوَذْرَة[٨].

---

(١) في الأصل: «فأجزاهم» بالجيم؛ وهو تحريف.

(٢) في الأصل: «مهجتي»؛ وهو تحريف.

(٣) في الأصل: «ثأرت ثورة فأنا أثأرها»؛ وهو تصحيف في الكلمات الثلاث.

(٤) الصاد: النحاس، وقيل نوع منه. وفي الأصل: «الضأن»؛ وهو تحريف. والقنابل: طوائف الخيل، الواحد قنبل وزان جعفر وقنبلة. وفي الأصل: «قناديل»؛ وهو تحريف. وفي ديوان حسان: «في المحلة»، والمعنى عليه يستقيم؛ وفي الأصل «في الماة» والظاهر أن هذا اللغط محرف عما أثبتنا نقلا عن محاضرات الأدباء. وقبل هذا البيت:

إذا اغبر آفاق السماء وأمحلت كأن عليها ثوب عصب مسهما

وفي ديوان حسان: «حسبت قدور» مكان قوله: «تخال».

(٥) في الأصل: «قادت ... وأفادها.. والمفاد»؛ وهو تحريف في هذه الكلمات الثلاث.

(٦) الملة: موضع النار.

(٧) في الأصل: «لقات... لقاء إذا جعلت»؛ وهو تحريف في هذه الكلمات الثلاث.

(٨) في الأصل: «واللفتة... البحصة ... والودنة»؛ وهو تحريف في هذه الكلمات الثلاث.

وأَنْشَد يعقوب:

سَقَى[1] اللهُ الغَضَا وخُبُوتَ قومٍ ... متى كانت تكون لهم دِيارا
أُناسٌ لا يُنادِي[2] الضَّيفُ فيهم ... ولا يَقْرُون آنِيةً صِغارا

قال الأصمعي: قال ابن هُبَيْرَة: تَعْجيلُ الغَداءِ يَزيد في المروءَة، ويطيِّب النَّكْهة، ويُعين على قَضَاء الحاجة.

قال بعض العَرَب: أطيَب مضغة أكلها الناس صَيْحَانِيَّةٌ مُصَلَّبة[3].

ويقال: آكَلُ الدَّوَابّ، بِرْذَوْنَةٌ رَغُوث وهي الّتي يَرْضَعُها وَلَدُها[4].

قال أبو الحارث حميد: ما رأيْتُ شيئًا أَشْبَهَ بالقَمَر ليلةَ البَدْر مِنْ قِدْرٍ سُقِيَت اللبن كثيرةِ السُّكّر.

وقال الشاعر:

وإنـي لأَسْتَحِي رفيقـيَ أنْ يَرَى ... مكانَ يَدي من جانب الزادِ أَقْرَعا

ضَمَّ[5] عثمانَ بن رَوَاح[6] السَّفَرُ ورفيقًا له، فقال له الرَّفيق: اِمض إلى السُّوق فاشتر لنا لحمًا. قال: واللهِ ما أَقْدِر. قال: فمضَى الرفيقُ واشتَرَى اللحمَ ثم قال لعثمان: قُم الآنَ فاطبُخ القِدْر. قال: والله ما أَقْدِر. فَطَبَخَها الرفيق. ثم قال: قم الآنَ فاثرُدْ. قال: واللهِ إني لأعْجِزُ عن ذلك. فثَرَدَ الرّفيق. ثمّ قال: [قم] الآنَ فكُلْ. فقال: والله لقد اسْتَحْيَيْتُ من كثْرَةِ

(١) في (أ)التي ورد فيها وحدها هذا الشعر: سل الله؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى؛ ولعل صوابه ما أثبتنا. ولم نجد هذين البيتين فيما راجعناه من الكتب. والخبوت: جمع خبت، وهو المطمئن من الأرض.

(٢) لا ينادي الخ، أي أنهم لا يكلفون الضيف مؤونة السؤال.

(٣) الصيحاني: ضرب من تمر المدينة أسود صلب المضغ. والمصلب: الذي خلط بالصليب، وهو الودك، وهو مثل يضرب للمتلائمين المتوافقين. وفي الأصل: «مقلية» بالقاف والياء؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن مجمع الأمثال.

(٤) يلاحظ أن تفسير البرذونة الرغوث بهذا المعنى المذكور هنا غير صحيح، إذا البرذونة لا ولد لها. والرغوث من البراذين هي التي لا تكاد ترفع رأسها من العلف. أما التي يرضعها ولدها فهي الرغوث من الشياه. فلعل في الكلام نقصا، وتكملته: «والشاة الرغوث هي التي... الخ».

(٥) في إحدى النسختين: «صم»؛ وهو تصحيف.

(٦) في (ب): «ابن دراج» وهو تصحيف.

خِلافي عليك، ولولا ذلك ما فَعلْت.

قال يونس: أَتيتُ ابن سِيرينَ فدَعَوْتُ الجاريةَ، فسمِعْتُه يقول: قُولِي إنّه نائم. فقلت: مَعِي خَبيص. فقال: مَكانَكَ[١] حتى أَخرجَ إليك.

قال أردشير: اِحْذَرُوا صَوْلَةَ الكريمِ إذا جاع، واللئيم إذا شَبِع.

قال النبي ﷺ فيما رَوَاه جابرُ بنُ عبد الله: هَلاكُ الرَّجُل أن يَحتَقِرَ ما في بَيْتِه أن يقدِّمَه إلى ضَيْفِه، وهَلاكُ الضيف أن يَحتَقِرَ ما قُدِّم[٢] إليه[*].

وقال الشاعر:

يا ذاهبًا في دارِه جاثيًـــــــا[٣] بغَيْر معنًى وبِــــلاَ فائـــدَهْ
قد جُنَّ أضيافُكَ مِن جُوعِهـــم فاقرأ عليهمْ سُــورةَ المائدَهْ

وقال ابن بَدْر:

ونحـــن نَبذُلُ عند القَحْـطِ ما أَكلُــوا مِنَ السَّدِيفِ إذا لم يؤنَـــسِ القَزَعُ[٤]
ونَنْحَر الكَوم[٥] عَبْطًا[٦] في أَرُومَتِنـــا للنَّازلين إذا مَـــا اسْتُنْزِلـوا شَبِعـــوا

وقال آخَر:

أَطْعَمَـني بَيْضَـــــــةً وناوَلَنـــي مِنْ بَعْدِ ما ذُقْتُ فَقْدَه قَدَحـــا
وقال أيَّ الأصواتِ تَسْأَلُنـي[٧]؟ يَزيـــــد، إنِّي أراكَ مُقْتَرِحـــا
فقلتُ صَوْتَ المِقْلي وجَرْدَقَةً[٨] إنْ خابَ ذا الاقتـراحُ أو صَلَحَا

(١) في (أ): «فركابك». (٢) في الأصل: «واتدم» مكان قوله: «ما قدم»؛ وهو تحريف.
(*) أخرجه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب برقم (١٥٤٤).
(٣) في الأصل: «خائبا * يعين»؛ وهو تصحيف في كلتا الكلمتين.
(٤) السديف: لحم السنام. والقزع بالقاف: السحاب. وفي الأصل: «الفزع» بالفاء.
(٥) الكوم واحده كوماء بفتح الكاف؛ وهي الناقة العظيمة السنام.
(٦) في الأصل: «غيظا»؛ وهو تصحيف.
(٧) في الأصل: «فاسلني * يريد»؛ وهو تحريف.
(٨) الجردقة: الرغيف، فارسية. وفي الأصل: «خودبة»؛ وهو تحريف.

فَقَطَّبَ الوجْهَ وانثَنَى غَضِبًا[1] وكان سَكْرانَ طافِحًا فَصَحَا

فقلتُ: إنِّي مَزَحْت، قال: كذا رأيتَ حُرًّا بمثلِ ذا مَزَحا؟

قال ابن حبيب: كان الرَّجُل إذا اشتدَّ عليه الشِّتاء تَنَحَّى ونَزَلَ وَحْده لئلا يَنْزِلَ به ضَيْفٌ فيكونَ صُقْعًا مُسْتَحَبّا.

وهذا ضِدُّ قول زهير:

بسَطَ البُيوتَ لكي تكونَ مَطِيَّةً مِن حيثُ توضَعُ جَفْنَةٌ اسْتَرْفِدِ

فإذا كان الشِّتَاء انحازَ الناسُ مِن الجدْبِ والجَهْد، وإذا أَخْصَبوا أغاروا للثّأر لا للسُّؤال.

وقال الشاعر في عُبَيْد الله بن عَبّاس:

ففي السنةِ الجَدْباءِ أَطْعَمْتَ حامِضًا وحُلْوًا وشَحمًا تامِكًا[2] وسَنامَا

وقال مجاهِدٌ في قول اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١]، أي طعامًا، يقال: اتَّكأْنَا عند فلانٍ، أي طَعِمْنا.

ذكر الأصمعيُّ أن أعرابيًّا خَرَج في سَفَر ومعه جماعة، فأرْمَلَ[3] بعضُهم من الزاد، وحَضَرَ وقتُ الغَداء وجعَل بعضُهم ينتظر بَعْضًا بالغداء، فلمّا أبطأ ذلك عليهم عَمَدَ بعضُهم إلى زادِه فألقاه بين يَدَى القَوْم، فأقْبَلوا يأكلون، وجلس صاحِبُ الزادِ بَعيدًا لِلتَّوْفير[4] عليهم، فصاح به أعرابي: يا سُؤْدَداه! وهل شَرَفٌ أفضلُ من إطعامِ الطعامِ والإيثارِ به في وَقْتِ الحاجَةِ إليه؟ لقد آثرتَ في مَخْمَصَةٍ ويوم مَسغَبة، وتفرَّدْتَ بمكرمةٍ قَعَدَ[5] عنها مَنْ أَرَى من نُظَرائك، فلا زالت نِعَمُ الله عليك غاديةً ورائحة.

وفي مِثله يقولُ حاتمٌ الطائيّ:

---

(١) في الأصل: «حصنا»؛ وهو تحريف.

(٢) التامك: الكثير العظيم.

(٣) أرمل من الزاد: فرغ ما عنده منه.

(٤) في الأصل: «يعدّ القوفر»؛ وهو تحريف في كلتا الكلمتين لا معنى له، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٥) في الأصل: «فقد»؛ وهو تحريف.

أكُفُّ يَدِي مِن أن تَنَالَ أكُفَّهُـــمْ إذا ما مَدَدْنَاها وحاجاتُنــا مَعَــا

وإنِّي لأَسْتَحْيِي رَفِيقــيَ أن يَرَى مكانَ يَدي مِن جانِبِ الزَّاد أقْرَعا

قال: المَخْمَصَةُ: المَجَاعَة. والخَمْص: الجُوع.

قال شاعرٌ يذُمُّ رجلا:

يَرَى الخَمْصَ تَعذيبًا وإنْ يَلْقَ شَبْعَــةً يَبِتْ قَلْبُـــه مِن قِلّة[1] الهمِّ مُبْهَمــا

وقال المرقّش الأكبر:

إن يُخْصِبــوا يَغْنَوْا بخصْبهـــم أو يُجْدِبـــوا فجُدوبهـــمْ أَلَـمُ

[وكَتبَ بعضُهم[2] إلى أخٍ له]: إنْ رأيتَ أَنْ تُرْوِيَ ظَمَأَ أخيكَ بقُرْبِك، وتُبَرِّدَ غَليلَه بطَلْعتِك، وتؤنِسَ وَحْشَتَه بأُنسك، وتَجْلوَ غِشاءَ ناظِرِه بوَجْهك، وتُزَيِّنَ مجلسَه بجمَال حُضورِك، وتَجعلَ غَدَاءَكَ عندَه في منزلك الذي هو فيه ساكن، وتمَّمْتَ له السرورَ بك باقيَ يَوْمِك، مؤثِرًا له على شغلك، فعلْتَ - إن شاء الله -.

وقال الشاعر:

وكأنّ هَدْرَ دِمائهمْ في دُورِهـــم لَغَطُ القَبِيلِ[3] على خِوانِ زِيــادِ

قال بعض الخُطَباء[4]: العَجَبُ مِن ذي جِدَةٍ مُنعَمٍ عليه يطوي جارُه جوعًا وقرّا، وأفرُخُه شُعْثٌ جُردٌ من الرِّيش، وهو مِبْطانٌ محتشٍ من حُلْوه وحامضِه، مُكْتَنٌّ في كِنِّه ودِفْئه، مزيَّنٌ له شهوَةٌ عن أَداء الذي عليه لجارِه وقريبِه وذي حُلَّةٍ بَطِرٍ[5] رَفِهٍ كيف يأمَنُ سَلْبًا مفاجئًا؟ أمَا لو وَجَّهَ بعضَ فَضْله إلى ذي حاجةٍ إليه كان مستديمًا لما أُولى، مستزيدًا ممَّا أُوتى.

(١) في الأصل «من شدة»؛ وهو خطأ من الناسخ. والبيت لحاتم الطائي.

(٢) في (أ): «كاتب» ثم ذكر الكتاب.

(٣) في الأصل: «الفتيل»؛ وهو تصحيف.

(٤) في (ب): «الحكماء».

(٥) في (ب): «وذي خلة يطور به»؛ وهو تحريف.

قال الشاعر[١]:

وإذا تأمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مقْبِـلٍ متسَرْبِلٍ سِرْبالَ مَحْـلٍ أَغْبَــرِ
أَوْمَا إلى الكَوْمَاءِ هذا طــارِقٌ نَحَرَتْنيَ الأعداءُ إن لم تُنْحَـرِي

[وفي هذه الأبيات ما يُستَحسَن[٢]:

كَمْ قد وَلَدْتمْ من كــريمٍ ماجدٍ دامِــي الأظافِرِ أو غمَـامٍ ممْطِـرِ
سدِكَتْ[٣] أنامِلُـه بقائمِ مرهَـفٍ وبنَشْــر عائـــدةٍ وذرْوَةِ مِنْبَـر
يَلْقَى السيوفَ بوَجْهـه وبنحْــره ويُقيمُ هامتــه مقَــامَ المِغْفَــر
ويقول للطَّرْف: اصْطبِرْ لشَبَا القَنَا فَعَقَرْت رُكْنَ المَجْد إنْ لم تُعْقَر]

وقال آخر:

وقـــال وقَـــدَّمَ[٤] كشَكيَّــة فكُلْ شِبَعًا إنّهـــا في النهايَــهْ
تُطَفِّي المُرارَ وتَنفِي الخُمــارَ وما بَعْدَها في النِّهاياتِ غايَــهْ
ولا تتوَقَّـــعْ أخيــرًا بَجِيـك ففي أوَّل المُسْتَطَـاب الكِفايَـهْ

وقال آخر:

كأنّمـــا فُــوهُ إذا تمـــدَّدَا لِلَّقْمِ أخْلاقُ جِرابٍ أَسْـــوَدَا
كأنّه مُخْتَرِصٌ[٥] قـد جَـــوَّدَا جانِي جَرادٍ في وِعاءِ مِقْلَـدا[٦]

(١) هو العلوي صاحب الزنج، كما في مجموعة المعاني.

(٢) وردت هذه التكملة في (ب) مطموسة الحروف تتعذر قراءتها، مهمل من النقط ما ظهر منها؛ وقد أثبتناها هكذا أخذا من السياق. وبعضها من مجموعة المعاني.

(٣) سدكت أنامله إلخ، أي أولعت بقائم السيف، يقال: سدك بالشيء، إذا أولع به وخفت يده في عمله.

(٤) في الأصل: «وقد قدم للقوم»؛ وهو تحريف، كما أن قوله: «للقوم» زيادة من الناسخ لا يستقيم بها وزن البيت.

(٥) المخترص الذى يضع في خرصه (بكسر الخاء) أي جرابه ما يريد. وفي (أ) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها دون (ب) محترض؛ وهو تصحيف. كما أن فيها: «هنأه» مكان «كأنه» ولا معنى له أيضًا.

(٦) أورد في اللسان هذا الشطر، مادة «قلد» شاهدا على أن المقلد (بكسر الميم) الرجل المجمع.

وصاحِبٍ صاحَبْتُ غَيْر أَبْعَــدَا تــراه بين الحُرْبَتَيْــن مُسْنَدَا[١]

الحُرْبَة: الغِرارة.

وقال جابرُ بنُ قَبِيصة: ما رَأَيْتُ أَحْلَمَ جَلِيسًا، ولا أَفْضَلَ[٢] رَفيقًا، ولا أشبَهَ سريرَةَ بعَلاَنية، مِن زِياد.

وقال جابر أيضًا: شَهِدْتُ قَوْمًا ورأيتهم بعَيْني، فما رأيْتُ أَقْرأَ لكتابِ الله، ولا أفْقَهَ في دين الله، من عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه. وما رأيتُ رَجُلًا أعطى من صُلْبِ ماله في غير وَلائه، من طَلْحَةَ بن عُبَيْد الله. وما رأيتُ رَجُلًا أسوَدَ من معاوية. وما رأَيت رجلًا أَنْصَح[٣] ظَرْفًا، ولا أَحْضَر جوابًا، ولا أكثرَ صَوَابًا، من عَمْرِو بن العاص. وما رأيت رجلًا المعرفَةُ عنده أنْفَعُ منها عند غيره، من المُغِيرة بنِ شُعْبة.

ويقال: ما كان الطعامُ مَرِيئًا ولقد مَرَأَ، وما كان الرَّجل مَريئًا وقد مَرُؤ.

وقال لنا القطّان أبو مَنْصور رئيس أهل قَزْوِين: الرّجُل من أَرْض أَردبيل إذا دَخَل بَلَدًا يَسْأل فيقول: كيف الخُبْز والمُبَرِّزُ[٤]، ولا يَسأل عن غيرهما.

فقيل له: لِمَ ذلك؟ فقال: يأخذ الخبز والمُبَرِّز ويأكلُ ويَسْلَحُ[٥] إلى الصباح.

قال الشاعر:

وما تُنْسِنَا الأَيّامُ لا نَنْسَ جُوعَنـا بدارِ بَنِي بَدْر وَطُــولِ التَّلَدُّدِ
ظَلِلْنا كأنّا بينهــم أَهْلُ مَأْتَــمٍ عَلَى ميِّتٍ مُسْتَوْدَعٍ بَطْنَ مَلْحَدِ
يُحَدِّثُ بَعْضٌ بعضنا عن مُصابه وَيأمُرُ بَعْضٌ بَعْضَنــا بالتَّجَلُّدِ

(١) أورد في اللسان هذين الشطرين مادة (حرب). والذي في الأصل:
وصاحب صاحب عيرا يعبدا تراه بين الحرتين ...... إلخ
ولا يخفى ما في ذلك من تحريف.
(٢) في الأصل: «أغضب».
(٣) في (أ): «أيضيع طرف»؛ ولعل صوابه ما أثبتنا.
(٤) المبرّز: المطلق للبطن.
(٥) في كلتا النسختين: «يسرج» بالسين؛ وهو تحريف.

وقال آخر:

دَعُونــي فإنــــي قد تَغدَّيْــتُ آنِفـــــا   فإنْ مَسّ كَفِّي خُبزَكم فاقْطَعــوا يَدِي

وقال آخر يَصِفُ دارَ قَوْم:

الجوعُ داخِلَها وَاللَّوْحُ[1] خارِجَهـــا   وليس يَقْرُبُهــــا خُبْـــزٌ وَلا مـــاء

قال الهلاليّ: أتى رجلٌ أبا هريرة فقال: إنِّي كنتُ صائمًا فدخَلْتُ بَيْتَ أبي فوَجَدْتُ طعامًا، فنَسِيتُ فأكلْتُ. قال: الله أطعَمَك. قال: ثم دخلت بيتًا آخر فوَجَدْتُ أهلَه قد حَلَبوا لَقْحَتهم فسَقَوْني، فنسيت فشَرِبْتُ. فقال: يا بُنَيَّ هَوِّن عليك فإنك قلَّما اعتَدْتَ الصِّيام.

وقال الشاعر:

وَجَدْتُ وَعْـــدَكَ زُورًا في مُزَوَّرَةٍ[2]   ذَكَرْتَ مُبْتَدِئًا إحكامَ طاهيهـــــا[3]

فلا شَفَى اللهُ مَنْ يَرْجُو الشِّفَاء بهـــا   وَلا عَلَتْ كَـــفُّ مُلْق كفَّــه فيهـــا

فاحْبِسْ رسولَكَ عَنِّي أَنْ يجيءَ بهـــا   فقد حَبَسْتُ رَسُـــولِي عن تقاضيهـا

قال مطرِّف بنُ عبدِ الله بن الشِّخِّير عن أبيه: قَدِمْنا على رسولِ الله ﷺ، فقُلنا: يا رسول الله، أنت سيِّدنا، وأنت أطْوَلُنا علينا طَوْلا، وأنت الجَفْنةُ الغَرَّاء، فقال النبي ﷺ: «قولوا بقَوْلكم ولا يَستَفِزّنكم الشَّيْطان فإنما أنا عبْدُ الله ورسولَه»[*].

وقال آخر:

وأَحْمَرُ مُبْيَـــــضُّ الزُّجـــاجِ كأنّه   رِداءُ عَـــرُوسٍ مُشْـــرَبٌ بخَلــوقِ

له في الحَشَا بَرْدُ الوِصــالِ وطَعْمُه[4]   وإن كـــــان يَلْقــاه بلَوْنِ حَريـــقِ

كـــأَنَّ بَياضَ اللَّوْزِ[5] فـي جَنَباتِــه   كواكـــبُ دُرٍّ في سمـــاء عَقيـــقِ

(١) اللوح: العطش. والذي في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الشعر «والنوح» وما أثبتناه هو المناسب لقوله بعد: «ولا ماء».

(٢) المزورة: مرقة تعمل بغير لحم يصفونها للمرضى.

(٣) في الأصل: «ظاميها»؛ وهو تحريف.

(٤) في (ب): «وطيبه».

(٥) في (أ): «اللون» بالنون؛ وهو تصحيف.

(*) رواه ابن ماجة في صحيحه برقم (٦٣٧٥).

قال يونس: أشدُّ طعام ضُرًّا ما كان مِنْ عامٍ إلى عام، وهو اللِّبَأُ الذي لا يوجَد إلَّا في الوِلادة كلَّ عامٍ وإنْ كان مُزْبِدًا.

حَكَى يونس: التَّنافِيط[1]، أن يُنْزَعَ شَعْرُ الجِلد[2] ثم يُلقى في النار ثم يؤكل، وذلك في الجَدْب.

وقال الشاعر:

جاوَرْتُ شَيْبانَ فاحْلَوْلَى جِوارُهمُ إنَّ الكِرامَ خِيارُ الناسِ للجارِ

وكتَبَ ابنُ دينار إلى صديق له: وكتبتَ تفضُّلًا منكَ تَعْتَذِرُ من تأخُّرِكَ عن قضاء حقِّ زيارتي بقُصورِ يَدَيك عن برٍّ يُشْبهُني ويُشبهُك؛ فأمّا ما يُشْبهني في هذا الوقت فرَغيفٌ وسكُرَّجَةُ كامَخٍ حِرِّيف يَثْقُب اللِّسانَ بحرافتِه.

وكان ابنُ أَبي البَغْل إذا أُنشد: *أرُوني مَنْ يَقُومُ لكم مَقامي* يقول: لو شَهِدْتُ قائلَه لقلت: كلْبُ الحارس يَقوم مَقامك. هذه قِصَّةٌ في حضور ما يشبهني، فأمّا ما يشْبهك فمتعذِّر كما قيل:

ومَطْلَبُ مِثلي إن أَرَدْتَ عَسير[3]

وقال رجل لعُبَيْد الله بن زياد بن ظَبْيان: ما أَعْدَدْتُ في كِنانتي سَهْمًا غيرَك. فقال: لا تُعِدَّني في كِنانتِك، فو الله لو قمتُ فيها لَطُلْتُها، ولو جلَسْتُ فيها لخرقتُها، ولئن انتظرتَ بي ما يشْبهك طال الانتظار، والعامّةُ تتمثّل[4] – على خساسةِ لَفْظِها -: «إذا أَرَدْتَ ألَّا تُزَوِّجَ ابنَتَكَ فغَالِ بِمَهْرها». وأملي فيك على الأحوال بعيد، وظنِّي فيكَ جميل، ولستُ أَخْشى فيما لي عندك الفَوْتَ فأُعْجِلَه، *وهل يُلْقَم الكلْبُ إلا الحَجَر*

(١) وردت هذه الكلمة في الأصل مهملة الحروف من النقط تتعذر قراءتها. وقد أثبتناها هكذا نقلا عن كتب اللغة بعد تقليبها على عدة وجوه.

(٢) في الأصل: «الخلد»؛ وهو تصحيف.

(٣) في (أ): «عزيز».

(٤) في (أ): تقول.

العَرَبُ تقول: لئيمٌ جَبان[1].

وقال أعرابيّ: لا يكنْ بَطْنُ أحدِكم عليهِ مَغْرَمًا، ليَكْسِرْه بالتُّمَيْرَة والكُسَيرة والبُقَيْلة والعُلَيْكة.

قال ابنُ الأعرابي: الفَرَزْدَق، الرَّغيفُ الواسع.

قيلَ لابن القِرِّيَّة[2]: تكلَّم. فقال: «لا أُحِبُّ الخُبز إلَّا يابسًا». أراد لا أُحِبُّ أن أتكلَّمَ إلَّا بعد الارتِئَاء.

وروى أبو عُبَيْدَة في تفسير بَيْتِ الأعشى في ديوانه:

[إذا ما هُم جَلسوا بالعَشِيِّ][3] فأَحلامُ عادٍ وأَيْدِي هُضُمْ

قال: شبَّهَهم بأنسال عاد، وهم ثمانية ذَوُو أحلام وسؤْدَد: مالك – وهو سيِّد الثمانية – وعمّار وطُفَيل[4]، وشَمِر، وقرزعة[5]، وحُمَمة، ونَئِضٍ[6]، ودُفَيف؛ وهم الذين بَعثَ لقمانُ بنُ عادٍ جاريةً بُعسٍّ من لبَن، فقال لها: اِيتِي الحيَّ فادفعيه إلى سيِّدِهم لا تَسْأَلي عنه. فأتت الجاريةُ الحيَّ، فرَأَتْهم مختلِفين بين عاملٍ ولاعِب، وثمانيةً على رءوسهم الطَّير وَقارًا؛ ورأَتْ جاريةً من الحيِّ، فأخبَرَتْها بما قال لُقمان؛ قالت: هؤلاء سادةُ الحيّ، وسأصِف لك كلَّ واحدٍ منهم، فادفعي العُسَّ إلى مَنْ شئتِ. أمّا هذا فعَمَّار، أَخَّاذٌ وَدَّار[7]، لا تَخمُدُ له نار، للمُعشِبات عَقّار (المُعشِبَة: التي تَسْمَنُ على شَحْمٍ قديم)، وأمّا هذا

(١) كذا وردت هذه العبارة في الأصل، والظاهر أن لها بقية سقطت من الناسخ.

(٢) في الأصل: «ابن القرم».

(٣) لم يرد هذا الشطر الذي بين مربعين في الأصل؛ وقد أثبتناه عن شعر الأعشين المطبوع في أوروبا. وفي الأصل: «وأنشد»مكان قوله: «وأيدي»؛ وهو تحريف. وهضم بضمّتين: جمع هضوم، وهو الجواد المتلاف.

(٤) في الأصل: «وثميل»؛ وهو تحريف.

(٥) كذا ورد هذا الاسم في كلا الموضعين اللذين تحت هذا الرقم في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام؛ ولم نجد من نصّ على تصحيحه بالعبارة.

(٦) كذا ورد هذا الاسم في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هنا وفي صفحة ٥٠ سطر ٣. ولم نجد من نص على تصحيحه فيما راجعناه من المظان.

(٧) ودّره: أهلكه.

فحُمَمَة، غَداؤه كل يوم ناقةٌ سَنِمة[١]، وبَقَرةٌ شَحِمة، وشاةٌ[٢] كَدِمَة. وأمّا هذا فقَرْزَعَة[٣]، إذا لَقِيَ جائعًا أشبَعَه، وإذا لقَى قِرْنًا جَعْجَعَه[٤] وقد خابَ جَيْشٌ لا يَغْزو معه. وأمَّا هذا فطُفَيل، غَضَبه حين يَغْضب وَيْل، ورِضاه حين يَرْضى سَيْل، ولم تَحْمِل مثْلَه على ظَهْرِها إبِلٌ ولا خَيْل، وأمَّا هذا فشَمِر، ليس في أَهْله بالشَّحيح القَتِر، ولا المُسْرِفِ البَطِر، ولا يَخْدَع الحيَّ إذا اؤتُمِر[٥]. وأمّا هذا فدُفَيْف، قارِي الضَّيْف، ومُغْمِدُ السّيْف، ومُعِيلُ[٦] الشِّتاءِ والصَّيْفِ، وأمّا هذا فنَئِضٌ، أَسْنَتَ الحَيُّ فمرِض، فَعَدَلَ مَرَضُه عندهم إسْناتَهُمْ (أي قَحْطَهُمْ)، فقاموا[٧] عليه فأوْسَعَهُمْ دَقيقًا ولحمًا غَرِضًا، ومِسْكًا رَميضًا[٨]، وكساهُمْ ثيابًا بيضًا؛ وأمّا هذا فمالِك، حامِيَتنا[٩] إذا غَزَوْنا، ومُطْعِمُ وِلْدانِنا إذا شَتَوْنا[١٠]، ودافِعُ كلِّ كريهةٍ إذا عَدَتْ عَلَيْنا. فدَفَعتِ العُسَّ إلى مالِكٍ، فكان سيِّدَهُمْ.

بَشَّرَتْ امرأةٌ زَوْجها بأنّ ابنَها منه قد اتَّغَر[١١]، فقال: أتُبَشِّرِينَني بعَدُوِّ الخُبْزِ؛ اذْهَبي إلى أهْلِكِ.

قال الشاعر:

من يَشْتَـــرِي مِنِّـــي أبا زَيْــنِ بَكْرَ بـــنَ نَطَّـــاحٍ بِفَلْسَيْنِ
كأنّما الآكِــــــلُ مِنْ خُبْزِهِ يَقْلَـــعُ مِنْهُ شَحْمَـــةَ العَيْــنِ

(١) في الأصل: «شبمة»؛ وهو تحريف.
(٢) في الأصل: «وسماه»؛ وهو تحريف. والشاة الكدمة: الغليظة السمينة.
(٣) ارجع لهامش رقم (٥) في الصفحة السابقة.
(٤) جعجعه: نحره.
(٥) اؤتمر: استشير.
(٦) يقال: أعال الرجل أهله، إذا كفاهم ومانهم، كعالهم.
(٧) قاموا عليه، أي قاموا بخدمته وما يصلحه في مرضه.
(٨) الرميض: الحاد، يريد هنا حدة الرائحة. والذي في الأصل: «رفيضا»؛ ولعله محرف عما أثبتنا. أو لعله: «فضيضا»، أي متفتتا متكسرا.
(٩) حاميتنا الخ، أي أنه يحمي بيوت الحي من المغيرين إذا خرج الرجال للغزو.
(١٠) في الأصل: «سنونا»؛ وهو تحريف.
(١١) اتغر الغلام واثغر: نبت ثغره.

وأنشدَ غلَيِّم مِنْ بَني دُبَيْر[١]:

يا بنَ الكِــــرام حَسَبًا ونائِلَا   حَقًّا أَقُولُ لا أَقــولُ باطِـــلا
إليك أَشْكُو الدَّهْـرَ والزَّلازِلَا   وكلَّ عامٍ نَقَّـحَ الحَمَائِـــلا[٢]

التَّنْقِيحُ: القَشْرُ، أي قشَّرُوا حَمائلَ سُيوفِهِمْ فباعُوها لشدَّةِ زَمانِهِمْ.

وأنشد:

سَلاَ أُمَّ عَبَّادٍ إذا الرِّيـــحُ أَعْصَفَت   وَجَلَّلَ أَطْـرافَ الرِّعـانِ قَتَامُهـا[٣]
وَجَفَّتْ بَقايا الطِّـرْقِ إلاَ نَضِيَّةً[٤]   يَصُدُّ الأشافي[٥] والمَواسِي سَنامُهـا
وَضَمَّ إِليَّ الليلُ مَنزِلَ رُفْقَــــةٍ   تَرَامَتْ بهم طَخْيـاءُ[٦] داجٍ ظَلامُها
تَكادُ الصَّبا تَهْتَزُّهُمْ مِنْ ثِيابِهِــمْ   شديدًا بأَرْياطِ الرِّجالِ اعتِصامُهــا
لقد عَلِمَــتْ أَنِّي مُفِيــدٌ وَمُتْلِفٌ   وَمُطْعِمُ أَيّامٍ يُحَـــبُّ طَعامُهــا

وقال آخر:

إِنَّ بَنِي غاضِـرَةَ الكِرامَـــا   إِنْ يُقِـمِ الضَّيْفُ بهـم أعوامَـا
يَكُنْ قِــراهُ اللَّحْمَ وَالسَّنامَا   أَوْ يُصْبِحِ الدهــرُ لهم غُلامَـــا
يَكُنْ ظَرِيفًا وَجْهُه كُرامَا

وقال سَماعةُ بنُ أَشْوَل:

رَأَتْ إِبِلًا لابْنَيْ عُبَيْدٍ تَمَنَّعَتْ   مِنَ الحَقِّ لم تُورَكْ بحقٍّ إِيالُها[٧]

---

(١) في الأصل: «دينار»؛ وهو تحريف.

(٢) في الأصل: «الحلائلا»؛ وهو تحريف.

(٣) في الأصل: «قيامها»؛ وهو تحريف. وأطراف الرعان، يريد أطراف الجبال.

(٤) في الأصل: «قصية» بالقاف والصاد، وهو تصحيف.

(٥) الأشافي: المثاقب، واحدته إشفى بكسر الهمزة وسكون الشين والفاء المفتوحة. وفي الأصل: «نصد السلافي» وهو تحريف. يقول: إن سنامها لم يبق فيه ما تخرجه الأشافي ولا المواسى: جمع موسى.

(٦) الطخياء: الظلمة الشديدة.

(٧) كذا ورد هذا الشطر في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام؛ ولم نجده فيما راجعناه من الكتب.

فقالتْ ألا تَغْدُو لِقاحُكَ هكــذا | فقلتُ أَبَتْ ضِيفانُها وعِيالُهـــا
فما حَلبَتْ إلا الثُّلاثةَ[1] والثُّنَـى | وَلا قُيِّلَتْ إلَّا قَريبًـا مَقالُهـــا

وأَنْشَد أبو الجَرَّاح:

أَرَى الخُلاَّنَ قد صَرَموا وِصـالِي | وَأَضْحَوْا لا سَلامَ وَلا كـــلامْ
وَما أَذْنَبْتُ مِنْ ذَنـــبٍ إليهـــم | سِوَى خَفِّ[2] المَنائِح والسَّوامْ

وقال آخر:

خِرْقٌ إذا وَقعَ[3] المَطِيُّ منَ الوَجَـــا | لم يَطْوِ دُونَ دقِيقِـــه ذو المِـــزْوَدِ
حَتَّى تَـؤوبَ بِـــه قليـــلا......[4] | حَمِدَ الرَّفيـقُ نَدَاكَ أَوْ لم يَحْمَـــدِ

وقال آخر:

تَزَوَّدْتُ إذ أقبَلْتُ نَحْوَكَ[5] غاديًا | إليكَ ونحوَ[5] الناسِ لا أَتَزَوَّدُ
أراني إذا ما جِئْتُ أَطْلُبُ نائـــلًا | نَظَرْتَ إلى وَجْهي كأَنَّكَ أَرْمَدُ

ويقال: أَزْوادُ[6] الرَّكْبِ مِنْ قُرَيْش أبو أُمَيّةَ بنُ المُغيرة، والأَسْوَدُ[7] بنُ المطَّلبِ بنِ أَسَدِ ابن عبد العُزَّى، ومُسافرُ بن أبي عَمْرو بن أُمَيّة عَمُّ عُقْبَة كانوا إذا سَافَرُوا خَرَجَ معهم الناسُ

(١) الثلاثة بضم الثاء، أي الثلاثة بفتحها؛ يريد أنها لم تحلب إلا الثلاثة من الآنية أو الاثنين. وقيلت بضم القاف وتشديد الياء المكسورة: ذكره ثعلب هكذا؛ ورواها بعضهم قيلت بفتح القاف من القيل بمعنى اللبن الذي يشرب وقت القائلة (اللسان) (مادة ثلث).

(٢) خف المنائح، أي خفَّتها، مصدر خَفَّ؛ يريد قلّة المنائح، جمع منيحة، وهي الناقة الممنوحة للانتفاع بوبرها وولدها ولبنها. وفي الأصل «جف» بالجيم؛ وهو تحريف.

(٣) في الأصل: «رنغ المطي من الرحا»؛ وهو تحريف في كلتا الكلمتين. ويريد تواني المطايا وتخاذلها عن المشي من طول السفر وشدة ما أصاب حوافرها من المشي. يصف ممدوحه بالكرم في هذه الحال، وأنه خرق أي كريم متخرق في المعروف وأن ذا مزوده (أي صاحب زاده القيم عليه) لم يُخْفِ دقيقه ولم يخبئه، بل يبذله للمرملين من الرفاق.

(٤) كذا ورد هذا الشطر في الأصل ناقصا؛ ولم نقف عليه فيما راجعناه من الكتب.

(٥) في الأصول: «نحول» مكان «نحوك» و«حق» مكان «ونحو»؛ وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٦) في الأصل: «ازدار الراكب»؛ وهو تصحيف في كلتا الكلمتين.

(٧) في شرح القاموس «زمعة بن الأسود».

فلم يَتّخِذُوا زَادًا، ولم يُوقِدُوا نارًا، كانوا يَكْفُونَهُم.

وقال الشاعر:

وبالبَدْوِ جُودٌ[1] لا يزالُ كـــأنّه ... رُكامٌ بأطْرافِ الإكامِ يَمُـــورُ

وقال آخر:

والناسُ إنْ شَبِعَـتْ بُطُونُهُـــمُ ... فغَيْرُهمْ[2] منْ ذَاكَ لا يَشْبَــعُ

وقال آخر:

دُورٌ تُحاكـــي الجِنـــانَ حُسْنًا ... لكـنَّ سُكانَهـــا خِســـاسُ

متى أرَى الجُنْـــدَ ساكِنيهـــا ... وفِـــي دَهـاليزِهـــا يُدَاسُ

وقال آخر:

لولا مخافةُ ضَعْفِي عن ذَوي رَحِمـي ... وحالُ مُعْتَصِمٍ بي منْ ذَوي عَـــدَمِ

وحاجَـةُ الأخِ[3] تَبْدُو لي فأُنْجِحَهـــا ... لم أَثْنِ في عملٍ كَفِّي علـــى قَلمـي

وقال آخر:

وأُوثِرُ ضَيفِي حِيـنَ لا يُوجَــد القِرَى ... بقُوتـــيَ أحْبُوه وأَرْقُـــدُ طاويَـــا

وما استَكْثَرتْ نَفْسِـــي لِباذِلِ وَجْهِـه ... نَوالًا وَإنْ كـــانَ النَّـوَالُ حَياتِيـــا

وقال المبرّد: البَطِنُ: الّذي لا يَهُمّه إلا بَطْنُه. والرَّغيب: الشَّديدُ الأكل. والمَنْهُوم: الّذي تَمْتَلِئُ بَطْنُه ولا تَنْتَهي نَفْسُه.

وأنشد ابنُ الأعْرَابيّ:

وإنَّ قِرَى أَهْل النِّبـــاجِ أَرانِبٌ ... وإن جاءَ بَعْدَ الرَّيْثِ فهو قَلِيـــلُ

(١) في الأصل: «جوع»؛ وهو تحريف، إذ ليس من المعروف تشبيه الجوع بالسحاب المتراكم، وإنما يشبّه بذلك الجود.

(٢) في الأصل: «فعثرتهم في»، وهو تحريف.

(٣) في الأصل: «لاح»، وهو تصحيف.

إذا صَدَّ مَثْغُورٌ[1] وأَعْرَضَ مُعْــرِضٌ   فَيــومٌ علـــى أَهْلِ النِّباجِ طَويـــلُ

وقال آخر:

يَمينُك[2] فيها الخِصْبُ والناس جُوَّعٌ   وقد شَمِلَتْهم حَرْجَفٌ[3] ودَبُـــورُ

وقال آخر:

أَلقَتْ قَوائمَها خَسًا[4] وتَرَنَّمتْ   طَربًـــا كما يَترَنَّمُ السَّكْـــرانُ

يَعنِي قِدْرًا. وقوائِمُها، يَعْني الأثافي. وخَسًا. فَرْد.

وأَنْشَد:

بِئسَ غِذاءُ العَزَبِ المَرْمُـوعِ[5]   حَوْأَبَةٌ تُنْقِــضُ بالضُّلـــوعِ

الرُّماع[6]: داءٌ. وحَوْأَبَة: دَلْوٌ كَبيرة. والحَوْبُ والحُوْبُ: الإثم.

والحِيبَة: الحال. والحَوْباء: النَّفْس[7].

العَرَبُ تَقول: ماءٌ لا تِبْنَ[8] معه ولا غَيْره. خبْزٌ قَفار: لا أُدْمَ معه. وسَوِيقٌ جافٌّ هو الّذي لَم يُلَتَّ بِسَمْنٍ ولا زَيْتٍ. وحَنْظَلٌ مُبَسَّل، وهو أن يُؤكلَ وَحْدَه.

قال الراجز:

---

(١) المثغور: الذي سقطت أسنانه لا يقدر على الأكل.

(٢) في الأصل: «عينك»؛ وهو تحريف.

(٣) الحرجف: الريح الشديدة، وكنى بالحرجف والدبور عن الجدب، وفي الأصل: «وقد شعلهم جرجف ودثور»؛ وهو تحريف.

(٤) في الأصل: «قرامها حسا» وهو تحريف في كلتا الكلمتين؛ والتصحيح عن كتب اللغة.

(٥) في الأصل: «العرب المرفوع* خوانه» الخ البيت؛ وهو تحريف كما ترى.

(٦) عبارة الأصل: الرفاع وخوانه داء كثيرة؛ وهو تحريف في جميع هذه الألفاظ وقد ذكر اللغويون أن الرماع داء في البطن يصفر منه الوجه. وتُنقِض الضلوع، أي تسمع للأضلاع نقيضا، أي صوتا من ثقل تلك الدلو.

(٧) يلاحظ أن استطراد المؤلف هنا بذكر الحوب لا مناسبة له، فإن الحوأبة في البيت إنما هي من مادة «حأب»، والحوب الذي ذكره من مادة (حوب).

(٨) يريد بالتبن ما يعم أنواع العلف.

بئس الطّعامُ الحَنْظَلُ المُبَسَّـــلُ ... ياجَعُ منه كَبِـدي وأَكْسَـــلُ[1]

وَيَيْجَعُ أَيضًا.

وقال أبو الجرّاح: المُبَسَّل يُحرِق الكَبِدَ. والمُبَكَّل[2]: أن يُؤْكَلَ بتَمْرٍ[3] أو غيره، يقال بَكِّلُوه[2] لنا، أي اخلِطوه. قال: وعنْدنا طعامٌ يقال له: الخَوْلَع وهو أنْ يُؤخَذَ الحَنْظَلُ فيُنْقَعَ مَرَّاتٍ حتى تَخْرُجَ مَرارَتُه، ثم يُخْلَطَ معه تَمْرٌ ودقيق فيكون طعامًا طيّبا.

وقال: الخَليطةُ والنَّخيسةُ والقَطِيبَة: أَنْ يُحْلَبَ لَبَنُ الضَّأنِ على لَبَنِ المِعزَى، والمِعْزَى على لَبَنِ الضَّأن، أو حَلَب النُّوقِ على لَبَنِ الغَنم.

قال:

اسقني[4] وابردْ غَلِيلِي

مَلِئَ الرَّجُلُ: سَمِنَ بعد هُزال.

قيل لطفَيْل العَرَائس: كم اثنين في ثنين؟ قال: أَرْبَعةُ أَرْغِفَة.

وقيل له: حُكِيَ أنّ العَرَب تقول نحن العَرَبَ أقرى الناس للضيف، فقال: إنّ هذا النَّصْبَ على المدْح.

وقال العُمانيّ:

من كلِّ جِلْفٍ[5] لم يكن مُصَرَّما ... جَعْدٍ يُرَى منه التصنُّعُ رَيْثَمـــا[6]

(١) في الأصل: «وأبسل»؛ وهو تحريف.

(٢) ورد هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم في الأصل بالدال مكان الباء؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة. ويقال: بكله: إذا خلطه.

(٣) في الأصل: «ممرا وغيره»؛ وهو تحريف.

(٤) لم ترد في الأصل بقية هذا البيت؛ ولم نجده فيما راجعناه من الكتب.

(٥) في الأصل حلف بالحاء المهملة؛ وهو تصحيف. وقوله: لم يكن مصرما، إما أن يفسر بأنه لم يكن منتعلا، مأخوذ من الصرم بكسر الصاد وهو الخف الذي له نعل. وإما أن يراد أنه لم يكن ذا مال مأخوذ من الصرمة بكسر الصاد، وهي القطعة من الإبل من الأربعين إلى الخمسين؛ وقيل غير ذلك في عددها.

(٦) ريثما، أي يتصنع ريثما ينال بغيته. وفي الأصل ريّما؛ وهو تحريف.

لم يَتَجَشَّـأ من طَعَـــام بَشَمـــــا ....[1]

ولم يبِتْ مـن فَتْرةٍ مُوَصَّمـــــا[2] يَغْمِزُ صُدْغَيْه ويَشْكُـــو الأعظُمـــا

إذا أَجَــاعَ بَطْنَـه تَحـــزَّمـا[3] لَم يَشْربِ الماءَ ولَم يَخْشَ الظَّمـــا

يَكْفيه مِن قارِصَةٍ[4] ما يَمَّمَا

وَخَــلَّةٍ[5] منـه إذا مــا أَعْيَمــَا أصــابَ مِنــه مَشْرَبًـا ومَطعمَـــا

لا يَعْقِــرُ الشـــارفَ إلاّ مُحْــرِما[6] وَلا يَعَافُ[7] بَصَـــلا وَسَلْجَمَـــا

يَــومًا وَلم يَفْغَـــرْ لِبطِّيـــخٍ فَمَـــا فهو صَحِيـــحٌ لا يَخَـــافُ سَقَما

أَسْوَد كالمحراثِ[8] يُدْعى شَجْعَما[9] صَمَحْمَحٌ[10] مِنْ طُــولِ ما تَأَثَّمــا

لم يَبلُ[11] يَوْمًا سَــوْرَةً مِنَ العَمَــى ولم يَحُجَّ المَسْجِـــدَ المُكَرَّمـــا

وَلم يَزُرْ حَطِيمَـــــه وزَمْزَمـــــا وَلا تَـــراهُ يَطْلُـــب التفهُّمـــا

(١) ورد في هذا الموضع الذي وضعنا فيه هذه النقط شطر من هذه الأرجوزة مهمل أكثر حروفه من النقط ومطموس بعضها، ولم نهتد إلى وجه الصواب فيه، كما أننا لم نعثر على الأرجوزة في المصادر التي بين أيدينا؛ وها هو هذا الشطر كما في الأصل:

لم يرحنا غراثا أدما

(٢) يقال وصمته الحمّى بتشديد الصاد إذا جعلت في جسده فترة. ويقال وصّمه التعب إذا فتّر جسمه وأكسله. وفي الأصل: «قترة» بالقاف؛ وهو تصحيف.

(٣) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الشعر: إذا أجاح قبطة تخدما. وهو تحريف في جميع هذه الألفاظ. وسياق الشعر يقتضي ما أثبتنا.

(٤) القارصة: الطائفة من اللبن الحامض الذي يحذى اللسان بحرافته.

(٥) وخلّه منه، أي من اللبن، واحدة الخلّ، معروف، أي الطائفة منه. والخلّ قد يكون من اللبن كما في كتب اللغة.

(٦) في الأصل: لا يعرف الشادف المحترما؛ وفيه تحريف كما ترى، وسياق الشعر يقتضي ما أثبتنا. والشارف: المسنّة من الإبل،أي لا يعقر الناقة إلا في الحج حين يجب عليه عقرها.

(٧) في الأصل: «ولا يأنف»؛ وهو تحريف.

(٨) المحراث: حديدة تحرك بها النار.

(٩) الشجعم من الحيات: الشديد الغليظ. وفي الأصل: سجعما بالسين المهملة؛ وهو تصحيف.

(١٠) الصمحمح: الشديد المجتمع الألواح.

(١١) في الأصل: «يبك» بالكاف؛ وهو تحريف.

لو لم يُرَبَّ[١] مُسلِما ما أَسْلَمَا ... ما عَبَدَ اثنانِ جَميعًا صَنَما
عاتٍ يَرَى ضَرْبَ الرِّجالِ مغْنَما ... إذا رَأَى مُصَدِّقًا تَجَهَّما
وَهَزَّ في الكفِّ وأَبْدَى المِعصما ... هِراوَتَيْن[٢] نَبْعَةً وسَلَما
يَتْرُكُ[٣] ما رامَ رُفاتًا رِمما ... وإنْ رأى إمَّرَةً[٤] تزعَّما
لَمْ يُعْطِهِ شيئًا وإن ترغَّما ... وإنْ قَرَا عَهْدًا له مُنَمْنَما
هانَ عليه شقُّ ما قد رَقَّما ... وأنْ يَدُقّ طِينَه المُخَتَّما
صَمْصامُه ماضٍ إذا صمَّما ... إذا اعترَتْه عِزَّةٌ[٥] ثم انتَمى
في ثَرْوَةِ الحيِّ إذا ما يمَّما ... ظَلَّ يَرَى حُكْمًا عليه مُبْرَما[٦]

أَن يَظْلِمَ النَّاسَ وألَّا يُظْلَما

وقال آخر:

ما كان يُنكَرُ في نَدِيٍّ مُجاشِعٍ ... أَكْلُ الخَزير ولا ارتضاعُ الفَيْشَلِ[٧]

وقال آخر:

بلادٌ كأَنَّ الجُوعَ يَطْلُبُ أَهْلَها ... بذَحْلٍ[٨] إذا ما الضَّيْفُ صَرَّتْ جَنَادِبُهْ[٩]

وقال آخر:

كَرِيُّه لا يُطْعِمُ الكَرِيَّا[١٠] ... باللّيلِ إلاّ جِرْجِرًا مَقْلِيَّا

---

(١) في الأصل: «يرث» بالثاء المثلثة، وهو تصحيف.

(٢) في الأصل: «إهاؤه ببعثة» وهو تصحيف في كلتا الكلمتين.

(٣) في الأصل: «ينزل»؛ وهو تحريف.

(٤) الإمرة: الضعيف الرأي الذي يوافق كلا على ما يريد ولا رأي له.

(٥) في الأصل: «غرة»؛ وهو تحريف.

(٦) في الأصل: «منهما»؛ وهو تحريف.

(٧) في (أ) الوارد فيها وحدها هذا الشعر «عزى» مكان «ندى»، وحريز مكان خزير؛ وهو تحريف كما ترى، والتصحيح عن النقائض؛ والبيت لجرير. والخزير: لحم يقطع صغارا ويلقى في الماء فإذا أميت طبخا ذرّ عليه الدقيق.

(٨) في الأصل: «يدخل»؛ وهو تصحيف.

(٩) صرير الجندب مثل يضرب للأمر يشتد حتى يقلق صاحبه. والأصل فيه أن الجندب إذا رمض في شدة الحر لم يقر في الأرض، وطار فتسمع لرجليه صريرا. والجندب طائر أصغر من الصدى يكون في البراري.

(١٠) إذا أكريت إنسانا بعيرك أو أكراك بعيره فكل منكما كريّ صاحبه، قاله في اللسان وأنشد هذا الرجز. والجرجر: =

مُحْترقًا نِصْفًا وَنِصفًا نِيًّا

وقال الأصمعي: قال الهيْثم بنُ جَراد - وذَمَّ قَوْمًا -: واللهِ ما أنتم آلُ فَلاةٍ فَتعْصِمَكُمْ، ولا أنتم آلُ رِيفٍ فتأكلون. فقيل: لو زِدتَ؟ فقالَ: ما بَعْد هذا شيء.

قال: وما أشبه هذا الجواب بقَوْل عقيل بن عُلَّفة[1] حين قيل له: لم لا تطيلُ الهجاء؟ قال: يَكْفيكَ مِن القِلادة ما أحاط بالعُنُق.

وقيل لابن[2] عُمَر: لو دعَوْتَ الله بدعَوات؟ فقال: اللهمّ عافِنَا وارحَمْنا وارزُقنا. فقيل له: لو زِدتَنا؟ فقال: نَعوذُ باللهِ مِنَ الإسْهاب.

قال شاعر:

إذا أَغْلَقَ البابَ الكريمُ مِنَ القِــــرَى	فليس على بـــــاب الفَرَزْدَق حاجِبُ
فتًى يَشْتَرِي حُسْنَ الثناءِ بمالِـــــــه	إذا اغبَرَّ مِنْ بَرْدِ الشتـــاءِ الكَواكِــبُ

قال: وكلّ لحمٍ وخُبْزٍ أُنْضِجَ دَفِينًا فهو مَلِيل، وما كان في تنُّور فهو شِواء؛ وما كان في قِدْرٍ فهو حميل[3].

قال الأحنفُ لعُمر بن الخطاب: إن إخواننا من أهل الكوفة والشام نَزَلُوا في مُقْلَةِ[4]

= الفول بلغة أهل العراق؛ أو هو نبت. والذي في الأصل «كدنة» مكان قوله «كريّه» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا بعد تقليب هذه الكلمة على عدة وجوه.

(١) كذا في (ب) والذي في (أ): «ابن علقمة».

(٢) في (ب) «لأبي عمرو».

(٣) كذا في الأصل؛ ولم نجد هذا اللفظ بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة؛ والذي وجدناه بالمعنى المذكور «قدير» أي مطبوخ في القدر؛ ولعل قوله حميل بالحاء المهملة مصحف عن جميل بالجيم؛ وهو الشحم المذاب، فيكون هنا كلام سقط من الناسخ قبل هذه الكلمة المصحّفة التي نحن بصددها.

(٤) مقلة الجمل وحولاء الناقة يتمثل بهما في الخصب والنعمة، فيقال: هم في مثل حدقة البعير، وذلك أن حدقة البعير أخصب ما فيه، لأن بها يعرفون مقدار سمنه، وفيها يبقى آخر النقى، وهو مخ العظم. ويقال صاروا في حولاء الناقة إذا صاروا في خصب؛ وإذا وصفت الأرض كأنها حولاء الناقة، لأن ماء الحولاء أشد ماء خضرة. والحولاء: الماء الذي يخرج على رأس الولد إذا ولد، وليس في الكلام فعلاء بالكسر ممدودا إلا حولاء عنباء وسيراء. وقيل: الحولاء: غلاف أخضر كأنه دلو عظيمة مملوءة ماء وتتفقأ حين تقع على الأرض وهو قائد السلي، أي يخرج قبله؛ ويقال أيضا هم في مثل حولاء السلي. انظر ما يعوّل عليه في المضاف والمضاف إليه، للمحبي ولسان العرب.

الجمل وحوَلاء النَّاقَة من أنهارٍ متفجِّرة، وثِمارٍ متدلِّية، ونزَلْنا بسَبخَةٍ نَشّاشة[١] يأتينا ماؤُنا في مِثْل حلْقوم[٢] النَّعامَة أو مريء الحَمَل، فإما أن تَشُقَّ لنا نَهْرًا، وإما أن ترفعنا إليك.

قال جابر: كان النبيُّ ﷺ يأمُرُ الأغنياء باتخاذ الغَنم، والفُقراء باتخاذ الدَّجاج.

والعربُ تقول: أكْرِمُوا الإبل إلَّا في بَيْتٍ يُبْنَى، أو دَمٍ يُفْدَى، أو عَزَبٍ يَتزوّج، أو حَمْلِ حَمالة.

وقال مُعَاوِيَةُ لأعْرابيّ: ما تجارَتُكَ؟ قال: أَبيع الإبل، قال: أما علمت أن أَفْوَاهَها حَرَب[٣]، وجلودَها جَرَب، وبَعرها حَطَب، وتأكل الذهب.

وقال خَالدُ بنُ صَفْوان: الإبلُ للبُعْد، والبغالُ للثقل، والبَراذينُ للجَمالِ والدَّعة، والحميرُ للحَوائج، والخَيْلُ للكرِّ والفرّ.

وقال آخر:

يَقْذِفْنَ في الأعناقِ والغَلاصِمِ[٤] ... قَذْفَ الجَلاميد بكَفِّ الراجِمِ

يُريدُ بالأعناق الحُلُوق.

وقال آخر:

نَغَارُ إذا ما الرَّوْعُ أَبْدَى عن البُرَى ... ونَقْرِي عَبيطَ اللَّحْمِ والماءُ جامِسُ[٥]

وقال آخر:

(١) نشّاشة، أي نزّازة بالماء لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها.

(٢) حلقوم النعامة ومريء الحمل: مثلان في قلة ما يأتيهم من الماء وضيق مسايله إليهم.

(٣) حرب، أي ذات حرب، وهو والكلب واحد وزنًا ومعنى؛ وجلوها جرب أي ذات جرب.

(٤) الغلاصم: جمع غلصمة، وهي رأس الحلقوم. يريد أن هذه الإبل تقذف الطعام في حلوقها وأعناقها قذف الحجارة. يصفها بقوة القذف قذف الطعام. والذي في الأصل: «يقدمن» مكان «يقذفن»؛ وهو تحريف.

(٥) البيت لذي الرمة، والبرى: الخلاخيل، والماء الجامس: الجامد. يقول إنهم يغارون على النساء إذا اشتد الفزع، وكشف الرعب عن سيقانهن فأبدين من خلاخيلهن، فهم إذ ذاك يحمونهن ويكفينهن ما يفزعهن؛ ثم يقول في الشطر الثاني إنهم كرام، إذا اشتد البرد وجمد الماء يقرون أضيافهم عبيط اللحم؛ وفي رواية سديف؛ وقد ورد هذا البيت في الأصل هكذا:

يغار إذا ما الزرع أبدى عن الثرى وبقري إلخ.....

وفيه تصحيف في بعض كلماته كما ترى؛ والتصويب عن ديوان ذي الرمة وغيره.

تِلْكَ المكارِمُ لا ناقٌ[١] مُصرَّمَةٌ ... ترعَى الفَلاةَ وَلا قَعْبٌ مِنَ اللَّبنِ

وقال أبو الصَّلت:

تِلكَ المَكارِمُ لا قَعْبَانِ[٢] مِنْ لَبَنٍ ... شِيبَا بماءِ فعادا بعدُ أَبْوالا

وَوَصفَ بعضُ البُلغاء التجار فقال: لا يوجد الأدَبُ إلَّا عند الخاصّةِ والسُّلطانِ ومُدَبِّريه، وأما أصحابُ الأسواقِ فإنّا لا نَعدَم من أحدهم خُلُقًا دقيقًا ودِينًا رَقيقًا، وحِرْصًا مُسْرِفًا، وأدبًا مُختَلِفًا، ودناءة مَعْلومة، ومُرُوءة مَعْدومة، وإلْغاء اللَّفيف[٣]، ومُجاذَبَةً عَلَى الطَّفِيف، يَبْلُغُ أحدُهُم غايَةَ المَدْحِ والذَّمِّ في عِلْقٍ[٤] واحد في يوم واحد مع رجل واحد، إذا اشتراهُ منه أو باعه إيّاه، إن بايَعكَ مُرابَحة[٥] وخَبَّرَ بالأثْمان، قَوَّى الأيْمانَ على البُهْتان، وإن قَلَّدْتَه الوَزْنَ أَعْنَتَ لِسانَ الميزان، ليأخُذَ برُجْحانٍ أو يُعْطِيَ بنُقْصان؛ وإن كان لك قِبلَه حَقٌّ لَواهُ مُحْتَجًّا في ذلك بسُنَّةِ السُّوقيِّين، يَرْضَى لكَ ما لا يَرْضَى لنفسه، ويأخذُ منكَ بنَقْدٍ ويُعطيك بغَيْره، ولا يَرَى أَنّ عليه من الحقِّ في المبايَعَة مثلَ ما لَه؛ إن استَنْصَحْتَه غَشك، وإن سأَلْته كَذَبَك، وإن صَدَقْتَهُ حَرَبكَ، مُتَمرِّدُهم صاعقةٌ على المُعامِلين، وصاحبُ سَمْتِهم نِقْمَةٌ على المسْتَرْسِلين[٦]؛ قد تعاطَوا المُنْكَر حتَّى عُرِف، وتَناكروا المعروفَ حتَّى نُسِي، يَتَمَسَّكون من المِلّةِ بما أَصْلح البضائع، وينهَوْن عنها كلَّما عادتْ بالوضائع[٧]؛ يُسَرُّ أحدهم بِحِيلَةٍ يُرْزَقُها[٨] لِسِلْعَةٍ يُنَفِّقُها، وغِيلةٍ لمُسْلمٍ يَحْمِيه الإسلام، فإذا أحكم حِيلته وغِيلَته غدَا قادرًا

(١) الناق: جمع ناقة. وفي (أ) التي ورد فيها وحدها هذا البيت: «لا ناب» بالباء؛ وهو تحريف، إذ الناب الواحدة – وهي المسنّة من الإبل – لا تكون مصرّمة، أي بالغة صرمة؛ وهي عدة من الإبل تبلغ الأربعين.

(٢) القعب: القدح الضخم.

(٣) اللفيف: الصديق.

(٤) العلق: النفيس من المتاع.

(٥) يريد بالمرابحة هنا أن يقول المشتري للبائع: أريحك في هذه السلعة كذا فوق ما اشتريتها به من الثمن أو أن يقول البائع للمشتري ذلك.

(٦) السمت: هيئة أهل الخير وطريقتهم. والمسترسلون: من استرسل إليه إذا انبسط إليه واستأنس ثقة به واتكالا على ما بينهما من ودّ وصلة. وفي الأصل: المترسلين، وهو تحريف.

(٧) الوضائع: الخسائر.

(٨) في (أ) «يزورها» بتشديد الواو؛ وهو وإن صح به المعنى إلا أنه لا يستقيم به السجع.

على حَرْدِه، فغَرَّ وَضَرَّ، وآبَ إلى مَنزله [بحطام قد جَمَعه مغتبطًا بما أباحَ مِن دِينه] وانتَهَكَ من حُرْمَةِ أخيه، يَعُدُّ الذي كان منه حَذْقًا بالتكسّب، ورِفْقًا بالمطلَب، وعِلْمًا بالتجارة، وتَقَدُّمًا في الصناعة.

فلمّا بلْغتُ قراءتي هذا الموضعَ قال الوزير: إن كان هذا الواصفُ عَنَى العامّةَ بهذا القَوْل فقد دخل في وصفه الخاصةُ أيضًا، فوالله ما أسمع ولا أرى هذه الأخلاقَ إلّا شائعة في أصناف الناس من الجنْد والكتّاب والتُّنّاء[1] والصالحين وأهل العلم؛ لقد حالَ الزّمانُ إلى أمْرٍ لا يأتي عليه النَّعْت، ولا تَسْتَوْعِبُه الأخبار، وما عَجَبِي إلا مِنَ الزِّيادة على مَرِّ الساعات، ولو وَقَفَ لعَلّه كان يُرْجَى بعض ما قَدْ وَقَع اليأسُ منه؛ واعترضَ القُنوطُ دُونَه.

فقال ابن زُرْعة وكان حاضرًا: هذا لأنّ الزمان من قبل كان ذا لَبُوس من الدِّين رائع، وذا يَدٍ من السِّياسة بسيطة، فأخْلَقَ اللَّبوسُ [وبَليَ، بل تَمزّق] وفَنِيَ، وضعفت اليَدُ بل شَلّتْ وقُطعتْ، ولا سبيلَ إلى سياسة دينيّة لأسْبَابٍ لا تتفق إلّا بعلل فلكيّة، وأمور سماويّة، فحينئذ يكونُ انْقيادُ الأمور الجانحة[2] لها، في مُقابَلة حِران الأُمور الجامحة[2] عنها، وذلك مُنْتَظَر في وَقْتِه، وتَمنِّي ذلك قبل إبّانه وسواسُ النَّفْس، وخَوَرُ الطِّباع، والناس أهدافٌ لأغراض الزمان ومُقَلَّبون بحوادث الدهور[3]، ولا فَكَاكَ لهم مِن المكارِه، ولا اعتلاقَ لهم بالمحابّ [إلا] بالدواعي والصوارف التي لا سبيل لهم إلى تحويل هذه إلى هذه، ولا إلى تبديل هذه بهذه، واختيارُهم للتوجُّه إلى محبوبهم أو الإعْراض عن مكْرُوههم ضَعيفٌ طفيف، ولولا ذلك لكانت الحَسَرات تزول في وَقتِ ما يُراد[4]، والغبْطةُ تُملَك[5] بإدراك ما يُتمنَّى، وهذا شَاوٌ مَحْكومٌ به بقُوّة النَّفس، غيرُ مُسْتَيْقَظٍ إليه[6] بقوّة الحِسّ.

---

(١) التنّاء: الدهاقين ورؤساء القى، الواحد تانئ.

(٢) ورد هذا اللفظان في كلتا النسختين كل منهما مكان الآخر، والسياق يقتضى ما أثبتنا كما ترى.

(٣) في (ب) «الأمور».

(٤) كذا في (ب) والذي في (أ) «في فوت الإيراد»؛ وهو تحريف.

(٥) في (ب) «تدرك»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٦) في كلتا النسختين: «عليه» وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

فقال الوزير: أحسنتَ يا أبا عليٍّ في هذا الوصف، «وإنَّ نَفْثَكَ[1] لَيَدُلُّ على أكثرَ مِن ذلك»، ولو كان البالُ ظافرًا بنِعْمة، والصَّدْرُ فارِغًا من كُرْبَة، لكنّا نَبْلُغ من هذا الحديث مبلغًا نَشْفِي به غَلِيلَنا [قائلين] ونُشْفَى به مُسْتَمِعِين، ولكنّي قاعِدٌ معكم وكأني غائب، بل أنا غائبٌ مِنْ غير كاف التّشبيه، والله ما أَمْلكُ تَصرُّفِي ولا فِكْرِي في أَمْرِي، أرى واحدًا في فَتْلِ حَبْل[2]، وآخَرَ في حَفْرِ بئر، وآخَرَ في نَصْبِ فَخّ، وآخَرَ في دَسِّ حِيلة، وآخَرَ في تَقْبِيح حَسَن، وآخَرَ في شَحْذِ حَديد، وآخَرَ في تَمْزِيق عِرْض، وآخَرَ في اختلاق كَذِب، وآخَرَ في صَدْعِ مُلْتَئِم، وآخَرَ في حَلِّ عَقْد، وآخَرَ في نَفْثِ سِحْر، وناري مع صاحِبي رَماد، وريحُه عليَّ عاصَفَة، ونَسِيمي بَيْنِي وبَيْنَه سَموم، ونَصِيبِي منه هُموم [وغُموم]، وإنِّي أحدِّثكم بشيءٍ تَعْلَمُون [به] صِدْقي في شَكْوَاي، وتقِفون منه على تَفَسُّخي[3] تَحْتَ بَلْواي، ولولا أنِّي أطفئُ بالحديث لَهَبًا قد تَضَرّم صَدْرِي به نارًا، واحتَشَى فُؤادي منه أُوارًا؛ لما تَحدَّثْتُ به، ولو استَطَعْتُ طَيَّه لَما نَبسْتُ بحَرْفٍ منه، ولكنَّ كِتْماني للحديث أَنْقَبُ لحجابِ القَلْب من العَتَلة لسُور القَصْر.

دَخَلْتُ منذ أيام فوصلت[4] إلى المجلس، فقال لي: قد أَعَدْتُ الخِلْعَة فالَبْسها على الطائر الأسْعد، فقلت: أَفْعَل، وفي تذكرتي[5] أشياء لا بدّ مِنْ ذِكرها وعَرْضها.

فقال: هاتِ، فقلت: يُتقدَّم[6] بكذا وكذا، ويُفْعَل كذا وكذا. فقال: عندي جميعُ ذلك، أَمْضِ هذا كلَّه، واَصنَعْ فيه ما ترى، وما فَوْقَ يَدِك يد، ولا عليك لأحدٍ اعتراض؛ فانقلبتُ عن المجلس إلى زَاوِيَةٍ في الحُجْرة، وفيها تحدَّرَت دُموعي، وعلا شَهيقي، وتَوَالى نشيجي، حتَّى كِدْتُ أَفْتَضِح فَدَنا منّي بعضُ خدَمي من ثِقاتي، فقال: ما هذا؟ الناس وقوفٌ يَنْتَظِرون

(١) كذا ورد هذا الكلام الذي بين هاتين العلامتين في (ب) والذي في (أ) «وأن تقبله كيدك على أعزز من ذلك»؛ وفي هذا الكلام تحريف كما ترى لا يفهم له معنى.

(٢) وردت هذه العبارة في كلتا النسختين مهمل بعض حروفها من النقط تتعذر قراءتها.

(٣) في كلتا النسختين «تفسحي»؛ وهو تحريف.

(٤) في (ب) «فدخلت».

(٥) في (أ) «وفي فكري».

(٦) يتقدم بكذا، أي يؤمر به.

بُرُوزَكَ بالخِلْعة المُبَارَكة والتَّشريف المَيْمُون، وأنت في نوحٍ ونَدَم؟ فقلتُ: تَنَحَّ عنّي ساعةً حتّى أُطْفِئَ نَارَ صَدْري، وإنما كان ذلك العارضُ لأني كنت عرضتُ على صاحبي تذكرةً مشتملةً على أشياءَ مختلِفة، فأمضاها كلَّها، ولم يُناظرني في شيء منها، ولا زادني شيئًا فيها، ولا ناظَرَني عَلَيْها، ولعلِّي قد بَلَوْتُهُ بها، وأخْفَيْتُ مَغْزَايَ في ضِمْنِها، فخُيِّل إليَّ بهذه الحال أنَّ غَيْرِي يَقِفُ مَوْقفي، فيقول فيَّ قَوْلًا مُزَخْرَفًا، وَيَنْسِبُ إليَّ أمرًا مؤلَّفًا، فيُمضي ذلك أيضًا له كما أمضاه لي، فوجدتُني[1] بهذا الفِكْرِ الذي قد فَتَقَ لي[2] هذا النوع من الأمْرِ كراقمٍ على صَفْحَةِ ماء، أو كقابضٍ في جَوٍّ على قِطعَة من هَواء؛ أو كمن يَنفخُ في غير فَحَم، أو يلعبُ في قيْد[3]، ولقد صَدَق الأوّل حيث قال:

وإنّ امـــــــرأً دُنْياهُ أكبـــــرُ هَمِّـــه   لَمسْتَمْسِكٌ منهــــا بحَبْـــــلِ غُرُورِ

غير أنِّي أذكر لكم ما عَنَّ لِي[4] من هذا الأمر.

اِعْلموا أنِّي ظَنَنْت أنَّ ما نَظَّمَه[5] الماضي –رحمه الله– وأَصْلَحَه، وبَنَاه وقَوَّمَه، ونسَجَه ونَوَّقَه[6] لا يَسْتَحِيل في ثَلاثين سَنةً ولا خَمْسين سنة؛ وأنّ الحالَ تَدُومُ على ذلِك المِنْهاج، وتستمرُّ على ذلِك السِّياج، ونكونُ قد أَخَذْنا بطريق من السَّعَادة، وبَلَغْنا لأَنْفُسِنا بعضَ ما كُنّا نُسَلِّط عليه التَّمَنِّيَ من الإرادة؛ فَنَجْمَعُ بين علوِّ المرتبة، وشَرَفِ الرِّياسة، ونَيْلِ اللَّذَّة، وإدراك السرور، واصطناع العُرْف، وكسْبِ الثَّناء، ونَشْرِ الذِّكْرِ، وبُعْدِ الصِّيت، فعادَ ذلك كلُّه بالضِّد، وحالَ إلى الخلافِ، ووقَفَ على الفِكْرِ المُضْنِي، والخَوفِ المُقْلِق، واليَأْسِ الحَيّ، والرَّجاء الميّت؛ وما أَحْسَنَ ما قال القائل:

---

(١) في (ب) «فوجدته»؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا كما في (أ).

(٢) في (أ) «فيّ».

(٣) في كلتا النسختين: «في مد»؛ وظاهر أن معناه لا يناسب ما هنا؛ ولعله محرف عما أثبتنا.

(٤) في (ب): «ما غرفي»؛ وهو تحريف.

(٥) في (أ): «ما يظهر»؛ وهو تحريف.

(٦) في (أ): وقوفه؛ وهو تحريف. ويلاحظ أن (أ) وحدها هي التي وردت فيها هذه الكلمة والتي قبلها.

أَظمَتْنِيَ[١] الدُّنيا فلمّا جئْتُهـــا مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عليَّ مَصائِبـــا

فقال له ابن زُرْعة: إنّ الأُمورَ كلَّها بيَدِ اللهِ، ولا يُسْتَنْجَزُ الخَيْرُ إلَّا منه، ولا يُسْتَدْفَع الشرُّ إلا بِهِ، فَسَلْه جَميل الصُّنْع [وحُسْن النيّة] وانوِ الخيرَ، وبُثَّ الإحسان، وكِلْ أَعْدَاءَكَ إلى رَبِّكَ الّذي إذا عَرَفَ صِدْقَكَ وتَوَكُّلَكَ عليه فَلَّلَ حَدَّهم، وعَفَّرَ خَدَّهم، وسَيَّحَ الْفُرَاتَ إلى جَمْرَتِهم حتى يُطْفِئها، وَسَلَّطَ الأَرَضَةَ على أبْدانِهم حتى تَقْرِضَها، وشَغَلهُمْ بأَنْفُسِهم، وخَالَفَ بين كَلِمتِهم، وصَدَّعَ شَمْلَ جَمِيعهم، وَرَدَّهم إليكَ صاغِرين ضارِعين، وَعَرَضَهُمْ عليك خاضِعين. وما ذلك على الله بِعَزِيز، وإنَّ الله مَع المُحْسِنين على المُسِيئِين.

قال: والله لقد وَجَدْتُ رَوْحًا[٢] كثيرًا بما قُلْتُ لكم وما سَمِعْتُ منكم، وأرجُو أنَّ الله يُعينُ المَظْلُوم، ويُهينُ الظّالم. قد تَمَطَّى اللَّيْل، وتَغَوَّرَتْ النُّجُوم، وحَنَّ البَدَنُ إلى التَّرَفُّه؛ فإذا شِئْتُمْ[٣]. فانصَرَفْنَا مُتَعَجِّبين.



(١) في (أ): «أطعمتني». وفي (ب): أطمعتني؛ وهو تحريف في كلتا النسختين، والبيت للمتنبي.

(٢) الروح بفتح الراء والراحة كلاهما بمعنى واحد.

(٣) هذه الجملة أريد بها الإيذان بالانصراف.

الليلة الثالثة والثلاثون

عُدْنا إلى ما كنّا فيه مِنْ حَدِيثِ المُمالحة - وكانَ قد استَزَادَني - فكتَبْتُ له هذِه الورَقات وقَرأتُها بين يَدَيه، فقال كلامًا كثيرًا عند كلِّ ما مَرَّ مِمَّا يكون صِلَةً لِذلك الحديث، خَزَلْتُه طَلَبًا للتّخفيف.

قال حَمّاد الرّاوية: عن قَتَادَةَ قال زيادٌ لغَيْلاَن بن خَرَشة: أُحِبُّ أن تحدّثَني عن العَرَب وجَهْدِها وضَنْكِ عَيْشِها لِنَحْمَدَ اللهَ على النِّعْمَة الَّتي أَصْبَحْنا بها. فقال غَيْلان: حدّثني عمّي قال: تَوَالَت على العَرَبِ سِنون [سَبْعٌ في الجاهلية] حَصّت[١] كلَّ شيء، فخرجتُ على بَكْرٍ لي في العَرَب، فمكثتُ سبعًا لا أَذُوقُ فيهنّ شَيْئًا إلّا ما يَنالُ بَعيري من حشرات [الأرض] حتى دنوتُ[٢] إلى حِواء[٣] عظيم، فإذا بِبَيْتٍ جَحِيش[٤] عَنِ الحيِّ، فمِلْتُ إليه، فخرجت إليّ امرأةٌ طُوالَة حسّانة[٥]، فقالت: مَن؟ قلتُ: طارِقُ لَيْلٍ يلتمِسُ القِرَى. فقالت: لو كان عِنْدَنا شيءٌ آثَرْناكَ به، والدالُّ على الخَيْر كفاعِلِه، جُسْ هذِه البُيُوتَ فانْظُر إلى أَعْظَمِها، فإنْ يَكُ في شيء منها خَيْرٌ ففيه. فَفَعلْتُ حتى دَنَوتُ[٦] إليه، فرحَّبَ بي صاحِبُه وقال: مَن؟ قلتُ: طارقُ لَيْلٍ يَلْتَمِسُ القِرَى. فقال: يا فلان، فأجابه، فقال: هل عِنْدَكَ (من) طَعام؟ قال: لا، قال: فوالله ما وَقَرَ في أُذُني شيءٌ كان أَشَدَّ عليَّ منه. فقال: هل عندَكَ مِنْ

(١) في (ب): «أهلكت»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضًا. يقال: حص الشعر ونحوه إذا استأصله.

(٢) في (ب): «وقعت».

(٣) الحواء: جماعة البيوت.

(٤) الجحيش: من قولهم: رجل جحيش المحل إذا نزل ناحية عن الناس ولم يختلط بهم. ويريد بعد ذلك المنزل وانعزاله عن منازل ذلك الحيّ.

(٥) طوالة حسانة، أي طويلة حسنة.

(٦) في (ب): (دفعت إليه)؛ والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

شَراب؟ قال: لا، ثم تأوَّهَ وقال: قد أبْقَيْنا فِي ضَرْع فلانةَ[١] شيئًا لِطارقٍ إنْ طَرَق، قال: فأتِ به، فأَتَى العَطَن فابْتَعثَها، فحدثني عَمِّي أنَّه شَهِدَ فَتْحَ أَصْفِهانَ وتُستَر ومِهْرَجَان[٢] قُذَق وكُورَ الأَهْوَازِ وفارِسَ، وجاهَدَ عند السُّلْطان وكَثُر ماله وَوَلَدُه، قال: فما سمعتُ شيئًا قطُّ كان أَلَذَّ إليّ من شَخْبِ تلك الناقة في تِلْكَ العُلْبَة، حتى إذا مَلأها ففاضت مِنْ جَوانِبها وارتفعَتْ عليها رَغْوَةٌ كجُمَّة[٣] الشَّيْخ أقبل بها نَحْوِي فعَثَر بعُودٍ أو حَجَر، فسقطت العُلْبَةُ مِن يده، فحدّثني أنه أُصِيبَ بأبيه وأُمّه [وولده] وأهل بيته، فما أُصيبَ بمُصيبة أعظمَ عليه مِن ذهاب العُلْبة؛ فلمّا رآني[٤] كذلك رَبُّ البَيْتِ خَرج شاهرًا سَيْفَه، فبَعَثَ الإبلَ ثم نَظَر إلى أَعْظَمِها سَنامًا، على ظَهْرِها مثل رأسِ الرَّجل الصَّعِل[٥]، فكَشفَ عن فُوَّهَته[٦] ثم أَوقد نارًا، واجْتَبَّ سَنامَها، ودَفَعَ إليَّ مُدْيَة وقال: يا عبدَ الله، اصْطَل واجْتَمِلْ[٧] فَجَعَلْتُ أَهْوِي بالبَضْعَةِ إلي النَّار، فإذا بَلَغتْ إناهَا أَكَلتُها، ثم مَسَحْتُ ما في يَدِي من إهالَتها على جِلْدِي، وكان قَدْ قَحِلَ[٨] على عَظْمِي حتّى كأنّه شَنٌّ[٩]، ثم شربتُ ماءً وخَرَرْتُ مَغْشِيًّا عليّ، فما أَفَقْتُ إلى السَّحَر.

فقَطَعَ زيادٌ الحديثَ وقال: لا عليكَ أَنْ تُخْبِرَنا بأكثَر مِنْ هذا، فَمَنِ المَنْزُول به[١٠]. قلتُ: عامرُ[١١] بنُ الطُّفَيْل. قال: أبو عليّ؟ قلتُ: أبو عليّ.

---

(١) فلانة: كناية عن اسم بعض نياقه. وفي (أ): الغلابة؛ وهو تحريف.

(٢) تستر: مدينة عظيمة بخوزستان. ومهرجان قذق: كورة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة، من نواحي الجبال. وغير هذين من البلاد المذكورة هنا معروف فلا مقتضى للتعريف به.

(٣) الجمة: مجتمع شعر الرأس، وهي أكبر من الوفرة.

(٤) في (ب): «فلما رأى ذلك».

(٥) الصعل: الدقيق الرأس.

(٦) فوّهة الشيء: أعلاه، يريد أعلى السنام. وفي الأصول ما يشبه في الرسم كلمة عرقوبها ولا مقتضى لكشف عرقوب الناقة هنا.

(٧) اجتمل الشحم: أذابه في النار.

(٨) قحل على عظمى، أيبس من وهج الحر وبعد عهده بالماء.

(٩) الشن: المزادة اليابسة الخلقة.

(١٠) في (أ): «عليه».

(١١) عامر بن الطفيل: هو ابن مالك بن جعفر بن كلاب العامري وهو ابن عم لبيد.

واستعادَني الوزير [أدام الله علوَّه] هذا الحديثَ مرَّتين وَأَكْثر التعجُّب، وقال: صَدَقَ القائلُ في العَرَب: مُنِعُوا الطَّعامَ وأُعْطُوا الكلامَ.

تَغَدَّى أبو العَيْناء عند ابن مكرَّم، فقدَّمَ إليه عُراقًا[١]، فلما جَسَّهُ قال: قِدْرُكُم هذه قد طُبِخَت بشِطْرَنج؟[٢].

وقَدَّمَ إليه يومًا قِدرًا فوجدَهَا كثيرةَ العِظام، فقال: هذه قِدْرٌ أم قَبْر؟

وأكلَ عِنْدَه أبو العَيْناء يَوْمًا، فسُقِيَ ثلاثَ شَرَبات باردة، ثم طَلَبَ الرابعةَ فَسُقيَ شَرْبَةً حارَّة، فقال: [لعلَّ] مزمَّلتكم[٣] تعتَريها حُمَّى[٤] الرِّبْعِ.

قال سَلَمة: بَقيَ أبُو القَمْقام ببغداد وكنَّا نأتيه ونَسْمَع منه، فجاءَنا بجَفْنَة فيها جُوذَاب[٥] فجعلَ أصحابُنا يأكلون، ثم أتاهمْ بسَفُّودٍ فيه يَرابِيعُ فسَلتَها في الجَفنة، فعَلِمَ القومُ أنَّهم قد دُهُوا، فجَعَلوا يَسْتقيئون ما أكلوا.

وقالت عائشة: [رضي الله عنها]: يا رسول الله، لي جارتان بأيَّتهما أَبْدَأ؟

قال: «بأدْنَاهُمَا بابًا منك[٦]».

وقال حَكِيم: يَنْبَغي ألاَّ يُعْطَى البخيلُ أكثرَ مِنْ قُوتِهِ، ليُحْكَمَ عليه بمثْلِ ما حكَم [به] على نفسه.

وقال الشاعر:

أَفْلَحَ مَنْ كانَتْ له قَوْصَرَّه[٧] يأكلُ منها كلَّ يومٍ مَرَّهْ

(١) العراق: العظم الذي أخذ ما عليه من اللحم.

(٢) يريد بهذه العبارة وصف ما في القدر باليبس والصلابة كبيادق الشطرنج.

(٣) المزملة: جرة أو خابية خضراء في وسطها ثقب فيه قصبة من الفضة أو الرصاص يشرب منها.

(٤) حمى الربع هي التي تأخذ يوما وتدع يومين، ثم تجيء في اليوم الرابع.

(٥) الجوذاب: طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم، وهو فارسي.

(٦) في (ب): «إليك».

(٧) القوصرة: وعاء من قصب يرفع فيه التمر من البواري؛ وينسب هذا الشعر إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ له مِزَخَّه[1] يَزُخُّها ثم يَنامُ الفَخَّهْ
أَفْلَحَ مَنْ كانت له دَوْخَلَّهْ[2] يَأْكُلُ منها كلَّ يومٍ مَلَّهْ
أَفْلَحَ مَن كانت له هِرْشَفَّهْ[3] ونَشْفَةٌ[4] يملأ منها كَفَّهْ
أَفْلَحَ من كانت له كِرديدَهْ[5] يأكل منها وهو ثانٍ جِيدَهْ

وقال أبو فرعون الشاشيّ يخاطب الحُجَّاج:

يا خيرَ رَكْبٍ سَلَكُوا طَرِيقا ويَمَّمُوا مَكَّةَ والعَقِيقَا
وأَطْعَمُوا ذا الكَعْكَ والسَّوِيقا والخُشْكنانَ[6] اليابسَ الرَّقيقا

وقال آخَر:

رَأَيْتُ الجُوعَ يَطْرُدُهُ رَغِيفٌ ومِلْءُ الكفِّ من ماء الفُراتِ

وقال النبيُّ ﷺ: «الطاعِمُ[7] الشاكر بمنْزِلةِ الصائِم الصَّابر»[*].

قبَّلَ مُزَبِّدٌ[8] جاريةً بَخْراءَ، فقال لها: أظنُّك تعشَّيْتِ بكَرِش، أو احتَشَيْتِ صَحْنا[9]؛ فقالت: ما أَكَلْتُ إلاّ خَرْدَلًا. قال: قد ذَهَبَ النِّصْفُ الثاني وبَقِيَ ما قَبْلَه.

قال شاعر:

---

(١) في رواية: «طوبى لمن كانت» الخ. والمزخة: زوجة الرجل لأنه يزخها، أي يجامعها؛ والفخة: نومة الغداة، وقيل نومة التعب. وفي الأصل: القخة بالقاف؛ وهو تصحيف.
(٢) الدوخلة: سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب؛ وهي كالزنبيل. والملة: المرّة.
(٣) في رواية: «طوبى لمن كانت» الخ، والهرشفة: خرقة ينشف بها ماء المطر من الأرض ثم تعصر في الإناء؛ وإنما يفعل ذلك إذا قل الماء. ذكره صاحب اللسان وأورد هذا البيت شاهدًا عليه.
(٤) في الأصل: «ومنشر»؛ وهو تحريف. والنشفة: خرقة تنشف بها اليد..
(٥) الكرديدة: القطعة العظيمة من التمر. وهو ثان جيده؛ أي وهو في راحة ودعة.
(٦) الخشكنان: الخبز اليابس، وهو المعروف عندنا بالبسكويت. انظر المعجم الفارسي الانجليزي لاستاينجاس.
(٧) الطاعم، أي ذو الطعام، أو المطعوم. (*) رواه الترمذي في سننه برقم (٢٤٨٦) وقال: حسن غريب.
(٨) في كلتا النسختين «مزيد» بالياء المثناة؛ وهو تصحيف. ومزبد بالموحدة هو صاحب النوادر المعروف.
(٩) الصحنا والصحناة – ويمدان ويقصران – إدام يتخذ من السمك الصغار؛ مشهٍّ مصلح للمعدة.

وباتُوا يُعَشّـون القُطَيْعَاءَ ضَيْفَهُـمْ وعندهُم البَرْنِيُّ في جُلَلٍ دُسْـمِ[١]

وقال آخَر:

وما أَطْعَمُونا الأَوْتَكَى[٢] من سَماحَـةٍ ولا مَنَعوا البَرْنيّ إلا مِـنَ البُخْـلِ

سَمِعْتُ الحجَّاجيَّ يقول: كُلِ الخُبْزَ أو السَّمَك، فإنْ أكلَ أحَدَهما كان مُطِيعًا؛ فإذا نَفَيْتَ فقلتَ: لا تأكل الخبزَ والسَّمَك؛ فإن أكلَ أحَدَهُما لم يَعْصِك؛ وإذا قلتَ: لا تأكل الخبزَ أو السمك، لم يَكُنْ له أَنْ يَأْكُلَ أَحدَهما لأن التقدير في النفي لا تَأْكُلْ أحدَهما، والتقديرَ في الإيجاب ائتِ أَيَّهما شئتَ؛ فهذه خاصيَّةُ أو. السَّوِيقُ: الجَشِيش[٣]، لأنَّه رُضَّ وكُسِرَ. المِجَشَّة: رَحًى صَغِيرَةٌ يُجَشُّ بها. رُوِيَ أنّ رسول الله ﷺ رأى الشُّبْرُمَ[٤] عند أسماء بنت عُمَيْس فقال: «حارٌّ حارٌّ»، وأَمَرَ بالسَّنا[٥].

ويُقال: أكْلُ البطِّيخ[٦] مَجْفَرَة، أي يَقْطَعُ ماءَ النكاح.

ويُقال: فلانٌ عظيمُ المُجْرَأَشِّ[٧] أي الوَسَط، فرسٌ مُجْرَئِشٌّ[٧] الجنْبيْن واجْرَأَشَّت[٧] الإبلُ، إذا بَطِنَتْ، وإبلٌ مُجْرئِشَّة[٧] أي بِطان؛ ويقال: كَثْأَةُ[٨] قِدْرِكُمْ، وهي ما ارتَفَعَ منها

(١) القطيعاء: التمر الشِّهْريز، والتمر الشُّهْريز: الصغير، وهو أردأ التمر؛ وقيل هو البسر قبل أن يدرك؛ والبرني نوع جيد من التمر. والجلة: وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر. والدسم: الغلاظ.

(٢) الأوتكي، هو التمر الشِّهْريز؛ وهو والقطيعاء التي تقدم شرحها في الحاشية السابقة واحد؛ في المخصص «اللؤم» مكان «البخل»؛ وفي الأصل: «الأربكي» مكان «الأوتكي»؛ وهو تحريف.

(٣) في الأصل: «الحشيش»؛ وهو تصحيف.

(٤) الشبرم: نبات له حب كالعدس، وأوراقه تشبه الطرخون. وفي النهاية لابن الأثير عن أم سلمة أنها شربت الشبرم الخ فقال إنه حارٌ حارٌ، وفسر الشبرم بأنه حب كالحمص يطبخ ويشرب ماؤه للتداوي، وقيل أنه نوع من الشيح، أخرجه الزمخشري عن أسماء بنت عميس.

(٥) السنا. نبات معروف في الأدوية، له حمل إذا يبس وحركته الريح سمعت له زجلا، الواحدة سناة، وعرفه بعضهم بأنه نبات يشبه الحناء، زهره إلى الزرقة وحبّه مفرطح على الطول عريض الأوراق وأجوده الحجازي، ويعرف بسنامكة؛ وقد يقال له السنا المكي؛ ونوع آخر ينبت ببلاد الروم ويقال له السنا الرومي.

(٦) في الأصل: «البطيح» بالحاء المهملة؛ وهو تصحيف.

(٧) وردت هذه الألفاظ التي تحت هذا الرقم في الأصل بالحاء والسين المهملتين؛ وهو تصحيف؛ والتصويب عن كتب اللغة.

(٨) في الأصل: «كباة» بالباء الموحدة، وهو تصحيف، والتصويب عن كتب اللغة.

عند الغَلْي.

وقال النبيُّ ﷺ فيما رواه ابن عباس قال: سمعتُه يقول: «ليس بمؤمنٍ مَنْ باتَ شَبْعَانَ [رَيَّانَ] وجارُه جائعٌ طاوٍ»(*).

قال عُمَر: مُدْمِن اللَّحْم كَمُدْمِن الخَمْرِ.

وقال لَقِيطُ بنُ زُرارَةَ يَذُمُّ أَصْحابَه يَوْمَ جَبَلَة:

إنَّ الشِّواءَ والنَّشيلَ والرُّغُــــفْ ... والقَيْنَةَ الحَسْناءَ والكَأسَ الأُنُـفْ

لِلضاربينَ الهامَ والخَيْلُ قُطُفْ

قيل لدُبٍّ: لِمَ تُفْقِرُ رَجُلًا في ليلةٍ من كثرةِ ما تأكُلُ [من] عِنَبِه؟ فقال: لا تَلُمْني، فإنّ بين يَدَيَّ أَربعَةَ أشهُرٍ أَنْجَحِرُ فيها فلا أَتَلَمَّظُ إلَّا بالهواء.

قال ابن الأعرابيّ: إذا أَقْدَحَ[1] الرَّجُل مرَّةً بعد مرَّةٍ فأَطعَمَ لَحمه المَساكينَ سُمِّي متمِّمًا، وبه سُمِّيَ ابنُ نُوَيْرَة، ومن ذلك قولُ النابغة:

إنِّي أُتَمِّمُ أيْســارِي وأَمْنَحُهُــــمْ ... مَثْنَى الأيادِي[2] وأَكْسُو الجَفْنَةَ الأُدُمَا

التُّرْتُم[3] مِن فُتات الطعام، ويقال التُّرتُمُ أيضًا [ما فَضَلَ من[4] الطعام في الإناء]، ويقال: طعامٌ ذُو نُزُل[5]. والمَلِيحُ والمِلْحُ: السِّمَن، يقال: تَمَلَّحَت الجاريةُ وتَحَلَّمَتْ إذا سمِنَت.

وقال أبو الطمَحان القَيْنيّ[6]:

(*) رواه البزار في مسنده (٢٦/ ١٤).

(١) أقدح الرجل، أي ضرب بالقداح في الميسر.

(٢) كذا ورد هذا البيت في اللسان؛ والذي في الأصل: «مشى الأنافي» مكان قوله: مثنى الأيادي؛ وهو تحريف. والأدم: بضمتين هو الأدم بتسكين الدال، أي ما يؤتدم به. يقول: إنه يفوز بهذا اللحم فيطعمه المساكين.

(٣) في الأصل: التريم؛ وهو تصحيف. والتصويب عن كتب اللغة.

(٤) لم ترد هذه العبارة في (أ) المنقول عنها وحدها هذا الكلام، غير أنها تكملة يقتضيها سياق الكلام أخذا من كتب اللغة؛ وواضح أن الكلام بدونها يكون ناقصًا.

(٥) ذو نزل، أي ذو بركة.

(٦) في الأصل: «العتبي»؛ وهو تصحيف.

وإنِّي لأرجو مِلْحَهـا في بُطونِكُـمْ ... وما كَشَطَتْ مِنْ جِلْـدِ أَشْعَثَ أَغْبَـرَا

هكذا سمِعْتُ. ويقال: سَمِنَ حتّى كأَنَّه خَرْس[1] والخَرْسُ[1]: الدَّنُّ بعَيْنه. وفي المثل: «إنّ آخِرَ الخَرْسِ[1] لدُرْدِيّ» أي آخِرُ الدَّنِّ دُرْدِيّ.

وأُنشِد:

حَبَّـذَا الصَّيْـفُ حَبَّذَا من أَوانِ ... وزَمانٍ يَفـوقُ كـلَّ زَمـانِ

زَمَنُ الخَمْرِ والمَسـاوِرِ والجَشْـ ... ـنِ[2] وَوَرْدِ[3] الخِـلافِ والرَّيْحانِ

زَمَنٌ كانـت المَضـائِرُ[4] فيه ... بلُحـوم الجِـدَاءِ والحُمْـلان

وصُـدورُ الدّجاجِ بالخَـلِّ والمُـ ... ـرِّي ونَثْرِ السَّـذَابِ والأنْجُـذَانِ[5]

وسِمـانٌ مِنَ الفَـراريجِ تُغْلَـى ... بعَصِيـرِ الأعْنـابِ والرُّمَّـان

وشِـوا الوزَّةِ اللذيـذَةِ والقـا ... رِص بيـن الحَليـب والألْبـانِ

ونَقيِّ السَّويقِ بالسّـكَّر المَنْـ ... ـخُولِ في الثلـج في الزُّجاج اليمَانِي

وقِـلالٌ تُحَـطُّ مِنَّ بَكَـراتٍ ... مُرْويـاتٌ غَلائِـلَ العَطْشَـانِ

واعتَرضَ حديثُ العِلْم، فأنْشَدَ ابنُ عُبَيْدٍ الكاتبُ لسابقِ الزُّبَيْرِيِّ قولَه:

العِلْمُ يَجْلو العَمَـى عن قَلْبِ صاحِبِه ... كما يُجَلِّي سَـوادَ الظُّلْمَـةِ القَمَـرُ

وقال أيضًا:

إذا ما لم يكن لك حُسْـنُ فَهْمٍ ... أَسَأْتَ إجابَةً وَأَسَـأْتَ فَهْمَـا

---

(١) في الأصل: «حرش»؛ وهو تصحيف في المواضع الثلاثة التي تحت هذا الرقم.

(٢) الجشن: لفظ فارسي معناه مجتمعات الناس في الأعياد والولائم ونحو ذلك، كما في المعجم الفارسي الإنجليزي لاستاينجاس. ولم نجد للمساور معنى يناسب السياق، فلعله تحريف لم نهتد إلى وجه الصواب فيه. وفي الأصل: (ومن) مكان (زمن)؛ وهو تحريف.

(٣) في الأصل «وبرد» مكان (وورد)؛ وهو تحريف.

(٤) في الأصل: «ومن كانت المضار»؛ وفيه تحريف لا يخفى. والمضائر: جمع مضيرة وهي لحم يطبخ باللبن المضير، أي الحامض، وقد يخلطون به الحليب. أما كيفية عملها فقد ذكرت في كتب الأطعمة فانظرها.

(٥) الأنجذان: نبات له أصل أغلظ من الإصبع، وقرون كقرون اللوبياء، فيها حب كالعدس؛ وهو فارسيّ معرّب.

آخَر:

العِلْمُ يُنْعِشُ أَقْوامًا فيَنْقَعُهُمْ[١] كالغَيْثِ يُدْرِكُ عِيدانًا فيُحْيِيهَا

فقال الوزير: عندي في صَحيفةِ حِفْظِ الصِّبا: العِلْمُ سِرَاجٌ يُجَلِّي الظلْمَة، وضِياءٌ يَكْشِفُ العَمَى.

التَّذلُّل مكروهٌ إلَّا في استفادتِه، والحِرْصُ مَذْمُومٌ إلاّ في طَلَبِهِ، والحَسَدُ مَنْهِيٌّ عنه إلَّا عليه.

ثم عاد الحديثُ إلى المُمَالَحة:

حدثني مُطَهَّر بنُ أحمدَ الكاتبُ عن ابن قَرَارة العطّار قال: اجتمع ذات يومٍ عندي على المائدةِ أبو عليّ بنُ مُقْلَةَ وأبو عبد الله اليزيديّ، وكان ابن مُقلةَ يُفضِّلُ الهَرِيسة، وكان اليَزيديُّ يفضِّل الجُوذابَة، وكان كلّ واحد منهما يصفُ النوعَ الذي يَقولُ به ويُؤْثرُه، فقال اليزيديّ: الهَرِيسَةُ طعامُ السُّوقِيِّين والسِّفْلَة، وليست الجوذابة بهذه الصفَة؛ فقال لي ابنُ مُقلة: ما اسم الجوذابة بالفارسيّة؟ فقلتُ جَوْزاب[٢]، فقال: ضُمَّ الكاف[٣]. وفهمتُ ما أَراد، فقلتُ: نسأَلُ اللهَ العافية، والله لقد عافَتْها نفْسي، وسَكَتَ اليَزيديّ.

قال يزيد بن ربيع: الكبابُ طعامُ الصَّعاليك، والماءُ والمِلحُ طَعامُ الأعراب، والهرائس والرُّءُوسُ طعامُ السَّلاطين، والشِّواءُ طَعامُ الدُّعّار، والخَلُّ والزَّيْتُ طعامُ أمثالنا.

وحَدَّثني ابنُ ضَبعونَ الصُّوفيُّ قال: قال لي أبو عمر الشاري[٤] صاحِبُ الخَلِيفة: انهَضْ

---

(١) ينقعهم، أي يرويهم، وفي الأصل «ينفعهم» بالفاء؛ ولعل صوابه ما أثبتنا أخذا من التشبيه.

(٢) ضبطنا هذا اللفظ بفتح الجيم وبالزاي بعدها لما تقتضيه النكتة الآتية. وهذا اللفظ بالفارسية ينطق بالذال أو الزاي كما في معجم استاينجاس بمعنى الطعام الذي يتخذ من اللحم والأرز والسكر والبندق.

(٣) أراد بالكاف هنا الكاف الفارسية وهي تنطق جيما مصرية، ويثير إلى لفظ جوز بالفارسية وهو الفساء؛ فهو ينفره من هذا الطعام بهذه النكتة.

(٤) كذا في (ب): والذي في (أ): «ابن أبي عمرة الشرابي».

بنا حتى نَتغَدَّى، فإنَّ عندي مَصُوصًا[١] وهُلامًا[٢] وبَقِيَّة مُطجَّنَة، وشيئًا من الباذنجان البُورانيِّ البائت المخمَّر. قلتُ: هذه كلها تَزايينُ المائدة، فأَيْنَ الأُدْم؟

كان عبدُ الله بنُ عليّ بن عبدِ اللهِ بن العبَّاس يُكثرُ أكلَ الجُوذَاب ولا يُؤْثِرُ عليه شيئًا، وكان يقول: يَشُدُّ العَضُدَيْنِ، ويقوِّي الساعِدَين، ويَجْلُو الناظِرَين، ويَزيدُ في سَمْع الأذنَين، ويُحَمِّرُ الوَجْنَتَيْن، ويزيد في المَنِيّ، وهو طعام شهيّ، فأيُّ شيءٍ بَقِيَ؟

وبَلَغَ المنصورَ وَصْفُه هذا، فقال: بحَقٍّ ما وَصَفه، ولا نَقْبلُ أكْلَه.

وقال وَكِيعُ بنُ الجرَّاح: التَّمتينُ[٣] على المائدة خيرٌ من زيادة لَوْنين، وكمالُ المائدة كثرةُ الخُبْز، والسَّميذُ الأبْيضُ أَحْلَى من الأصفر.

وكان يحيى بنُ أكثَم يحبُّ[٤] الجُوذاب، فبَلَغَه أنّ رجلًا ممَّن [يحضر] عنده يَعِيبُ الجُوذاب، فقال يحيى: إن ثَبَتَ عنْدِي هذا توقَّفْتُ عن شَهادَتِه، وحَكمْتُ عليه بضَعْف الحسِّ وقلَّة التَّمْييز، فبلغ الرَّجُلَ ذلك، فاحترَسَ، فقال له يحيى يومًا: ما قَولُك في الجُوذَاب؟ فقال: أَشْرَف مَأْكلٍ وأَطْيَبُه، سَهْل المَدْخَل، لذيذُ المَطعَم، حَيِّد الغِذا، قليلُ الأذى. قال: أصَبْتَ، هكذا أُرِيدُك.

أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاس قال: ما مِن داخِلٍ إلا وله حَيْرَةٌ، فابْدَءُوهُ بالسّلام، وما مِن مَدْعُو إلا وله حِشْمَة، فابدَءُوه باليمين[٥].

قال حَمْدان: قلتُ لجاريةٍ أَرَدْتُ شراءَهَا - وكانت ناعمة البَدنِ رَطْبَةً شَطْبَة[٦] غَضّة بَضّة -: ما كان غذاؤكِ عند مولاكِ؟ قالت: المبَطَّن. قلتُ: وما المُبَطَّن؟ قالت: الأُرْزُ الرَّيّانُ مِنَ اللَّبَن، بالفالُوذَج الرَّيّان من العَسَل، والخَبيصَةُ الرَّيّانَةُ مِنَ الدُّهن والسكّر والزَّعفران.

(١) المصوص: طعام من لحم يطبخ وينقع في الخل؛ ويكون من لحم الطير خاصة.

(٢) الهلام كغراب: طعام من لحم عجل بجلده؛ وقيل مرق السكباج البرد المصفى من الدهن.

(٣) التمتين: تقوية الطعام بالأفاويه.

(٤) في (أ): «يؤثر».

(٥) في (أ): «بالتمييز»؛ وهو تحريف.

(٦) الشطبة: الجارية الحسناء الغضة؛ وقيل الطويلة.

قلتُ: حقَّ لكِ.

وقال ابن الجَصَّاص الصُّوفيّ: دَخَلْتُ على أحمدَ بن رَوْح الأهْوازيِّ فقال: ما تَقُول في صَحْفَةِ أُرْزٍ مَطْبُوخ، فيها نَهْرٌ مِنْ سَمْن، على حافاتِها كُثْبَانٌ مِنَ السُّكّر المَنْخُول، فدمَعَتْ عَيْني. فقال: ما لَك؟ قلتُ: أَبْكي شَوْقًا إليه، جعلنا الله وإيّاكَ من الوارِدين عليه بالغَوّاصة والرَّدّادتَين. فقال لي: ما الغوّاصة [والرّدادتان[1]]؟ قلتُ: الغَوَّاصة الإبهام، والرَّدّادَتانِ: السَّبّابَةُ والوُسْطَى. فقال: أحسنتَ، باركَ اللهُ عَلَيْك.

شَكا رجلٌ إلى عُمَرَ الجُوعَ فقال: أكذك وأنت تَنِثُّ نَثَّ[2] الحَميت؟ أي تَرْشَحُ كما يَرْشَحُ الزِّقّ.

وقال ابن سُكّرة:

أَطْمَعَني في خَرُوفِكمْ خَرَفِي	فجِئْتُ مُسْتَعْجِلًا ولم أَقِف
وجئتُ أرجو أَطْرَافَهُ فغدَت	في طَرَفٍ والسِّماكُ[3] في طَرَفِ
وحَذَّرُوني مِنْ ذِكْرِ رُزَّتِه	يا حَرَّ صَدْري لها ويا لَهفِي
عايَنْتُهُ والذي يُفَصِّلُهُ	والقلبُ مِنّي على شَفَا جُرُفِ
ما حَلَّ بي منكَ عِنْدَ مُنْصَرَفي	ما كنتُ إلّا فريسةَ التَّلَفِ

ويقال: القانعُ غنيٌّ وإن جاعَ وعَرِي، والحريص فقير وإن مَلَكَ الدنيا.

قيل لإبراهيم الخليل - عليه السلام -: بأيِّ شيء اتَّخَذَكَ اللهُ خليلًا؟

قال: بأني ما خُيِّرْتُ بين أمْرَينِ إلا اخْتَرتُ الّذي لله، وما اهْتَمَمْتُ لما تَكَفَّلَ لِي به، وما تَغَدَّيْتُ وما تَعَشَّيْتُ إلّا مع ضَيْف.

(١) لم ترد هذه الكلمة في الأصل؛ والسياق يقتضيها أخذا من الجواب.

(٢) في الأصل: «تمت مت»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن المصادر التي بين أيدينا، ونصه فيها؛ وفي حديث عمر أنه جاءه رجل فقال له: هلكت. فقال له: أهلكت وأنت تنث كما ينث الحميت؟

(٣) في الأصل: «والشمال»؛ وهو تحريف. والتصويب عن يتيمة الدهر.

واعْتَرضَ حديثٌ فقال: أَنشدني بَيْتَي ابن غسّانَ البصْريِّ في حَدِيثِ بَخْتِيار، يَعْني عِزَّ الدَّولة، فأنشَدْتُه:

أَقـــامَ على الأهْوازِ سِتِّين لَيْلَةً ... يدبِّرُ أمرَ الملكِ حتّى تدَمَّـــرَا

يدبِّرُ أَمْرًا كـــان أَوَّلُهُ عمًـــى ... وأَوْسَطُه ثُكْلًا وآخِرُه خَـــرَا

فقال: ما أَعْجَبَ الأمُورَ الّتي تأْتي بها الدُّهُور! عُدْ إلى قِرَاءَتِكَ، فعُدْتُ وقَرَأْتُ.

رُويَ في الحديث: لا تأكلُوا ذِرْوَةَ الثَّرِيد، فإنّ البَرَكَةَ فِيها(*).

وقالَ أعرَابيّ: اللَّبَنُ أحَدُ اللَّحْمَيْن، ومَلْكُ العَجين أَحَدُ الرَّيْعَيْن، والمَرَقَةُ أَحَدُ اللَّحْمَيْن، والبلاغةُ أَحدُ السَّيْفَيْن[1] والتَّمني أَحَدُ السُّكْرَيْن[2].

أراد مُزَبِّد أُضْحِيَّةً فلم يَجِدْهَا، فأَخَذَ ديكًا لِيُضَحِّيَ به، فوجَّهَ إليه جيرانُه شاةً شاةً حتى اجتمع عنده سَبْعُ شِياه، فقال: دِيكي أَفْضَلُ عند الله مِنْ إسحاق لأنه فُدِيَ بكَبْش، ودِيكي بسَبْعة.

الكُتَلُ: اللَّحْم[3]، والعَيْمَةُ[4]: شهْوَةُ اللبَن، والقَرَمُ: شَهْوَةُ اللَّحْم.

وقال ﷺ: «من أَحَبَّ أن يرقّ قلْبُه فليُكْثِرْ مِنْ أَكْلِ البَلَس»(**). قيل: هو التّين.

وقال أعرابيّ:

يَمُنُّ عليَّ بالتَّزويج شيخِـــي ... وفي التَّزْويجِ لي هـــمٌّ وشُغْلُ

وكنتُ مِنَ الهُموم رَخِيَّ بـــالِ ... فَحَلَّ مِن الهُموم علـــيَّ ثِقْـلُ

فقلـــتُ له: مَنَنْتَ بِغَيْرِ مَـــنٍّ ... وما لَكَ بالّذي أسْدَيْتَ فَضْـلُ

(*) رواه ابن ماجة (٣٢٧٦) والألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٣٠) عن واثلة بن الأسقع قال: أخذ رسول الله ﷺ برأس الثريد، فقال: «كلوا باسم الله من حواليها واعفوا رأسها، فإن البركة تأتيها من فوقها».

(١) في الأصل: الشيئين؛ وهو تحريف؛ والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٢) في الأصل. «السلوين»ح وهو تحريف لا معنى له.

(٣) الكتل: اللحم، أي القطع منه، الواحدة كتلة، وفي الأصل «الكبل» بالباء؛ وهو تصحيف.

(٤) وردت هذه الكلمة في الأصل مضطربة الحروف تتعذر قراءتها، وما أثبتناه عن كتب اللغة.

(**) رواه السيوطي في اللآلئ المصنوعة (٢/ ٢١٣) والبَلَس: العدس، وقيل: التين.

أَعُزَّابَ العَشِيرَةِ لو عَلِمْتـــــــمْ ... بحالِي حِينَ لِي بَيْــتٌ وَأَهْــلُ

عَلِمْتمْ أنكم في حَـــــالِ عَيْشٍ ... رَخِـــيٍّ مَا لَه يا قَـــوْمُ عَــدْلُ

قال إسحاق المَوْصِليّ: أَمْلَى بَعْضُ الفقهاءِ بالكُوفة أنّ عمرَ بن الخطابِ رضيَ اللهُ عَنْه كرِهَ السَّمَرَ إلا في الفِقْه، يريد كثرَةَ السَّمَرِ إلَّا في الفِقْه.

قيل لميسرة الرّأْس[1]: ما أكثرُ ما أكلْتَ؟ قال: مائةُ رغيفٍ بكَيْلَجة مِلْح؛ فقيل: هذا أَكْلُكَ في بَيْتك؟ قال: آكُلُ في بيتي رغيفين، وأَحْتَشِي[2] إلى الليل فِشْلَ الخَيل.

تَنَاوَلَ الفضلُ بنُ العبَّاس تُفّاحَةً فأكلَهَا، فقيل: وَيْحَكَ، تأكُلُ التَّحيّات؟ فقال: والصَّلَواتِ والطّيِّبات.

يقال: الطُّعْمَة: الكَسْب. ويقال: جئتُ بالطُّعْمَةِ. والطُّعْم: الطَّعَام. والطُّعم: الذَّوق. وهذه الأَرْضُ طُعْمَةٌ لَكَ وطَعْمَة.

قال إسحاق: كنت يومًا عند أَحمَد بن يوسف الكاتب، فدخل أحمدُ بن أبي خالد الكاتبُ ونحن في الغِناء، فقال: والله ما أَجِدُ شيئًا ممّا أنتم فيه. قال إسحاق: فهانَ عليَّ وخفَّ في عيْني، فقلت له كالمستهزئ به: جُعِلْتُ فِداك، قَصَدْتَ إلى أَرَقِّ شيءٍ خَلَقه اللهُ وأَلْيَنِه على الأُذُنِ والقَلْبِ، وأَظْهَرِه للسُّرور والفَرَح، وأَنفاهُ للهَمّ والحُزْن، وما ليس للجوارح منه مَؤُونَةٌ غليظة، وإنما يَقْرَعُ السَّمْعَ وهو منه على مسافة، فَتَطْرَبُ له النفس، فذَممْتَه؟! ولكنه كان يقال: لا يَجْتَمِع في رجل شهوةُ كل لذَّة، وبعد، فإنّ شهوةَ كلِّ رجلٍ على قَدْر تَرْكيبه ومِزَاجِه. قال: أَجَلْ، أمّا أنا فالطعامُ الرقيقُ أَعْجَبُ إليّ من الغِناء. فقلت: إي واللهِ ولحمُ البقر والجواميسِ والتيوسِ الجبَليّة بالباذنجان المبزَّر أيضًا تُقَدِّمُه؟ فقال: [الغِناءُ[3]] مُختلَفٌ فيه، وقد كرِهَه قوم. قلتُ: فالمُخْتَلَف[4] فيه أَطْلِقْهُ لنا حتى تُجْمِعُوا

(١) في (ب): «التراس».

(٢) في كلتا النسختين: «وأتجشأ»؛ وهو تحريف.

(٣) لم ترد هذه الكلمة في كلتا النسختين؛ والسياق يقتضيها.

(٤) في كلتا النسختين: «الاختلاف»؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

على تحريمِه، أعلمتَ - جُعلتُ فداك - أنّ الأوائل كانت تقول: مَنْ سَمِع الغِناء[على] حقيقته مات. فقال: اللهم لا تُسْمِعْناه على الحقيقة إذًا فنموت. فاستَظْرَفْتُه في هذه اللفظة، وقَدَّموا إليه الطعام فشُغِل عن ذمّ الغِناء.

قال سعيدُ بنُ أبي عُرْوَةَ: نَزَل الحَجَّاج في طريق مكّة، فقال لحاجبه: انْظُر أعرابيًّا يَتَغَدَّى مَعِي، وأَسألُه عن بعض الأمر، فنظر الحاجب إلى أَعرابيٍّ بَيْنَ شَمْلَيْن، فقال: أجب الأميرَ، فأتاه، فقال له الحجَّاج: إذَنْ فَتَغدَّ مَعِي. فقال: إنه دَعاني مَنْ هُوَ أَوْلى منكَ فأَجَبْتُه. قال: ومَن هو؟ قال: اللهُ عزّ وجَلّ دعاني إلى الصَّوْم فصُمْت، قال: أفي هذا اليوم الحارّ؟ قال: نَعَمْ، صُمْتُه ليومٍ هو أَشَدُّ منه حَرًّا. قال: فأَفْطِر وصُمْ غَدًا. قال: إن ضَمنتَ ليَ البقاءَ إلى غَد. قال: ليس ذلك إليّ. قال: فكيف تَسْألني عاجِلًا بآجل لا تَقْدرُ عليه. قال: إنّه طعام طيّب. قال: إنَّكَ لم تُطَيِّبْه ولا الخَبَّاز؛ ولكنّ العافيةَ طَيَّبَتْهُ، ولم يُفْطِر، وخَرَج مِنْ عِنْدِه.

قال أعرابي: هذا الطَّعَامُ مَطْيَبَةٌ لِلنَّفْس، مَحْسَنَةٌ لِلجِسْم.

قال أبو حاتم: حدّثنا الأصمعيُّ قال: قال أبو طفيلة الحِرْمَازِيّ[١]: قال أعرابيٌّ: ضِفْتُ رَجُلًا فأَتانا بخُبزٍ مِنْ بُرٍّ كأنَّه مَنَاقِيرُ النِّغْرَان[٢]، وأتانا بتَمْرٍ كأَعْنَاقِ الوِرْلان[٣]، يَوْحَلُ فيه الضِّرْس.

وقال آخَرُ: ونظر إلى رَجُلٍ يأكل بالعَين والفم واليدِ والرأس والرجل: لَوْ سألتَه عن اسمه لَمَا ذكره، وَلَوْ طلعَ وَلدهُ الغائبُ عليه ما عَرَفَه:

يَلْعَبُ بالخَمْسَةِ في قَصْعَـــــةٍ لِعْبَ أَخِي الشِّطْرَنْـــجِ بالشّـاهِ

قال ابن الأعرابيّ: كان المُحَسّن الضبي[٤] شَرِهًا على الطعام، وكان دميمًا، فقال له زياد ذات يوم: كم عيالُك؟ قال: تسعُ بَنات.. قال: فأين هُنَّ منك. فقال: أنا أَحْسَنُ مِنهُنّ

(١) في الأصل: «الجرماري»؛ وهو تصحيف.

(٢) النغران: جمع نغر بضم ففتح، وهو فرخ العصفور أو طائر يشبهه.

(٣) الورلان: جمع ورل بالتحريك، وهو دابة شبيهة بالضب.

(٤) في (أ) المحشي مكان «المحسن»، وفي ب «الألصبي» مكان الضبي؛ وهو تحريف.

وهنّ آكَلُ مِنّي؛ فضَحِك. وقال: جازَ[١] ما سألتَ لهنّ. وأَمَرَ له بأربعةِ آلافِ دِرْهم [فقال]:

إذا كنتَ مُرتَادَ الرِّجالِ لنَفْعِهِمْ فنادِ[٢] زيادًا أو أخًا لزياد

يُجبْكَ امرُؤٌ يُعْطِي على الحمد مالَه إذا ضَنَّ بالمعروفِ كلُّ جَوادِ

وقال سِنانُ بنُ أبي حارثة:

ثُمَّةَ أُطْعِمُ زَادِي غَيْرَ مُدَّخِرٍ أَهْلَ المَحَلَّةِ مِن جَارٍ ومِن جادي[٣]

قد يَعْلَمُ القَوْمُ إذ طالَ اغترابُهُمُ وأَرْمَلوا الزَّادَ أَنِّي مُنْفِدٌ زادِي

وقال السّفَّاح بن بكر:

والماليُّ الشِّيزَى[٤] لأَضْيَافِه كأَنَّها أَعْضَادُ حَوْضٍ بِقاعْ

لا يَخْرُجِ الأضْيافُ مِن بَيْتِه إلاّ وهُمْ مِنه رِواءٌ شِباعْ

أَوْرَدَ أعرابيٌّ إبلهُ، فأَبى أَهْلُ الماء أن يُجيزوه، وقالوا: ابِلُك كثيرة، فإن أَوْرَدْتَ فَشَرْطٌ أن تقِفَ بعيدًا عن الماء وتَسْقي ما جاءَك منها، ولا تُحاجِز[٥] بها؛ قال: أَفعَلُ، وأَنْشَأَ يقول:

رُبَّ طَبِيخ مِرْجَلٍ مُلْهَوجِ يَسْلُتُه القَوْمُ ولما يَنْضَج

حُشَّ بشيءٍ مِن ضِرامِ العَرْفَجِ[٦]

فانقَضَّت الإبل كلّها على الماء فَشَرِبَتْ.

قال الشاعر:

(١) جاز ما سألت، أي نفذ أمرنا به. ومنه قولهم: السرور توقيع جائز، أي نافذ ماض؛ وفي كلتا النسختين: «جاء».

(٢) في (أ): «فبادر».

(٣) الجادي: طالب الجدوى.

(٤) الشِّيزى بكسر الشين وفتح الزاي خشب أسود تصنع منه القصاع. ويريد هنا نفس القصاع؛ وأعضاد الحوض ما شد حوله من البناء. وفي الأصل: «السري» مكان قوله: «الشيزى»؛ وهو تصحيف.

(٥) المحاجزة: الممانعة.

(٦) حش النار: أوقدها، والعرفج ضرب من النبات سهل سريع الاتقاد وهو من شجر الصيف وهو لين أغبر إلى الخضرة له ثمرة خشناء كالحسك وزهره أصفر ولهبه شديد الحمرة.

شُرْبُ النَّبيذ على الطعام قَليلُه[1] فيه الشِّفَاءُ وصِحَّـةُ الأبـدانِ
وإذا شَرِبْـتَ كثيرَه فكثيـرُه مُزجٍ عليكَ ركائبَ الشَّيْطـانِ
فتكونَ بين الضاحِكين كبُومَـةٍ عَمْياءَ بين جَماعَـةِ الغِرْبـانِ
فاحْذَر بجُهْدِكَ أَنْ تُرَى كجَنِيبَـةٍ بَعْدَ العِشاءِ تُقَادُ بالأرْسَـانِ

قال حَمْزَةُ المصنِّف في بعض كتُبه: قال النبيُّ ﷺ لسَلمانَ الفارِسيّ: أن اتَّخِذْ لنا سُورًا، أي طَعامًا كطعامِ الوَليمة، وهي فارسيّة.

قال شيخنا أبو سعيد السِّيرافيّ: أخطأ هذا المتأوِّل، وإنما أراد النبيُّ ﷺ: أنّ سَلْمانَ اتَّخذ لنا خَنْدَقًا يومَ الأحزاب، لأنَّه حَضّ[2] على ذلك، وليس ذا مِن ذاك إلَّا باللفظ.

وقال جُعَيْفِرَانُ المُوَسْوس في وصف عصيدة:

وماءِ عَصِيدة حمـراءَ تَحْكي إذا أبصرتَهـا مـاءَ الخَلُـوق[3]
تَزِلُّ عن اللَّهَـاةِ تَمرُّ سَهْـلًا وتَجْري في العِظام وفي العُروقِ

قال الحسنُ بنُ سَهْل: أشياءُ تَذْهَبُ هَباء، دينٌ بلا عَقْل، ومالٌ بلا بَذْل، وعِشْقٌ بلا وَصْل. فقال حُمَيد: بقي عَليه مائدةٌ بلا نَقْل[4]، ولَحْسَةٌ بلا فَضْل.

قيل لصوفيّ: ما حَدُّ الشِّبَع؟ قال: الموتُ.

وقيل لآخر: ما حَدُّ الشِّبَع؟ قال آكُل حتى يقع عليّ السُّبات فأنامَ على وَجْهِي، وتَتجافَى أطرافي عن الأرض.

وقيل لآخر: ما حدُّ الشِّبَع؟ قال: أن أُدخِل إصبَعي في حَلْقي فيَصِلَ إلى الطّعام.

قال يعقوب: أصبحتُ خالفًا: لا أشتهي الطعام. وخُلوف البَطْنِ تَغَيُّرُه.

---

(١) في الأصل: «بلية»؛ وهو تحريف.

(٢) في الأصل: «خص»؛ وهو تصحيف.

(٣) في الأصول «تجلي» سكان «تحكي» و«الحلوق» مكان «الخلوق»؛ وهو تحريف. والخلوق: ضرب من الطيب قوامه الزعفران.

(٤) النقل: ما يُتَفَكَّه به من جوز ولوز وبندق ونحوها.

ويقال: مَغَسَنِي بَطْنِي، وهو المَغْس، ورجل مَمْغُوس.

ويقال: غَمَزَنِي[1] بَطْنِي وَمَلَكَني.

والعامة تقول: كلُّ ما في القِدْرِ تُخْرِجُه المغْرَفة، ورجل مُقَرضِبٌ[2] وقُراضِب[1] وقِرْضاب[1] إذا كان أكولًا، وكذلك السَّيْف واللِّصُّ، قال الشاعر:

وليسَ يَرُدُّ النَّفْسَ عن شَهَواتِهــا ... من القَوْمِ إلَّا كلُّ ماضِي العَزائِمِ

ومَرَّ ابنُ عامرٍ على عامرِ بنِ عبدِ القَيْس وهو يأكُلُ بَقْلًا بِمِلْح، فقال: لقد رضيتَ باليَسير. فقال: أَرْضَى مِنِّي باليَسِيرِ مَنْ رَضِيَ بالدُّنيا عِوَضًا عن الآخِرَةِ.

قال عبد الملك بن مروان: لا تَسْتَاكَنَّ إلا عَرْضًا، ولا تأكلنَّ إلا عَضًّا، ولا تَشْرَبَنَّ إلا مَصًّا، ولا تركبَنَّ إلا نَصًّا[3]، ولا تَعْقِدَنَّ[4] إلَّا وصًّا.

ويقال: ماءٌ قَراح؛ وخُبْزٌ قَفار: لا أُدمَ مَعَه، وسَوِيقٌ جافٌّ، ولبنٌ صَرِيح: لَمْ يُخَالِطْه شيء.

وقال سعيد بن سَلَمة: شيئان لا تَشْبَعُ منهما ببَغْدَادَ: السَّمكُ والرُّطَب.

قال أعرابيّ: أكلتُ «فِرْسِكَةً[5]» وعلى خَوْخَة، فجاء غلام حَزَوَّرٌ[6] فَنَظر حُرَّتي[7].

الفِرْسِكة: الخَوخة المقدَّدة. والخَوْخَة: القميصُ الأخضرُ بُطِّن بفَرْوٍ. والحُرَّةُ[8]: الأُذُن.

قيل لحاتم الأصمِّ: بِم رُزِقْتَ الحِكْمَةَ؟ قال: بخَلاَوَة البَطْن، وسَخَاوةِ النَّفْس، ومكابَدَة

(١) في الأصل: «عمرني» بالعين والراء المهملتين، وهو تصحيف.

(٢) في الأصل: قرضب وقرضب؛ وما أثبتناه عن كتب اللغة.

(٣) النص: الارتفاع.

(٤) في الأصل: «يقعدن» مكان «يعقدن»؛ وهو تحريف. وما أثبتناه هو الملائم للوسّ، وهو الإحكام في العمل.

(٥) في الأصل: (الفرشلة) بالشين المعجمة واللام؛ وهو تحريف لا معنى له؛ والتصحيح والضبط عن المخصّص.

(٦) الحزوّر: الغلام الذي اشتد وقوى وخدم.

(٧) في الأصل: «حديثي» بالدال؛ وهو تحريف.

(٨) في الأصل: «الحدية»؛ وهو تحريف.

اللّيْل.

وقال شَقِيق البَلْخِيّ: العِبادَةُ حِرْفَة، وحانُوتُها الخَلْوَة، وآلَتُها الجوع.

قال لُقمان: إذا امتَلأَت المَعِدَةُ نامَت الفِكْرَة، وخَرِسَت الحِكْمة، وقَعَدت الأعضاءُ عن العبادة.

وقال عمر: لولا القِيَامَةُ لشارَكْناكم في لِينِ عَيْشِكُمْ.

وقال بعض العَرَب: أَقلِلْ طَعامَك تَحْمَدْ مَنامَك.

قال يحيى بنُ مُعاذ: الشِّبَعُ يُكْنَى بالكُفْر.

وقال غيرُه: الجُوعُ يُكْنَى بالرَّحْمَة.

وقال أعرابيٌّ:

تَحَيَّزُ مِنِّي خِيفَـــــةً أن أَضِيفَهـــــا كما انحازَتِ الأَفْعَى مَخَافَةَ ضَـــارِبِ

وذَكَرَ المهلَّب اللحْمَ [فقال] إذا الْتَقَى الواردُ والغابرُ فتوقَّع الفَساد.



الليلة الرابعة والثلاثون

وقال الوزيرُ في بعض الليالي: قد واللهِ ضاق[١] صَدْرِي بالغَيْظ لما يَبلُغني عن العامَّة من خَوْضِها في حديثنا، وذكرها أُمورَنا، وتتبُّعِها لأسرارِنا، وتنقيرها عن مَكْنُونِ أَحوالنا[٢]، ومكتومِ شأننا، وما أَدري ما أَصْنَعُ بها، وإنِّي لأهُمُّ في الوَقْت بعدَ الوَقْت بقَطْع أَلسنةٍ وأَيْدٍ وأَرْجُلٍ وتَنْكِيلٍ شديدٍ، لعلَّ ذلك يَطْرَحُ الهَيْبَةَ ويَحْسِم المادّةَ، ويَقْطَعُ هذه العادة، لَحاهُمُ الله، ما لهم لا يُقْبِلون على شُؤونهم المهمّة، ومَعايشهم النافعة، وفرائِضهم الواجبة؟ ولِمَ ينقِّبُون عمّا ليس لهم، ويُرْجِفُون بما لا يُجْدِي عليهم، ولو حَقّقُوا ما يَقُولون ما كان لهم فيه عائدةٌ ولا فائدة؛ وإني لأعجب من لَهَجِهِم[٣] وشَغَفِهِمْ بهذا الخُلُق حتّى كأنّه من الفرائض المحتومة، والوظائفِ الملزومة؛ وقد تكرَّر منّا الزَّجر، وشاعَ الوَعِيد، وفَشا الإنكارُ بين الصِّغار والكِبار، ولقد تَعايَا عليَّ هذا الأمرُ وأُغْلِق دُونِي بابُه، وتكاتَفَ عليَّ حِجابه، واللهُ المستعان.

فقلتُ: أَيُّها الوزير، عندي في هذا[٤] جوابان: أحدهما ما سمعتُ من شيخنا أبي سليمان، وهو مَنْ تَفوَّقَ في الفَضْلِ والحِكْمَة والتجربة ومحبَّةِ هذه الدولة[٥] والشَّفَقَةِ عليها من كل هَبَّة وَدَبَّة؛ والآخَرُ مما سمعتهُ من شيخ صوفِيٍّ، وللجَوابَيْنِ فائدتان عَظِيمتان، ولكن الجُمْلة خَشْناء، وفيها بعضُ الغِلظة، والحقّ مُرّ، ومن توَخَّى الحقَّ احْتَمَل مَرارَتَه.

قال: فاذْكُر الجَوابَيْن وإنْ كانا غَلِيظَيْن، فليس يُنْتَفع بالدَّواء إلَّا بالصَّبْرِ على بَشاعَتِه،

(١) في (أ): «فاض».

(٢) في (ب): «أخبارنا».

(٣) في (ب): «بحثهم».

(٤) في (ب): «لهذا».

(٥) في (أ): «هذه المقالة»؛ وهو خطأ من الناسخ.

وصُدُود الطَّبْع عن كَرَاهَتِه.

قلتُ: أمّا أبو سليمان، فإنه قال في هذه الأيام: ليس ينبغي لمَن كان الله عزّ وجلّ جَعَلَهُ سائسَ الناسِ: عامَّتِهم وخاصَّتِهم، وعالِمِهِمْ وَجَاهِلِهِم. وضَعِيفِهِم وَقَوِيِّهِمْ، ورَاجِحِهِم وشَائِلِهِم، أن يَضْجَرَ مما يَبْلُغُه عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة، منها: أَنَّ عَقْلَه فَوْق عُقُولِهِمْ، وحِلْمَهُ أَفْضَلُ من حُلُومِهِم، وصَبْرَه أَتَمُّ من صَبْرِهم؛ ومنها أَنَّهم إنما جُعِلُوا تحت قدرته، وَنيطوا بتَدبيره، واختُبِرُوا بتصْريفهم على أمْرِه ونَهْيِه، ليَقومَ بحقِّ الله تعالى فيهم، وَيَصْبِرَ على جَهْلِ جاهِلِهم، ويكونَ عمادُ حالِه معهم الرِّفْقَ بهم، والقيامَ بمصالِحِهم، ومنها أنّ العَلاقة التي بين السُّلطان وبين الرَّعِيَّة قويّة، لأنّها إلهيَّةٌ، وهي أَوْشَجُ من الرَّحِم التي تكُون بيْنَ الْوَالِدِ وَالوَلَد، والمَلِكُ وَالدٌ كبير، كما أنّ الوالدَ مَلِكٌ صَغِير، وما يجب على الوالد في سياسةِ وَلدِه من الرِّفْق به، والحُنُوِّ عليه، والرِّقَّة له، واجتلاب المنفعة إليه، أكثر ممَّا يَجب على الوَلد في طاعةِ والِدِه، وذلك أنّ الولد غِرٌّ، وقريبُ العَهْد بالكَوْن، وجاهلٌ بالحال، وعارٍ من التَّجربة، كذلك الرَّعيَّة الشبيهة بالوَلَد، وكذلك المَلِكُ الشبيه بالوالد؛ ومما يزيد هذا المعْنَى كَشْفًا؛ ويُكْسِبُه لُطْفًا، أنَّ المَلِكَ لا يكون مَلِكًا إلا بالرَّعيّة، كما أنّ الرَّعيّةَ لا تكون رعِيّةً إلا بالمَلِك، وهذَا من الأحوالِ المتضايِفة، والأسماء المُتَنَاصِفة؛ وبسبب هذه العَلاقة المُحْكَمَة والوُصْلَةِ الوَشِيجَة، ما لهِجَت العامّة بتعرّف حال سائِسها، والناظِرِ في أَمرِها، والمالِكِ لزمامها، حتى تكون علي بيانٍ من رَفاهَة عيشِها، وطِيب حَيَاتِهَا، ودُرُورِ مَوَرِدِهَا، بالأَمْنِ[1] الفاشي بَينها، والعدلِ الفائضِ عليها، والخيرِ المجلوبِ إليها، وهذا أمرٌ جارٍ على نظام الطبيعة، ومندوبٌ إليه أيضًا في أحكام الشريعة.

قال: ولو قالت الرَّعيّة لسُلْطانها: لم لا نَخوضُ في حَدِيثك، ولا نَبْحَث عن غَيْبِ أمرِك، ولِم لا نَسْأَل عن دِينِك ونِحْلَتِكَ وعادَتِكَ وسِيرتِك؟ ولم لا نَقِفُ على حقيقة حالِك في لَيْلِك ونَهَارِك، ومَصالِحُنَا متعلِّقَةٌ بك، وخَيْراتُنا متوقَّعةٌ من جِهَتِك، ومَسَرَّتُنا

(١) في كلتا النسختين: «بالأمر»؛ وهو تحريف.

مَلْحُوظةٌ[1] بتَدْبيرك، ومَساءَتُنا مَصْرُوفة باهتمامِك، وتَظَلُّمُنا مَرْفُوعٌ بِعزِّك، ورفاهِيَتُنا حاصلةٌ بحُسْنِ نَظَرِك وجميل اعتقادِك، وشَائع رَحْمَتِك، وبَلِيغ اجْتهادِك، ما كان جوابُ سلطانِها وسائسِها؟ أما كان عليه أن يَعْلَمَ أنّ الرَّعِيَّةَ مُصِيبةٌ في دَعْوَاها الَّتي بها استطالَت، بلَى والله، الحقُّ مُعْتَرَفٌ به وإنْ شَغَب الشاغب، وأعْنَتَ المُعْنِت.

قال: ولو قالت الرَّعية أيضًا: ولِمَ لا تَبْحثُ عن أمْرِكَ؟ وَلِمَ لا تَسْمع كلَّ غَثٍّ وسَمين منّا! وقد مَلَكْتَ نواصِيَنا، وسَكَنْتَ دِيارَنا، وصَادرْتَنَا على[2] أَمْوَالنا، وحُلْت بيننا وبين ضِيَاعِنا، وقاسَمْتَنَا مَوَارِيثَنا، وأَنْسَيْتَنَا رَفَاغَةَ[3] العَيْشِ، وطِيبَ الحياة، وطُمَأْنِينَةَ القلب، فطُرُقنا مَخُوفَة، ومَساكِنُنا مَنْزُولة[4]، وضياعُنا مُقْطَعة، ونِعَمُنا مَسْلُوبة، وحَرِيمُنا مُسْتَباح، ونَقْدُنا زائف، وخَراجُنا مُضاعَف، ومُعامَلُتنا سيّئة، وجُنْدِيُّنا مُتَغَطْرِس، وشُرَطِيُّنا مُنْحَرِف، ومَساجِدُنا خَرِبَة، ووُفوفُها مُنْتَهَبَة، ومارِسْتاناتُنا خاوِيَة، وأَعْداؤنا مُسْتَكْلِبة، وعُيونُنا سَخِينَة، وصُدُورُنا مَغِيظة، [وَبَلِيَّتُنا مُتَّصِلَة]، وفَرَحُنا مَعْدُوم؛ ما كان الجوابُ أيضًا عمّا قالت وعمّا لم تَقُلْ، هَيْبَةً لك، وخَوْفًا على أَنْفُسِها مِن سَطْوَتِك وصَوْلَتِك؟

وحَكى لنا في عَرْض هذا الكلامِ أنّهُ رُفِعَ إلى الخليفةِ المُعْتَضِد أنَّ طائفةً من النّاس يَجْتَمِعُون [بباب الطاقِ ويجلسون] في دُكّانِ شيخ تَبَّان، ويَخُوضُون في الفُضُول والأَرَاجِيف وفنونٍ من الأحاديث، وفيهم قَوْمٌ سَراة وتُنَّاء[5] وأَهْلُ بُيوتاتٍ سِوَى من يَسْتَرِق السَّمْعَ مِنْهُم مِن خاصّة الناس، وقد تَفَاقَمَ فَسَادُهُمْ وإفْسَادُهُمْ، فلمَّا عَرَف الخليفةُ ذلك ضاق ذرعًا، وحَرِج صَدْرًا، وامتلأ غَيْظًا، ودَعَا بعُبَيْد الله بن سُلَيْمانَ، ورَمَى بالرَّفيعة[6] إليه، وقال: انْظُرْ فيها وتَفَهَّمْها. ففعل، وشاهَدَ مِنْ تربُّدِ[7] وَجْهِ المُعْتضدِ ما أَزْعَجَ ساكنَ

(١) في (ب): «ملعقة»؛ وهو تحريف.

(٢) في (أ): «عن أموالنا».

(٣) في (ب): «رفاعة» بالعين المهملة؛ وهو تصحيف؛ ورفاغة العيش: خفضه ولينه.

(٤) في (ب): «ومنازلنا مسكونة».

(٥) التناء: الدهاقين والرؤساء.

(٦) الرفيعة: الرقعة المرفوعة.

(٧) في كلتا النسختين: «من يريد»؛ وهو تصحيف.

صَدْره، وشَرَّدَ آلفَ صَبْره، وقال: قد فَهِمْتُ يا أَميرَ المُؤمِنِينَ. قال: فما الدَّواء؟ قال: تَتَقَدَّمُ بأَخْذهِمْ وصَلْبِ بَعْضِهِمْ وإحْرَاقِ بَعْضِهِمْ وتَفْرِيق بَعْضِهِمْ، فإنّ العُقوبة إذا اختَلَفَتْ، كان الهَوْلُ أَشَدَّ، والهيْبَةُ أَفْشا، والزَّجْرُ أَنْجَع، والعامَّةُ أَخْوَف. فقال المُعْتضِدُ - وكان أعقل من الوزير -: والله لقد بَرَّدْتَ لهيبَ غَضَبي[1] بفَوْرَتِك هذه، وَنَقَلْتَني على اللّين بَعْدَ الغِلْظَة، وَحَطَطْتَ عَلَيَّ الرِّفْقَ، مِنْ حيْثُ أشَرْتَ بالخُرْق، وما عَلِمْتُ أنَّكَ تَسْتَجيزُ هذا في دِينِكَ وَهَدْيِكَ وَمُرُوءَتِكَ، وَلَوْ أَمَرْتُكَ ببعض ما رأيتَ بعَقْلِكَ وَحَزْمِكَ لَكانَ من حُسْنِ المُؤَازَرَةِ ومَبْذُولِ النَّصِيحَةِ والنَّظَرِ للرَّعِيَّةِ الضَّعيفَةِ الجاهِلَةِ أن تَسْأَلَني[2] الكَفَّ عن الجَهْل، وَتَبْعَثَنِي على الحِلْم، وَتُحَبِّبَ إِليَّ الصَّفْحَ وتُرَغِّبَنِي في فَضْلِ الإغْضاء على هذه الأشْياء. وقد ساءَنِي جَهْلُكَ بحُدُودِ العقاب وبما تُقابَلُ به هذه الجرائر، وبما يكون كُفْأً للذُّنوب، ولقد عَصَيْتَ اللهَ بهذا الرَّأي ودلَلْتَ على قَسْوَةِ القَلْبِ وقِلّةِ الرَّحْمة ويُبْسِ الطِّينة ورقَّة الدّيانة، أما تَعْلَمُ أَن الرَّعيّةَ وَدِيعَةُ الله عند سُلْطانِها؟ وأَنَّ اللهَ يُسائِلُه عنها كيفَ سُسْتَها؟ ولعلّه لا يَسْأَلها عنه، وإن سَأَلها فلِيُؤَكِّد الحُجَّة عليه منها؛ ألا تَدْري أَنَّ أحدًا مِنَ الرَّعِيَّةِ لا يَقُول ما يَقُول إلَّا لظُلمٍ لَحِقَه أو لَحِقَ جارَه[3]، وداهيةٍ نالَتْه أو نالتْ صاحِبًا له؟ وكيف نقول لهم: كونوا صالحين أتْقِياء مُقْبلين على مَعايشكم، غيرَ خائِضين في حدِيثِنا، ولا سائِلين عن أَمْرِنا، والعرب تقول في كلامها: غَلَبنا السلطانُ فَلَبِسَ فَرْوَتَنا، وأَكَلَ خُضْرَتَنا، وحَنَقُ المَمْلُوك على المالِكِ مَعْروف، وإنما يُحْتَمَلُ السَّيِّد على صُرُوف تكاليفه، ومَكارِهِ تَصَارِيفه، إذا كان العيش في كَنَفِه رافِغًا، والأَمَلُ فيه قَوِيًّا، والصَّدْرُ عليه بارِدًا، والقَلْبُ معه سَاكنا، أتظنُّ أن العَمَل بالجهْلِ يَنْفَع، والعُذْرَ بهِ يَسَع، لا واللهِ ما الرأيُ ما رَأَيت، ولا الصّوابُ ما ذَكَرْت، وَجِّهْ صَاحِبَكَ وليَكُنْ ذا خِبْرَةٍ ورفق، ومعروفًا بخَيْرٍ وصِدْق، حتّى يَعْرِفَ حالَ هذه الطائفة، ويَقِفَ على شَأنِ كل واحدٍ منهَا في مَعاشِه، وقَدْرِ ما هو مُتَقَلِّبٌ فيه ومُنقَلِبٌ إليه، فمنْ كان مِنْهُمْ يَصْلُحُ للعَمَل فعَلِّقْه به، ومن كان سَيِّئ الحالِ فصِلْهُ من

(١) في (ب): «لهيب غيظي بقسوتك»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٢) في (أ): «على»، ولم يظهر منها في (ب) إلا نون وياء، وسائرها مطموس.

(٣) في كلتا النسختين: «دارة» بالدال؛ وهو تحريف.

بَيْت المال بما يُعِيدُ نَضْرَةَ حاله، ويُفِيدُه طُمَأْنِينَةَ باله؛ ومَن لم يَكُنْ مِنْ هذا الرَّهطِ، وهو غَنِيٌّ مكْفِيٌّ، وإنما يُخرجه إلى دكّان هذا التَّبّان البَطَرُ والزهو، فادْعُ به، وانصَحْه، ولاطِفْه، وقل له: إنَّ لَفْظَك مَسْمُوع، وكلامَكَ مَرْفُوع؛ ومَتَى وَقَفَ أَميرُ المؤمِنِين على كُنْه ذلِكَ منكَ لم تَجِدْكَ إلا في عَرْصَةِ المقابر، فاستأنِفْ لنَفسِك سِيرَةً تَسْلُم بها مِنْ[1] سُلْطَانكَ، وتُحْمَدُ عليها عند إخوانِك، وإيَّاكَ أن تَجْعَلَ نَفْسَكَ عِظَةً لِغَيْرِكَ بَعْدَ مَا كان غَيْرُكَ عِظَةً لك؛ ولولا أنَّ الأخْذَ بالجَرِيرَة الأولى مخالِفٌ للسِّيرة المثْلَى، لكان هذا الّذي تَسْمَعهُ ما تراه، وما تراه تَوَدُّ أنك لو سَمِعْتَه قَبْلَ أَنْ تَرَاه. فإنَّكَ يا عُبيْدَ الله إذا فَعَلْتَ ذلك فقد بالَغْتَ في العُقُوبة، ومَلَكْتَ طَرَفي المَصْلَحة، وقُمتَ على سَواءِ السِّياسة، ونَجَوْتَ مِن الحَوْبِ والمَأْثَم في العاقِبة.

قال: وفارَقَ الوزيرُ حَضْرَةَ [الخليفة]، وعملَ بما أُمِرَ به على الوَجْهِ اللَّطيف، فعادت الحالُ ترِفّ بالسَّلامة العامَّة، والعافِيَة التامّة؛ فتقَدَّمَ إلى الشّيخ التَّبَّانُ برَفع حال من يَقْعُدُ عندَه حتّى يواسَى إن كان مُحتاجًا، ويُصَرَّفَ إن كان متعطِّلًا، ويُنْصَحَ إن كان متعقِّلًا.

فقال الوزير: ما سَمِعْتُ مِثْلَ هذا قطّ، وما ظَنَنْتُ أن الخَطْبَ في مِثْلِ هذا يَبْلُغُ هذا القَدْر؛ فهاتِ الجوابَ الآخَرَ الّذي حَفِظْتَه عن الصُّوفيّ. فقلتُ: إنْ كان هذا كافِيًا فإنّ ذَلك فَضْل.

فقال: هكذا هو، وإنَّ فيما مَرَّ لَكِفاية، وما يَزِيد على الكِفاية، ولكنّ الزّيَادَةَ من العِلم داعِيَةٌ إلى الزيادةِ من العَمَل، والزِّيادَةَ من العَمَلِ جالِبَةُ الانتفاع بالعِلم، والانتفاعَ بالعِلم دَليلٌ على سَعادَةِ الإنسان، وسعادةَ الإنسان مَقْسومةٌ على اقتباس العِلْم والتماسِ العمل، حتَّى يكون بأحدِهما زارعًا، وبالآخر حاصدًا، وبأحدهما تاجرًا، وبالآخَرِ رابحًا.

فَوَصَلتُ الحديثَ وَقلتُ: حَدَّثَني شيخ من الصُّوفيّة في هذه الأيّام قال: كنتُ بنَيْسَابُور سنةَ سبعين وثلاثمائة، وقد اشْتَعَلَتْ خُراسانُ بالفِتْنة، وتَبَلْبَلَتْ دَوْلَة آل سامان بالجور

(١) في (أ): «على» مكان «من»؛ وهو خطأ من الناسخ.

وطول المُدَّة، فَلَجَأ محمدُ بنُ إبراهيم صَاحِبُ الجيش إلى قايين[1]، وهي حِصْنُه ومَعْقِلُه، وَورَدَ أبو العبّاس صاحبُ جَيش [آل] سامانَ نَيْسَابور بِعِدَّةٍ عظِيمة، وعُدَّةٍ عَمِيمة، وزينَةٍ فاخِرة، وهيئةٍ باهِرَة، وغَلاَ السِّعْرُ، وأُخِيفَت السُّبُل، وكَثُرَ الإرْجاف، وساءتِ الظُّنون، وضَجَّت العامَّة، والتَبَسَ الرأي، وانْقَطَعَ الأمَل، ونَبَحَ كلْبٌ كلِبٌ من كلِّ زاوِية، وزَأَرَ كلُّ أَسَدٍ من كلّ أَجَمَة، وضَبَحَ كلُّ ثَعْلَبٍ مِنْ كلِّ تَلْعَة.

قال: وكُنَّا جماعةً غُرَباءَ نأوي إلى دُوَيْرَة[2] الصُّوفيّة لا نَبْرَحُها، فتارةً نَقْرَأ، وتارةً نُصَلِّي، وتارةً ننامُ، وتارةً نَهْذِي، والجُوعُ يَعْمَلُ عَمَلَه، ونخُوضُ في حديثِ آل سامان، والواردِ مِنْ جِهَتِهم إلى هذا المَكان، ولا قُدْرَةَ لَنَا على السِّيَاحَةِ لانْسِدَادِ الطّرُق، وتَخَطّفِ الناسِ للناس، وشُمُول الخَوْف، وغَلَبةِ الرُّعْب، وكان البلدُ يَتّقِدُ نارًا بالسُّؤَال والتَّعَرُّفِ والإرْجاف بالصِّدْقِ والكَذِب، وما يُقَالُ بالهَوى والعَصَبيّة؛ فضاقَتْ صُدُورُنا، وخَبُثَتْ سَرَائرنا[3] واسْتَوْلَى عَليْنا الوَسْوَاس، وقلنا ليلةً: ما تَرَوْنَ يا صِحابَنا[4] [ما] دُفِعْنا إليه مِنْ هذِه الأَحوالِ الكريهة، كأَنَّا واللهِ أصحَابُ نَعَم وأرْبابُ ضِيَاعٍ نخافُ عليها الغارَةَ والنّهْب، وما عَلَينا من ولايةِ زَيْدٍ، وَعزْلِ عَمْرو، وهلاكِ بَكْرٍ، ونَجَاة بِشْر، نحنُ قوم قد رَضينا في هذه الدنيا العَسِيرة، ولهذه الحيَاة القصِيرة، بكِسْرَةٍ يابِسَة، وخِرْقَةٍ باليَة، وزاويةٍ مِنَ المَسْجِد مع العافِيَةِ مِن بَلايَا طُلّابِ الدُّنيا: فما هذا [الذي] يَعْتَرينا من هذه الأَحاديث التي ليس لنا فيها ناقةٌ ولا جَمَل، ولا حَظٌّ ولا أَمَل، قُومُوا بنا غدًا حتى نزور أبا زكريّاء الزاهد، ونَظَلَّ نهارَنا عندَه لاهِين عما نحْنُ فيه، ساكِنين معه، مُقتَدين به؛ فاتّفَقَ رأْيُنا على ذلك، فَغَدَوْنا[5] وصِرْنا إلى أبي زكرياء الزَّاهد، فلما دَخَلنا رَحَّبَ بنا، وفَرِحَ بزيارَتنا،

(١) قايين: بلد قريب من طبس، بين نيسابور وأصبهان، وهي فرضة خراسان.

(٢) في نسخة «وترة» مكان «دويرة». والوترة: ما وتر بالأعمدة من البيوت.

(٣) في (ب): «أنفسنا».

(٤) في كلتا النسختين: «بأصحابنا دفعنا»؛ وفي (ب) بين قوله «بأصحابنا» وقوله «دفعنا» فراغ يسع كلمة؛ ولعل صواب العبارة ما أثبتنا إذ هو مقتضى السياق.

(٥) في (ب): «فسرنا» مكان قوله «فغدونا».

وقال: ما أَشْوَقني إليكم[1]، وما أَلهَفَني[2] عليكم! الحمد لله الذي جَمَعَني وإياكم في مَقَامٍ واحد، حَدِّثوني ما الذي سمِعْتم، وماذَا بلَغكم من حديث الناسِ، وأمْر هؤلاءِ السَّلاطين؟ فرِّجُوا عنّي؛ وقولوا لي ما عِنْدَكم، فلا تكتموني شيْئًا فما لِي والله مَرْعًى في هذه الأَيَّام إلَّا ما اتصل بحدِيثهم، واقْتَرَنَ بخبَرِهم، فلما ورد عَلَيْنا من هذا الزَّاهِد العابِد ما وَرَدَ، دُهِشْنا واستوْحَشْنا، وقلنا في أنفسنا: انظروا من أي شيء هرَبْنا[3]، وبأيِّ شيءٍ عَلِقْنا، وبأيّ دَاهِيَةٍ دُهِينا. قال: فَخَفَّفْنا الحديثَ وانْسَللْنا، فلمّا خَرَجْنا قلنا: أرأيتم ما بُلينا به، وما وقعنا عليه؟ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠٦]. مِيلوا بنا إلى أبي عمْرو الزَّاهد، فله فَضْلٌ وعِبادة وعِلْمٌ وتَفَرُّدٌ في صَوْمَعَتِه حتى نُقِيم عندَهُ إلى آخر النّهار، فقد نبا بنا المكانُ الأَوّل، وبَطَلَ قَصْدُنا فيما عزَمْنا عليه من العَمَل، فمشينا إلى أبي عَمْرٍو الزَّاهِد واسْتَأْذَنّا، فأَذِنَ لنا، ووَصَلْنا إليه فَسُرَّ بحُضُورنا، وهَش لرُؤْيَتِنا، وابْتَهَجَ بقَصْدِنا، وأَعْظَمَ زِيارتَنَا، ثم قال: يا أصحابَنا، ما عِنْدَكم مِنْ حَدِيث الناس؟ فقدْ والله طالَ عَطَشِي إلى شيءٍ أَسْمَعُه، ولم يَدْخُلْ عليَّ اليَوْمَ أَحَدٌ فأَسْتَخْبِرَه، وإنَّ أُذُنِي لدَى الباب لِأَسْمعَ قَرْعَة أو أَعرِفَ حادثة، فهاتوا ما مَعَكم وما عنْدَكم، وقُصُّوا عليَّ القِصَّة بفَصِّها ونصِّها، ودَعُوا التَّوْرِيَة والكِنَاية، واذْكُروا الغَثَّ والثمين، فإنَّ الحَديث هَكذا يَطِيب، ولولا العَظْمُ ما طابَ اللَّحْم، ولَوْلا النَّوَى ما حَلا التَّمْر، ولَوْلا القِشْرُ لمْ يوجَدِ اللُّب، فعَجِبْنَا مِنْ هذا الزَّاهد الثاني أكْثَرَ من عَجَبِنَا من الزَّاهِد الأَوَّل، وخاطَفْنَاه الحَدِيث، ووَدَّعْناه، وخَرَجْنَا، وأَقْبَلَ بَعْضُنَا عَلَى بعضٍ يَقول: أَرَأَيتم أَظْرَفَ من أمْرنا وأَغْرَبَ من شَأْنِنا؟ انْظُروا من أيِّ شيء كانَ تَعْرِيجُنا ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] وتلَدَّدنا وتبَلّدْنا وقلنا: يا أصحابنا، انطلقوا إلى أبي الحَسَن الضرير، وإن كان مَضْرِبُه[4] بعيدًا فإنَّا لا نجد سكونَنا إلَّا معه، ولا نَظْفَر بضالَّتِنَا إلَّا عنْدَه، لزُهْدِه وعِبادَته وتوحُّدِه وشُغْلِه بنفْسِه مَع زَمانتِه في بَصَرِه، ووَرَعِه، وقِلّة

(١) في (ب): «إلى زيارتكم».

(٢) في (ب): «والهفي».

(٣) ورد في (أ) من هذه الكلمة باء ونون بعدهما ألف. وفي (ب) لم يظهر منها إلا هاء ونون وألف؛ والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٤) يريد بمضربه بيته، مستعار من مضرب الخيام.

فِكْرِه في الدنيا وأَهْلِهَا؛ وطوَينا الأرضَ إليه، ودخَلْنَا عليه، وجَلَسْنا حَوَالَيْه في مَسْجدِه، ولمّا سمع بنا أقبل على كلّ واحد منّا يَلْمَسُه بيَده ويُرَحِّب به، ويدْعُو له ويقرِّب، فلمّا انتَهى أقبلَ علينا[وقال]: أَمن السماء نزلتم عليّ؟ والله لَكَأَنِّي قد وجدت بكُمْ مَأمُولي، وأحْرَزْتُ غاية سُولي، قولوا لِي غيرَ مُحْتَشين: ما عِنْدكم من أحادِيثِ النّاس؟ وما عَزمَ [عليه] هذا الوارد؟ وما يقال في أمرِ ذلك الهاربِ إلى قايين، وما الشائع من الأَخْبَار؟ وما الذي يَتهامَسُ به ناس دونَ ناس؟ وما يَقَعُ في هَواجِسِكُم ويَسْتَبِقُ إلى نفوسِكُم[١]؟ فإنَّكُم بُرُدُ الآفاق، وجَوَّالة الأرض، ولَقَّاطَةُ الكلام، ويَتساقَطُ إليكم من الأقطارِ ما يتعذَّرُ على عظماء الملوك وكُبَراء الناس. فَوَرَد علينا من هذا الإنسَان ما أَنْسَى الأوَّل والثاني، ومما زادَ في عَجَبنا أنّا كنا نَعُدُّه في طبقةٍ فوْقَ طَبقات جميع النّاس. فَخَفَّفْنا الحديث مَعَه، وَوَدَّعْناه، وخَنَسْنَا من عِنْده، وطفِقنا نَتَلاوَمُ عَلَى زيارتنا لهؤلاء القَوْم لما رَأينا منهم، وظهر لنا من حالهم، وازْدَرَيْناهم، وانْقَلَبْنا متوجِّهين إلى دُوَيْرَتِنا التي غَدَوْنا منها مُسْتَطْرِقين كالِّين، فلقينا في الطريق شيخًا من الحُكماءِ يقال له أبو الحسن العامريّ، وله كتابٌ في التصوُّف قد شَحَنَه بِعِلْمِنا وإشارَتنا، وكان من الجَوّالين الَّذين نَقَّبُوا في البلَاد واطَّلَعوا على أسرار اللهِ في العِبَاد؛ فقال لنا: من أَيْنَ دَرَجْتُم؛ ومَن قَصَدتُم؟ فأَجْلسْنَاه في مَسْجِد، وعَصَبْنا حَوْلَه، وقصصْنا عليه قِصَّتَنا من أوّلِهَا إلى آخرِها، ولم نَحْذِف منها حرْفًا. فقال لنا: في طيِّ هذه الحال الطارئةِ غَيْبٌ لا تَقِفُون عليه، وسِرٌّ لا تَهتدُون إليه، وإنما غَرَّكُم ظَنُّكم بالزهّادِ، وقلتم لا يَنْبَغي أن يكون الخَبَرُ [عنهم كَالخبر] عن العامَّةِ؛ لأنهم الخاصَّة، ومن الخاصَّة خاصةُ الخاصة، لأَنَّهم بالله يَلُوذُون، وإيّاه يَعْبُدُون، وعليه يَتوكَّلون، وإليه يَرْجِعُون، ومن أَجْلِه يَتَهالَكون، وبه يَتَمَالَكُون.

قلنَا له: فإنْ رأيتَ يا مُعَلِّمَ الخيرِ أنْ تَكْشِفَ عَنّا هذا الغِطاء، وتَرْفَعَ هذا السِّتْر، وتعرِّفَنا منه ما وَهَبَ اللهُ لكَ مِنْ هذا الغَيب، لنكون شاكرين، وتكونَ من المَشْكُورِين. فقال: نَعَم، أَمَّا العامَّةُ فإنَّها تَلْهَجُ بحديثِ كُبَرائِها وساسَتِها لما تَرْجُو من رَخَاء العَيْشِ وطِيبِ الحياةِ

(١) في (ب): «إلى قلوبكم»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

وسَعَةِ المال ودُرُورِ المَنافِع واتصال الجَلَب ونَفَاق السُّوق وتَضاعُف الرِّبْح؛ فأما هذه الطائِفةُ العارِفَةُ بالله، العامِلةُ لِله، فإنها مُولَعةٌ أيضًا بحَديث الأمراء، والجَبَابرةِ العظماء، لِتَقِف على تَصارِيفِ قُدْرَة الله فيهم، وجَرَيانِ أَحْكامِه عَلَيْهم، ونُفُوذِ مَشِيئَته في مَحَابِّهم ومَكارِهِهِم في حالِ النِّعْمةِ[١] عليهم، والانتِقام منهم، ألا تَرَوْنَه قال جَلَّ ثَناؤه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وبهذا الاعتبار يَسْتَنْبطُون خَوَافِي حِكمَتِه، ويَطَّلعُون على تَتابُع نِعْمَتِه وغَرَائِبِ نِقمتِه، وها هنا يَعلَمُون أَنَّ كلَّ مُلْكٍ سِوَى مُلْكِ الله زائِل، وكلَّ نعيم غيرَ نعيم الجنّةِ حائل، ويَصيرُ هذا كلُّه سببًا قويًّا لهم في الضَّرَعِ إلى اللهِ، واللِّياذ بالله، والخشُوعَ لله، والتوكُّل على الله، ويَنْبَعِثون به من حِرانِ الإباء، إلى انقِيادِ الإجابة، وَيَتَنَبَّهون من رَقْدَة الغَفلة، ويَكْتَحِلون باليَقَظَة من سِنَة السَّهْو والبَطالَة، ويَجِدُّون في أَخْذِ العَتاد، واكتِساب الزاد إلى المعاد، ويعملون في الخلاص من هذا المكانِ الحَرِجِ بالمكارِه، المحفوف بالرَّزايا، الّذى لم يُفْلِحْ فيه أَحَدٌ إلَّا بعد أنْ هَدَّمَه وثَلمَه، وهَرَبَ منه، وَرَحَلَ عنه إلى محلٍّ لا دَاءَ فيه ولا غائِلَة؛ ساكنُهُ خالد، ومقيمُهُ مُطْمَئِنّ، والفائزُ به منعَّم، والواصِلُ إليه مكرَّم، وبينَ الخاصّة والعامَّة في هذهِ الحال وفي غيرها فَرْق يَضِحُ لمن رَفَعَ اللهُ طَرْفه إليه، وفَتَح بابَ السِّرِّ فيه عليه، وقد يَتَشَابه الرَّجُلان في فِعل، وأحدُهما مَذْمُوم، والآخَرُ محمود، وقد رأَيْنَا مُصَلِّيًا إلى القِبْلَة وقلْبُه مُعَلَّق بإخلاص العِبَادة، وآخرَ إلى جانبه أيضًا يصلّي إلى القبلة وقلْبُه في طَرِّ[٢] ما في كُمِّ الآخَر، فلا تَنْظُروا من كلِّ شيءٍ إلى ظاهِره إلَّا بعدَ أنْ تَصِلُوا بنَظَركم إلى باطنه، فإنَّ الباطن إذا وَاطَأ الظاهر كان توحُّدًا، وإذا خالفَه إلى الحقّ كانَ وَحْدَةً، وَإذا خالَفَه إلى الباطلِ كان ضلالةً، وهذه المقامات مُرَتَّبَةٌ لأَصْحَابِها، ومَوْقوتَةٌ على أَرْبابها؛ ليس لغَيْر أَهْلِها فيها نَفَسٌ، ولا لغيرِ مُسْتَحِقِّها منها قَبَس.

قال الشيخ الصوفيّ: فوالله ما زالَ ذلك الحكيم يَحْشو آذانَنا بهذه وما أَشْبَهَها، وَيَمْلأ

---

(١) في كلتا النسختين: «النقمة»؛ وهو تحريف.

(٢) الطر: الاستلال.

صدورنا بما عنْده حتى سُررْنَا[1] وَانصرفنا إلى مُتَعشَّانا وقد استفدنا على يَأْسٍ منَّا فائدةً عظيمة لو تمَنَّيْنَاها بالغُرْم الثَّقيل والسَّعي الطويل لكان الرِّبْحُ مَعنا، والزيادةُ في أَيْدِينا.

فلما سمع الوزيرُ هذا عَجبَ وقال: لا أدري: أكلامُ أبي سُليمانَ في ذلك الاحتجاج أَبْلَغ، أَم الحِكايةُ عن المُعْتَضِد أَشْفَى، أم رواية الشيخ الصوفيِّ أطرَف، وما عَلمتُ أَنَّ في البَحْث عن سِرِّ الإرْجاف هذه اللَّطيفةَ الخفيّة، وهذه الحجَّةَ الجليَّة، وكُنتُ أَرى أنَّ الصُّوفيَّة لا يَرْجعُون إلى رُكْنٍ مِنَ العِلم، ونَصِيبٍ من الحِكمة، وأنهم إنما يَهْذُون بما لا يَعلمون، وأنّ بناءَ أمرهم على اللَّعِبِ واللَّهْوِ والمجون.

فقلتُ: لو جُمِعَ كلامُ أئمّتهم وأعلامِهِم لزادَ على عَشرَة آلاف وَرَقَة عَمَّنْ نَقف[2] عليه في هذه البِقاعِ المتقارِبة، سِوَى ما عند قومٍ آخَرين لا نَسْمَع بهم، ولا يبلُغنا خَبَرُهم. قال: فاذكر لي جماعةً منهم. قلتُ: الجُنَيْد بن محمد الصوفيُّ البغداديُّ العالِم، والحارثُ بنُ أَسَد المُحاسِبيّ، ورُوَيْم، وأبو سعيد الخرَّاز، وعمرو بنُ عثمان المكِّيّ، وأبو يزيد البِسْطاميّ، والفَتْحُ المَوْصِليّ، وهو الّذي سُمِعَ وهو يقول: إلى مَتَى تُرَدِّدُني في سِكك المَوْصل، أما آنَ للحَبِيبِ أنْ يَلْقَى حَبيبَه؟ فماتَ بعد جُمُعة.

فقال: هذا عَجَب. ولقد مَرَّ في هذا الفَنِّ ما كان فَوْق حُسْباني وأكثرُ ممّا كان[3] في ظَنّي، وكم مِنْ شيءٍ حَقيرٍ يُطَّلَعُ منه على أَمْرٍ كبير.

وقال: أَنْشِدْني شَيْئًا؛ فأَنْشَدْتُه قول الشاعر:

رَجَعْتُ عَلَى السّفيهِ بِفَضْلِ حِلْمي ... وكان تَحَلُّمي عَنْهُ لِجَامَا

وظَنَّ بيَ السَّفاهَ فَلم يَجِدْني ... أُسافِهُهُ وقلت لَه: سَلامَا

فقامَ يَجُرُّ رِجْلَيْه ذَليلًا ... وقد كَسَبَ المَذَلّةَ والمَلامَا

وفَضْلُ الحِلمِ أَبْلَغُ في سَفيهٍ ... وأَحْرَى أَنْ ينَال بهِ انتقاما

(١) في كلتا النسختين: «سددنا».

(٢) عمن نقف، أي مروية عمن نقف، وفي كلتا النسختين على ما تقف، وقوله على هنا لا مقتضى له.

(٣) في (ب): «وأكثر مما دار في خلدي»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

فقال: ما أعجبَ أمْرَ العَرَب، تأمُرُ بالحِلم مَرَّةً، والصَّبْر والكظْم مرَّة، وتَحُثُّ بعد ذلك على الانتصاف وأخذ الثأر، وتَذُمُّ السَّفَه وقَمْعَ العَدُوّ! وهكذا شأنُها في جَميع الأخلاق؛ أعني أنّها رُبّما حَضَّتْ على القَناعَةِ والصَّبْر والرِّضا بالمَيْسُور، ورُبّما خالَفَتْ هذا، فَأَخَذت تَذْكُرُ أنّ ذلك فَسَالَةٌ ونُقْصَان هِمَّةٍ ولِينُ عَرِيكةٍ ومَهانَةُ نَفس؛ وكذلك أيضًا تحثُّ على البَسَالة[1] والإقْدام والانتصار والحَمِيّة والجسَارَة؛ وربّما عَدَلتْ[2] إلى أضْدادِ هذه الأخـلَاق والسَّجايَـا والضَّرائب والأحوال؛ في أوْقَاتٍ يَحسُنُ فيها بَعْضُها، ويَقْبُحُ بَعْضُها، ويُعذَرُ صاحبُها في بَعْضِها، ويُلامُ في بَعْضها؛ وذلك لأنَّ الطبائعَ مُخْتَلفَة، والغَرائزَ[3] متعادية، فهذا يَمْدَحُ البُخْلَ في عُرْضِ الحَزْم، وهذا يَحْمَدُ[4] الاقتصادَ في جُمْلة الاحتِياط، وهذا يَذُمُّ الشَّجَاعة في عُرْض طَلب السَّلاَمَة؛ وليسَ في جميع الأخلاق شيءٌ يَحْسُن في كلّ زَمانٍ وفي كلّ مَكانٍ، ومَعَ كلِّ إنسان، بل لكلّ ذلك وَقْتٌ وحِينٌ وأَوان.

قال: وَلعَمْري إنَّ القِيامَ بحَقائق هذِهِ الأشياء وحدُودِها صَعْبٌ، لأنَّها لا توجد إلَّا مُتَلابِسةً ومُتَداخِلَة، وتَخْليصُ كلِّ واحدٍ منها بحَدّه وَحقيقَته ووَزْنِه مِمّا يَفُوت ذَرْعَ الإنسان الضعيفِ المُنّة، المنْتشِر الطِّينَة.

قال: ومنه أنَّ الحكيم قال للإسكندر: «أيها الملك أَرِدْ حيَاتَكَ لرجالِك، ولا تُرِدْ رِجالَكَ لحَيَاتك»؛ ولو قلب عليه قـالبٌ فقـال: لا، «ولكن أَرِدْ رِجالكَ لحيَاتِك، ولا تُرِدْ حياتَك لرجالك»، لَكان الفَضْلُ واقِعًا، والدَّعْوَى قائمة.

وكان يُحْكَى عن أعرابيٍّ حديثٌ مُضْحِكٌ. قيل لأعرابيّ: أَتريدُ أنْ تُصْلب في مَصْلَحة الأمّة؟ فقال: لا، ولكني أُحِبُّ[5] أن تُصْلَبُ الأمّةُ في مَصْلَحتي.

قال: وليس يَجُوز أن يكون الناسُ مُخْتَلِفين في ظاهِرِهِم بالصُّوَرِ والحُلى حتى يُعْرَف

(١) في (أ): «الفشالة»؛ وفي (ب): الغسالة؛ وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٢) في (ب): «عمدت».

(٣) في (أ): «وافرائن»؛ وهو تحريف.

(٤) في (أ): «يمدح»؛ وهو تكرار مع ما سبق.

(٥) في (ب): «أريد».

بها زَيْدٌ من عَمْرو، وبَكْرٌ مِنْ خالد، ولا يَخْتلِقُون في باطِنِهم حتى يكونَ هذا مَطْبُوعًا على الشحِّ وإن مَدَحَ الجُود، وهذا مَجْبُولًا على الجُبْن وإنْ تَشَيَّعَ للشجاعة؛ وليس يَجُوزُ في الحِكمة أَنْ يَكْثُرُوا ولا يَخْتَلفُوا[1]، وليس يَجُوزُ أيضًا أن يُضَمّ الجِنْسُ والنّوْعُ ولا يَأْتَلِفُوا؛ وكلُّ ما أَساغَتْه الحِكْمَةُ أَبْرَزَتْه القُدْرَة، وكلُّ ما جادَتْ به القُدْرَةُ شَهِدَت له الحِكمة؛ فسبحانَ مَنْ لَهُ هذا التَّدْبِيرُ اللَّطيف، وهذا العِزُّ الغالِب، وهذا السِّرّ الخافِي، وهذه العَلانِيَةُ البادِية، وهذا الفِعْلُ المُحْكَم، وهذا النَّعْتُ المُسْتَعْظَم.

وحَكيتُ أيضًا في شيءٍ جَرَى، قالَ حكماءُ فارس: قد جَرَّبْنَا المُلوك، فإذا مَلَكَنا السَّمْحُ الجوَادُ جادَت عَلَيْنا السماءُ والأرْض، وإذا مَلَكَنا البَخِيل بَخِلَتْ علينا السماءُ والأرْض.

قال أبو سليمان: هذا إذا صَحَّ فهو شاهِدُ الفَيْض الإلهيِّ المتَّصِل بالمَلِك السَّمْح، ونُضُوبِه عن المَلِك البَخيل، لأنَّ المَلِكَ إلهٌ بَشَرِيّ.

وقال مَرّةً: ما التَّمَنِّي؟ - وقَدْ كَانَ جَرى ما اقْتَضَى السُّؤالَ عنه -.

فقلْتُ: أحْفَظُ نَصًّا لبَعْضِ الحُكماء: إنَّ التَّمَنِّيَ فَضْلُ حَرَكة النَّفْس. فقال: جَوابٌ رَشِيقٌ وإن كانَ فَقِيرًا إلى البَسْط.

فقال: هاتِ مِنْ حَديث يُونانَ شَيْئًا آخَرَ، فقلتُ: قال أَرِسْطوطَالِيس: لو كنَّا نَطْلُبُ العِلمَ لِنَبْلُغَ غايتَه كُنَّا قد بَدَأْنا العِلْمَ بِنَقِيضِه، ولكنّا نَطْلُبه لِنَنْقُصَ كلَّ يَوْمٍ مِنَ الجَهْل، ونَزْدَادَ كلَّ يَوْمٍ من العِلْم.

قال: حدِّثْني بشيءٍ فيه جَوابٌ حاضِر، وللبَدِيهةِ فيه تَوقُّدٌ ظاهر.

فَحَدَّثْتُ أنَّ رَجُلًا أَتَى الزُّهْرِيَّ فَسَأَلَه أن يحدِّثه وَيَرْوِيَ له؛ فأَبَى عليه، فقال له الرجل: إنَّ اللهَ لم يَأْخُذ الميثاقَ على الجُهّال أن يَتَعَلَّمُوا حتى أَخَذَ المِيثاقَ على العُلَماء أن يُعَلِّمُوا؛ فقال: صَدَقْتَ، وحَدَّثَه.

وحدَّثَنا القاضي أبو حامِد المَرْوَرُّوذِيّ؛ قال: وقف سائلٌ من هؤلاء الأنكادِ عَلَيْنا في

(١) رواية (ب): «ولا يختلفوا في باطنهم حتى يكون مطبوعا»؛ وفيها تكرار ظاهر.

جامعِ البَصْرَةِ وفي المجلس ابنُ عَبْدَلٍ المَنْصُوريّ، وابنُ مَعْروف، وأبو تمّام الزَّيْنَبِيّ، فسَأَلَ وأَلَحَّ؛ فقلتُ له من بين الجماعة - وقد ضجرتُ من إلحاحه وصَفاقةِ وَجهه -: يا هذا: نزلتَ بوادٍ غيرِ ذِي زَرْعٍ. قال: صَدَقْتَ، ولكن يُجْبَى إِلَيْه ثَمَراتُ كلِّ شَيءٍ. فَضَحِكَت الجَمَاعَة، ووَهَبْنَا له دَراهِمَ.

ومن الجَواب الحاضِر المُسْكِت الّذي حَزَّ الكَبِدَ ونَقَبَ الفؤاد[1] ما جرى لأبي الحسين البَتّي[2] مع الشريف محمد بن عمر، فإنَّ ابنَ عُمَر قال للْبَتِّي[2]: أنتَ واللهِ شَمّامَةٌ ولكنَّها مسمومة. فقال الْبَتِّيّ[2] على النَّفَس: لكنك أَيُّها الشريف شَمّامَةٌ مَشْمومَةٌ، عُطِّرت[3] الأرضُ بها، وسارت البُرُدُ بذِكْرِها.

وقال نصرُ بنُ سيّار بخُراسانَ لأعرابيّ: هل اُتْخِمْتَ قطُّ. قال: أمّا مِن طَعامِكَ وطَعامِ أَبيكَ فلا. فيقال: إنَّ نَصْرًا حُمَّ مِنْ هذا الجوَاب أَيّامًا؛ وقال: لَيْتَنِي خَرِسْتُ ولم أَفُهْ بسُؤالِ هذا الشَّيْطان.

وجَرَى حَديثُ الذُّكُور والإناث، فقال الوزير، قد شرَّف اللهُ الإنَاثَ بتَقديم ذِكْرِهِنّ في قوله عزّ وَجلّ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] فقلت: في هذا نَظَر؛ فقال: ما هو؟ قلتُ: قَدّمَ الإناث - كما قلتَ - ولكِنْ نَكَّرَ، وأَخَّرَ الذُّكُورَ ولَكِنْ عَرَّفَ، والتَّعْريفُ بالتأخير أَشْرَفُ مِنَ النَّكرَة بالتَّقْديم. ثم قال: هذا حَسَن. قلتُ: ولِمَ يَتْرُكْ هذا أيْضًا حتَّى قال: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ [الشورى: ٥٠] فجَمَع الجِنْسَيْن بالتنكير مع تقديم الذُّكْران، فقال: هذا مُسْتَوْفًى.

وقال: ما مَعْنَى كأسٌ أُنُف؟ فكان من الجواب أن يعقوب قال: يقال كأسٌ أُنُفٌ، أي لم يُشْرَبْ منها قَبْلَ ذلك؛ وكذلك يقال: رَوْضَةٌ أُنُف، إذَا لم يكن رَعاها أَحد.

وقال لَقيط:

(١) في (ب): «القلب».

(٢) في (ب). «الليثي».

(٣) في نسخة «فطنت»؛ وفي نسخة أخرى «وطئت»؛ وهو تحريف في كلتا النسختين؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

إنَّ الشِّوَاءَ والنّشيلَ والرُّغُـــفْ والقَيْنَةَ الحَسْنَاءَ والكَأسَ الأُنُـفْ

للطاعِنين الخَيْلَ والخَيْلُ قُطُفْ

قال: ما النّشيل؟ فإنَّ الشِّواء والرُّغُفَ مَعْرُوفانِ. قلت: ما ضَمَّتْه القِدْرُ من اللَّحْم وغيرِه، لأنه يُنْشَلُ ويُغْرَفُ؛ فقال: هذا بابٌ إنْ أَلْحَحْنَا عليه جوَّع.

قال: ما تَحْفَظُ في حَديث الأَكْلِ؟ قلتُ: الأكْل والذّمّ[1].

ومِنْ مليحه ما حَضَرَني. قيل لجُمَّيز[2]:ما تَشْتَهِ؟ قال: بَسِيسٌ مَقْلِيٌّ بين غَلَيانِ قُدُور، على رائحةِ شِواء، بجَنْبِ خَبيص. فضحك - أَضْحَكَ اللهُ سِنَّهُ بالفَرَح والسُّرور. وانتظام الأحوال واتساقِ الأمُور -. وقال: هاتِ حديثًا نَخْرج به ممَّا كُنّا فيه. فقلتُ: كتب سَعْدُ بنُ أبي وَقّاص إلى رُسْتَم صاحِبِ الأعاجِم: إسلامكم أحَبُّ إلينا من غَنائِمكم؛ وقِتَالُكُمْ أَحَبُّ إلَيْنَا مِنْ صُلْحِكمْ. فبعث إليه رُسْتَم: أَنتم كالذُّبابِ إذْ نَظَرَ إلى العَسَل فقال: مَن يُوصِلُني إليه بدِرْهَمَيْن، فإذْ نَشِبَ فيه قال: مَن يُخْرِجُني منه بأربعة، وأنت طامِع، والطمع سيُرْديك. فأجابَه سَعْد: أنتم قومٌ تُحادُّونَ اللهَ وتُعَانِدُون أنفسَكم، لأنَّكم قد عَلِمْتُم أنّ اللهَ يُريدُ أن يحوِّل المُلْك عنكم إلى غَيْركُم، وقد أَخْبَرَكُمْ بذلك حُكَماؤُكم وعُلَماؤكم، وتقرّرَ ذلك عِندكم، وأنتم دائمًا تَدْفَعُون القضاءَ بنُحُورِكم، وَتَتَلَقَّوْن عِقابَهُ بِصُدُورِكم، هذه جُرْأَةٌ منكُمْ وجهلٌ فيكُمْ، ولو نَظَرْتُمْ لأَبْصَرْتُم، ولو أَبْصَرتم لَسَلِمْتُمْ، فإنّ اللهَ غالِبٌ على أَمرِه، ولمّا كَانَ اللهُ مَعَكُمْ كانَتْ علينا رِيحُكُمْ، والآن لَمَّا صارَ اللهُ معنا [صارت] ريحُنا عليكم، فانْجُوا بأنفسكم، واغْتَنِمُوا أَرْوَاحَكم، وإلا فاصبرُوا لحرّ السلاح وأَلم الجراح، [وخِزْي[3] الافتضاح]، والسلام.

كَتَبَ حُذَيْفَةُ إلى عمرَ بنِ الخطَّابِ - رضي الله عنه - إنَّ العَرَبَ قد تَغَيَّرَتْ أَلوانُها

(١) يشير بهذه العبارة إلى قولهم في المثل: «أكلا وذما» في الشيء يؤكل ويذم؛ ذكره صاحب العقد، ولم يرد في كتب الأمثال الأخرى.

(٢) في الأصل: «حمير» بالحاء والراء؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن عيون الأخبار وغيره.

(٣) في (أ): «والصافي» مكان هذه الزيادة المنقولة عن (ب).

ولحُومُها. فكَتَبَ عُمَرُ إلى سَعْد: ارْتَدْ للعَرَبِ مَنْزِلًا مَرَاحًا. فارْتَادَ لهم الكُوفَة، وهي بُقْعَةٌ حَصْبَاء، ورَمْلَةٌ حمْرَاء، فقال سعد: اللهمَّ رَبَّ السماءِ وما أَظَلَّتْ، وَالأرْضِ وما أَقلَّتْ، وَالرّيحِ وَما ذَرَتْ، بَارِك لنا في هذه الكُوفة.

وَسَمِعَ عُمَرُ مُنْشِدًا يُنْشِد:

ما سَاسَنَا مِثْلُكَ يا بنَ الخَطّابْ	أَبَرَّ بالأقْصَى وَبالأَصْحابْ

بعد النبيِّ صاحب الكِتَابْ

فَنَخَسَهُ عُمَر وَقال: أَيْنَ أَبُو بَكْر وَيْلَك.

قال عُمَرُ وهو بمكّة: لقد كنتُ أَرْعَى إبِلَ الخَطَّاب بهذَا الوادِي في مُدَرَّعَة صُوف، وكَان فَظًّا يُتْعِبُني إذا عَمِلْت، وَيَضْرِبُني إِذا قَصّرْت، وَقد أَمْسَيْتُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ أَحَدٌ، ثم تمثَّل:

لا شَيْءَ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ	يَبْقى الإلهُ وَيُودِي المالُ وَالوَلَدُ
لم تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يومًا خَزَائِنُه	وَالخُلْدَ قد حاوَلَتْ عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سليمانَ إذْ تَسْرِي الرِّياحُ بِه	وَالإنْسُ وَالجِنُّ فيما كُلِّفوا عُبُدُ
أَينَ المُلُوكُ التي كانت نَوَافِلُهَا	من كلِّ أَوْبٍ إليها راكِبٌ يفِد
حَوْضٌ هُنَالِكَ مَوْرُودٌ بلا كَذِبٍ	لا بدَّ مِنْ وِرْدِنَا يومًا كما وَرَدُوا

وقال عُمَر: خيرُ الدَّوَابّ الحديدُ الفؤاد، الصحيحُ الأوْتَاد.

وقال عمر: كانت العَربُ أُسْدًا في جَزِيرَتِهَا يَأْكُل بَعْضُها بَعْضًا، فلمّا جَمعَهُم اللهُ بمُحَمَّد لم يَقُمْ لهم شيء.

رأَى رُسْتَمُ في النّوْم أنّ النبيّ ﷺ أَخذَ سِلَاحَ فارِسَ وَخَتَمَ عليه وَدَفَعَهُ إلى عُمَر، فارتاع رُسْتَمُ من ذلِكَ وَأَيْقَنَ أنَّه هالك.

وَقال: أَنشِدْني شيئًا، فأَنْشَدْتُه لبعض آل أبي طالب:

وَلستُ بمُذْعِــنٍ يوْمًا مُطيعًــا   إلى من لَسْتُ آمَنُ أن يَجُــورا

وَلكنّي مَتَــى مــا أخْــشَ منه   أُحَالِفُ صَارِمًا عَضْبًـــا ثَؤُورا

وَأَنْـــزِلُ رابيـــةٍ بَـــرَاح   أكونُ على الأَميــر بها أميــرا

وأَنْشَدَني لعبْدِ اللهِ بن الزَّبير، ولقد تُمُثِّلَ به:

إنِّي لَمِنْ نَبْعَةٍ صُمٍّ مَكَاســرُها   إذا تقَادَحَت القَصْبَاءُ[1] وَالعُشَــرُ

وَلا أَلِينُ لغَيْرِ الحَــقِّ أَتْبعُــهُ   حتى يَلِينَ لِضرْس الماضغ الحَجَرُ

وحَدَّثْتُه أَنَّ المأمون قال: قليل السَّفَه يمْحُو كثيرَ الحِلْم، وَأَدْنى الانتصَار يُخْرِجُ من فَضْل الاغتفَار، وَعَلَى طالب المعروف المَعْذِرَةُ[2] عند الامتناع، وَالشُّكْرُ عند الاصطناع، وَعَلى المطلوب إليه تعجيلُ المَوْعُود، وَالإِسعافُ بالموجود.

فقال: مَن أَفْضَلُ هؤلاء؟ يَعْني بني العبّاس. فكان الجوابُ أَنَّ المنصور أَنْقَدُهم[3]، والمأمونَ [أَنْجَدُهُم]، والمعتصِمَ أنجَدُهم، والمعتَضِدَ أَقْصَدُهم. فقال: كذلك هو. وقال: فالباقون؟ [قلت] ليس[4] فيهم بعد هؤلاء من يُوحَّدُ بالذكر، لأنّه في نقصِه وزيادتِه مُشَاكِلٌ لغيره. فقال: لِلهِ دَرُّك.

---

(١) ورد هذا البيت في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الشعر دون (ب) هكذا:

إلى لمن سعه صم به كاسرها   أو أينا رحب العضبنة والقشر

وهو كما ترى مملوء بالتصحيف والتحريف في جميع كلماته تقريبا؛ وقد بحثنا عن هذا الشعر في المصادر التي بين أيدينا فلم نجد غير البيت الثاني؛ وهو منسوب في مجموعة المعاني إلى عبد الله بن الزبير الأسدي ولم نجده في ترجمته؛ وقد قلبنا جميع كلمات هذا البيت على جميع ما تحتمله من الوجوه حتى استقام وزنه ومعناه على هذا الوجه الذي أثبتنا. والنبع: شجر تتخذ منه أجود الرماح. وصمّ مكاسرها، أي صلبة. ويقال: تقادح الشجر إذا كان رخوا، فمتى حركته الريح حك بعضه بعضا فأورى نارًا فإذا أريد الانتفاع به في إيراء النار بعد لم يور. والقصباء: جماعة القصب. والعشر: شجرة تتخذ منه الزناد.

(٢) في (أ): المقدرة؛ وهو تحريف.

(٣) في (أ): «أندرهم» ولم يظهر منها في (ب) غير الهاء والميم؛ وسائرها مطموس؛ ولعل الصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السجع.

(٤) الذي في (أ): «أشرفهم»؛ وهو تحريف. ويلاحظ أن كلمة «فيهم» غير موجودة في (ب)، وقد أثبتناها أخذا من قوله في (أ): «أشرفهم».

الليلة الخامسة والثلاثون

وقال ليلةً: ما الفَرْقُ بين الإرادَة والاختيار؟ فكان مِن الجواب أنّ كلَّ مُرادٍ مُخْتَار، وليس كلُّ مختار مُرادًا، لأنَّ الإنسانَ يَخْتَارُ شُرْبَ الدواء الكَريه وضَرْبَ الوَلَدِ النّجيب وهو لا يريد، ويَخْتَارُ طَرْحَ مَتَاعِه في البَحْرِ [إذا أُلْجِئَ][1] وهو لا يريد، وهما وإن كَانا انفعالَيْن فأَحَدُهما -وهو الاختيار- لا يَحْدُثُ إلَّا عن جَوَلَان وتنقيرٍ وتمييز، والآخَر - وهو الإرادة - يَفْجَأ وَيَبْغَت[2] وربّما حَمَلَ على طلَبِ المراد بالكُرْه الشديد؛ وفي عُرْضِ الاختيار سَعَةٌ للتمَكُّنِ، وليس ذلك في عُرْضِ الإرادة. والعَرَبُ تَستعمل الإرَاغَة في موضع الإرادة، والأوّل مِن رَاغَ يَرُوغُ، والثاني من رَادَ يَرُودُ، والهمزة مُجْتَلَبَةٌ للتّعدّي.

قال: فما الفَرْقُ بين المحبَّة والشَّهْوَة؟ فكان الجوابُ أن الشهوةَ أَلْصَقُ بالطّبيعة، والمحبَّةَ أَصْدَرُ عن النفس[3] الفاضلة، وهما انفعالان، إلا أنَّ أحد الانفعَالينِ أَشَدُّ تأَثّرًا، وهو انفعالُ الشَّهْوَة، وأنّه[4] يقال: شَهِيَ وأَشْهَى[5]، ويقال في الآخر: حَبَّ وأَحَبَّ، ويتَدَاخَلَانِ كثيرًا بالاستعمال، لأنَّ اللّغَة جاريةٌ على التوسّع، كما هي جاريةٌ على التَّضَيُّقِ، ومن ناحيةِ التضيُّقِ فُزِعَ إلى التَّحْديد والتَّشديد، ومن ناحية التوسُّع جُرِيَ على الاقتدار والاختيار[6]، وفي عُرْضِ هذين بلاءٌ آخَر، لأنّه بين الإيجاز والإطناب، وبين الكِنَاية

(١) في الأصول: «أحب». وهو تحريف.

(٢) في (أ): «ويثبت»، وفي (ب) ويبت، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٣) في (أ): «الطبيعة» مكان «النفس».

(٤) في كلتا النسختين: «لأنه»والتعليل هنا لا مقتضى له؛ ولعل صواب العبارة ما أثبتنا.

(٥) لم نجد في كتب اللغة التي بين أيدينا أشهى بمعنى شهي، أي اشتهى كما يفيده كلامه. والذي وجدناه أشهاه بمعنى أعطاه ما يشتهي، لا بمعنى اشتهى.

(٦) في الأصول: «والاستحقار». وهو تحريف صوابه ما أثبتنا.

والتصريح، وبين الإنجاز[١] والإبطاء. فقال: هذا باب.

ثم ناولَني رقعةً بخطِّه فيها مَطالِبُ نفيسةٌ تأتي على عِلْم عظيم، وقال: باحثْ عنها أبا سليمان وأبا الخير ومن تَعلَم أن في مُجارَاته فائدةً من عالِم كبير، ومُتعلِّم صغير، فقد يُوجَدُ عند الفَقير بَعْضُ ما لا يُوجَد عند الغَنِيّ، ولا تَحْقِرْ أَحدًا فاهَ بكلِمَةٍ من العِلْم، أو أطافَ بجانِبٍ من الحِكمة، أو حَكَمَ بحالٍ من الفضل؛ فالنُّفوس معادِنُ، وحَصِّل ذلك كلِّه وحَرِّرْه في شيء وجِئْني به، وكان في الرُّقعة:

ما النَّفْس؟ وما كمالُها؟ وما الّذي استفادَتْ في هذا المكان؟ وبأيّ شيء بايَنَت الرُّوح؟ وما الرُّوح؟ وما صِفَتُه؟ وما مَنْفَعتُه؟ وما المانع من أن تكون النفسُ جِسْمًا أو عَرَضًا أو هُمَا؟ وهل تَبْقى؟ وإن كانت تَبْقى فَهل تَعْلَمُ ما كان الإنسانُ فيه ها هُنا؟ وما الإنسان؟ وما حَدُّه؟ وهل الحدُّ هو الحقيقة، أَمْ بَيْنهما بَوْن؟ وما الطبيعة؛ وهلّا أَغْنَى الرُّوح عن النَّفْس، أو هلّا أَغْنَت النفسُ عن الرُّوح؟ وهلّا كَفَتِ الطَّبيعة؟ وما العقل؟ وما أنحاؤُه؟ وما صَنِيعُه؟ وهل يُعْقَل العَقْل؟ وهل تتنفّس النَّفْس! وما مَرْتَبَتُه (أَعْنِي العقلَ) عند الإله؟ وهل ينفعل؟ وهَل يَفْعَل[٢]؟ وإن كان ينفعل ويَفعَل[٢] فقِسْطُ الفِعْل فيه أكثرُ مِنْ قِسط الانفعال؟ وما المَعادُ المشارُ إليه؟ أهو للإنسان؟ أم لنَفْسِه؟ أم لهما؟ وما الفَرْق بين الأنفُسِ، أَعْني نَفْسَ عَمْرو وزَيْدٍ وبَكْرٍ وخالد؟ ثم ما الفَرْقُ بين أنفُسِ أصنافِ[٣] الحيَوَان؟ وهَل المَلَكُ حَيَوان؟ فقد علمتَ أنَّه يقال له: حَيٌّ، وهل فيه حياة؟ وعلى أيِّ وَجْهٍ يُقَالُ: إنّ الله عزَّ وجَلَّ حَيٌّ والمَلَكَ حَيّ والإنسانَ حَيّ والفَرَسَ حيّ؟ وهل يقال: الطبيعةُ حَيّة، والنَّفْسُ حَيّة، والعَقْلُ حيّ؟ فإنّ هذا وما أَشبَهَهُ شاغلٌ لقَلْبي، وجاثِمٌ في صَدْري، ومُعْترِضٌ بين نَفْسي وفِكْري، وما أُحِبُّ أن أبوحَ به لكلِّ أَحَد، وقد بَيَّنْتُهُ[٤] في هذه الرُّقْعة، فإنْ أَحْبَبتَ

(١) في (أ): الأبحار والإطناب، وفي (ب) وردت هذه الكلمة مطموسة الحروف تتعذر قراءتها، والسياق يقتضي ما أثبتنا أخذا من الرسم الوارد في النسخ.

(٢) في (أ): «يغفل» مكان «يفعل» في كلا الموضعين اللّذين تحت هذا الرقم، وهو تصحيف.

(٣) في (ب): «أصحاب» مكان قوله «أصناف»، وهو خطأ من الناسخ.

(٤) في (ب): «نثرته»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

أن تَعْرِضها على أبي سُليمان فافْعَل، ولكنْ لا تَدَع خَطِّي عندَه، بل انْسَخْهُ له، وحَصِّلْ ما يُجيبُك به، ويَصْدَعُ لك بحقيقَته، ولَخِّصْه، وزِنْهُ بلَفظِك السَّهل، وإفْصَاحِكَ البَيِّن، وإنْ وَجَب أنْ تُباحِثَ غَيْرَه فافْعَل؛ فهذا هذا؛ وإن كان الرجوعُ فيه إلى الكُتُب المَوْضُوعة من أجلِه كافيًا، فليس ذلك مِثْلَ البَحْثِ عنه باللِّسَانِ، وأَخْذِ الجوابِ عنه بالبَيان، والكتابُ مَوات، ونَصِيبُ الناظر فيه مَنْزُور، وليس كذلك المُذَاكَرَة والمُنَاظَرة والمُوَاتاة[1]، فإنّ ما يُنالُ من هذه أَغَضّ وأطْرَأ، وأهْنَأُ وأمْرأ، واجعل هذه الخِدْمة مُقَدَّمةً على كلِّ مُهِمٍّ لك، فإنّي ناظِرُك، طامِعًا في الجَوَاب المُقْنِع الشّافي.

فعرَضْتُها كما رَسَم على أبي سُلَيمانَ وقرَأْتُها [عليه]، وتمَهَّلْتُ في إيرادِها بحَضْرَتِه، فلما فَهِمها ووَقفَ عليها عجب وقال: هذه مَسَائِل المتحكِّمين[2]، وَطَلَبَات المُدِلِّين، واقتراحات المُقْتَدِرين، ومُنْيَةُ الأوَّلين والآخِرين.

قلتُ: هو كما قلتَ أيُّها الشيخ، ولا بدَّ من جوابٍ يُعْرَض عليه يأتي على بعض مآرب النفس، وإن لم يأت على قاصِيَة ما في المطلوب، فقال كلامًا كثيرًا واسعًا أنَا أحْكِيه على وَجْهه من طريق المعنى، وإن انحرفتُ عن أعيان لَفْظِه، وأَسْبابِ نَظْمِه، فإنّ ذلك لم يكن إملاءً ولا نَسْخًا، وأجْتَهِدُ أنْ أَلزَمَ مَتْنَ المُرَاد، وسَمْتَ المقْصُود - إن شاء الله - [عزّ وجل].

قال: أمّا قولُه: ما النَّفْس، فإنَّ التحديد يُعْوِز، والرَّسْمَ لا يَشْفي، والوَصْفَ مقصِّرٌ عن الغاية، لأنَّها ليس لها جِنْسٌ ولا فَصْل فينْشأُ الحَدُّ بهما [ومنهما]؛ والاسم الشائع - أعني النفس - أخْلَصُ إلى المطْلوب، وأَحْضَرُ للمَقْصُودِ من التّحديد، ولهذا ما اختلَفَ الناسُ قَديمًا وحَدِيثًا في حَدِّها؛ فقال قائل: النّفْسُ مِزَاجُ الأرْكان. وقال قائل: النّفْسُ تَأَلُّفُ الأُسْطُقُسّات؛ وقال قائل: النفس عَرَضٌ[3] مُتحرِّكٌ بذاته. وقال قائل: النفس هوائيَّة. وقال

(١) في نسخة «والموازاة».

(٢) في كلا الأصلين: «المتحلين»؛ وهو تحريف.

(٣) في كلتا النسختين «عدد»؛ وهو تحريف لا يستقيم به الكلام.

قائل: النفسُ رُوحٌ حارّة. وقال قائل: النفس طبيعةٌ دائمةُ الحَرَكة. وقال قائل: النفسُ تمَامٌ لجسْم طبيعيٍّ ذي حياة. وقال قائل: النفسُ جَوْهَرٌ ليس بجسم محرِّكٌ للبَدَن. وعلى هذا؛ ولعلّ آخَرين يقولون في تَحْدِيدها وَنَعْتِها أقْوالًا أُخَر، لأنّ المَلْحُوظَ[1] بسيط، والمَدْرُوكَ بعيد، والناظرين كثيرون، والباحِثين مختَلِفون، وَالكثرةُ فاتِحةُ الاختلاف، والاختلافُ جالِبٌ للْحَيْرَة، وَالحيْرَةُ خانِقَةٌ للإنسان، وَالإنسانُ ضَعِيفُ الأَسْر[2]، محدودُ الجمْلَةِ، مَحْصُور التفصِيل، مقصورُ السَّعْي، مَمْلوكُ الأَوّلِ وَالآخِر، غِشَاؤُهُ كثِيف، وباعُه قَصِير، وفائتُهُ[3] أكثرُ من مُدْركه، وَدَعْوَاه أَحْضَرُ من بُرْهانه، وَخَطَؤُه أكثَرُ مِنْ صَوَابه، وَسُؤالُه أَظْهَرُ مِن جَوَابه، فعلَى هذا كلِّه الاعتراف بها – أَعنِي بالنفس وبِوِجْدَانِها – أَسْهلُ من الفَحْصِ عن كُنْهِهَا وبُرْهَانِهَا.

قال: وإنما صَعُبَ هذا لأنَّ الإنسان يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ النَّفْسَ وهو لا يَعْرِف النَّفْسَ إلاّ بالنَّفْس، وَهو محجوبٌ عن نَفسِه بنَفْسِه؛ وإذا كان الأمر على هذا فالأَمْرُ أنّ كُلّ من كانت نفسُه أَصْفَى، وَنورُه أَشَعّ، وَنَظَرُه أعْلى، وَفِكْرُه أَثْقَب، وَلَحْظُه أَبْعَد، كان من الشكّ أَنْجَى، وَعن الشُّبْهة أَنأَى، وإلي اليقينِ أَقْرَب؛ وَالإنْسَانُ ذُو أشياءَ كثِيرةٍ، مِن جُمْلَتِها نَفْسُه، فلكثرة ما هُوَ به كثيرٌ يَعْجَزُ عن إدْرَاك ما هُوَ به واحدٌ، أي إنسان، وكيف لا يكونُ هذا النَّعْتُ حَقًّا، وهذا المَقُول صِدْقًا، وهو مُرَكّبٌ في مركَّب، وَالنَّفْسُ مَبْسُوطَة، وَإنما فيه جُزْءٌ يسير وَنَصِيبٌ قليل من ذلك البسيط، فكيف يُدرَك بجزءٍ منها كلُّهَا وَبقليل منها جَمِيعُها[4]؛ هذا متعَذِّرٌ إنْ لم يكن مُحالًا، وبعيدٌ إن لم يكن معدومًا؛ وَيَكفي أن تعلم أن النفس قوةٌ إلهية وَاسطة بين الطبيعة المُصرِّفة للأَسْطُقُسّات والعناصرِ المُتَهَيِّئَة، وبين العقل المنير لها، الطالع عليها، الشائع فيها، المحيطِ بها؛ وكما أن الإنسان ذُو طبيعة لآثارها الظاهرةِ في بدنه [كذلك هو ذو نفس، لآثارها الظاهرة في آرائه] وَأَبْحَاثِه، وَمَطالبه وَمآرِبه؛ وكذلك هو

(١) في كلا الأصلين: «المخلوط»... و«المذكور»؛ وفي كلتا الكلمتين تصحيف وقلب، صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٢) الأسر: القوة. وفي (ب): «الأس» بضم الهمزة وتشديد السين؛ والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٣) في كلا الأصلين «وفلتته»؛ وهو تحريف.

(٤) وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين مهملة الحروف من النقط مطموس بعض حروفها. والسياق يقتضي ما أثبتنا.

ذو عَقْلٍ لتمييزه وَتصفّحه، وَاختِبَارِه وَفَحْصِه وَاستِنْبَاطِه، وَيَقِينِه وَشَكِّه، وَعِلْمِه وَظَنِّه[1]، وَفَهْمِه وَرَوِيَّتِه وَبَدِيهَتِه وَذِكْرِه، وَذِهْنِه وَحِفْظِه وَفِكْرِه، وَحِكْمَتِه وَثِقَتِه وطُمأْنِيْنَتِه؛ وكذلك هو ذو اعتراف بالأَحَد[2] الّذي لاَ سَبيلَ إلى جَحْدِه، وَالبَرَاءِ مِن هُوِيَّتِه، وَكيفَ يَجِدُ أثَرَ الجَحْد، أو يُحِسُّ بِلَمْسَةٍ من الشكّ؟ وَسِنْخُهُ يَنْبُو عن ذلك، وَفِطْرَتُه تأباه، ولهذا النُّبوِّ وَالإِبَاءِ[3] يَفْزَع إليه، وَيَتوكّلُ عليه، وَيَطْلُبُ الفَرَجَ مِنْ عِنْدِه، وَيَلْتَمِسُ الخَيْرَ مِنْ لَدُنْه، فانظر إلى هذه السِّلْسِلَةِ الوثيقة التى لا يَفْصِمُهَا شيءٌ لا في زَمانٍ ولا في مكانٍ، ولا في يَقَظَةٍ وَلاَ في مَنَام؛ فهذا هذا؟ وَفيه مَقْنَع.

وَأَمَّا فِعْلُ النَّفْس، فقد وَضح أَنّه إِثَارةُ العِلم من مَظانِّه؛ وَاستخلاصُه من العقل بشهادَتِه، مع إفاضاتٍ لها أُخَر، وَإنالاتٍ منها جليلة عند الإنسان، بها يَنَالُ ما يَكْمُل به، وبكَمَالِه يَجِدُ السعادة، وبسَعادَتِه يَنْجُو مِنْ شِقْوَتِه.

وأمّا قولُه: ما الّذي استفادت في هذا المكان، فإنّها أفادت وما استفادت، إلَّا أن تُجْعَلَ إفادتُها للقابلِ منها استفادةً لها؛ وفي هذا تجوُّزٌ ظاهر، ولا يقال للشمس إذا طَلَعَت على بَسِيطِ الأرض والعالَم: ما الّذي استفادت. ولكن يقال: ما الّذي أَفادَت: فيُعلَم حِينَئذٍ بالعِيان أَنَّها أَفادَت أشياءَ كثيرة، وصُورًا مختلفة، ومَنافعَ جَمَّةً بالقَصْدِ الأوَّل؛ وأمَّا القَصْدُ الثاني فأضدادُ هذه، وهذا القَصْدُ مفروضٌ باللفظ ليكون مُعينًا على تبليغِ الحِكْمَة إلى أَهْلِها.

وأمّا قولُه: بأيِّ شيء باينت النفسُ الرُّوحَ فهو ظاهر، وذلك أنَّ الرُّوح جسْمٌ يَضْعُفُ ويَقْوَى، ويَصْلُح ويَفْسُد، وهو واسطةٌ بين البَدَنِ والنَّفْس، وبه تُفيضُ النفسُ قُوَاها على البَدَن، وقد يُحِسُّ ويتحرَّك، ويَلَذُّ ويتألم؛ والنفسُ شيءٌ بسيطٌ عالِي الرُّتْبَة، بعيدٌ عن الفساد، منزَّه عن الاستحالة.

---

(١) في (ب): «وفطنته».

(٢) في كلا الأصلين «بالحد»؛ وهو تحريف؛ وسياق الكلام الآتي يقتضي ما أثبتنا.

(٣) في (أ): «البنون والآباء»؛ وهو تحريف في كلا اللفظين.

وأمَّا المانعُ أَنْ تكون النفسُ جسمًا [فللبساطة التي وُجدتْ للنفس ولم تُوجَد للجسم، وبيانُ هذا أن كلّ نعت أُطْلِق على الجسم نُزِّهتْ عنه النفس، وكلّ نعت أطلق على النفس نبا عنه الجسم؛ فذاك كان المانع من ذلك، وقد أتت مذاكَرةٌ في النفس منذ ليالٍ بشرحٍ مُغْنٍ، وبيانٍ تامّ، إلا أن هذا المكان أحوَجُ إلى الإلمام، ولم يأت على ما في النفس. وإذا بطل أن تكون النفسُ جسمًا] فهي بألَّا تكون عَرَضًا أَقْمَنُ وَأَخْلَق، لأنَّه لا قِوَامَ للعَرَض بِنَفْسِه.

وأما قوله: وهل تَبْقَى؟ فكيف لا تَبْقى وهي مَبْسُوطَةٌ لا يَدْخُلُ عليها ضِدّ، ولا يدبّ إليها فساد، ولا يَصِلُ إلى شيء منها بِلًى، والإنسان إنما يَبْلَى ويَفْسُد ويَخْلَق ويَبْطُل ويَمُوت ويَفْقِد، لأنَّه يفارق النّفْس، والنفسُ تُفَارِق ماذا حتّى تكُونَ في حُكْم الإنسان بِشَكْلِه؟ ولو كانت كذلك كانَتْ لَعَمْرِي تموتُ وتَبْلى، فأمّا والإنسان بها كان حيًّا وَجَبَ ألا يَكون حُكْمُها حُكمَ الإنسان.

وأمّا قولُه: أو هُما، فقد بان أنّ النفسَ مَتى لم تكن جسْمًا، ولا عَرَضًا على حِدَةٍ أنها لا تكون أيضًا بهما نَفْسًا، لأنَّ البَيْنُونَةَ التي مَنَعَتْ في الأوّل هي الَّتي تَمْنَعُ في الثاني، وليست النفسُ والعرَض كالخَلِّ والسُّكّر حتى إذا جُمِع بينهما كان منهما شيء آخر، لأنَّ الجسْمَ والجِسم إذا اختَلطا كان منهما شيءٌ ما، لهُ قَوَامٌ ما، وإنَّ ذلك القوامَ مُسْتَلٌّ منهما، وليس كذلك البَسيط وغيرُ البسيط، فهذا هذا.

وأمّا قولُه: وهل تَفْنَى[1]، فقد بان أَنَّهَا تَبقى ولا تَفْنى، وليس يطرأ عليها ما يُفْنِيها، لبسَاطَتِها وبُعْدِها من التَّركيب العجيب [المُعَرَّضِ] للتحلُّل.

وأما قوله: وهل تعلم ما كان فيه الإنسان ها هُنا، فإنَّ هذا بعيد من الحقّ لأنّها قد وَصَلَت إلى مَعْدِن الكرَامة وجَنّةِ الخُلْد، فلا حاجةَ بها إلى عِلْم العالَم السُّفليِّ الّذي لا ثَبَاتَ له ولا صُورَة، لَغَلَبَةِ الحَيْلولة عليه، وتذَكُّر الحَيْلولة حَيْلُولة، وذلك دليلُ النّقص، واعتراضُ

(١) في الأصول: «وهل تبقى»، وهو تصحيف إذ قد سبق هذا السؤال.

الألَم، ولو أن إنسانًا نُقِلَ[١] من كَرْبِ حَبْسٍ ضيّقٍ إلى رَوْضٍ بُستان ناضر بهيج مُونِق، ثم تذكَّرَ ما كان فيه في حال ما هُوَ عليه لكان ذلك مُؤْذِيًا لنَفْسه، وكارِبًا لقَلْبِه، وقادِحًا في رَوحِهِ، وآخِذًا من حُبُورِهِ وَغِبْطَتِهِ، ومُدْخِلًا للتّنْغيص عَلَيْهِ في نَشْوَتِه.

وأمَّا قوله: وما الإنسان، فالإنسانُ هو الشيءُ المَنْظُومُ بتَدْبيرِ الطَّبيعة للمادّة المخصوصة بالصُّوَر البَشَريّة، المؤيَّدُ بنُورِ العَقْل من قِبَل الإله؛ وهذا وصفٌ يأتي على القَوْل الشائع عن الأوّلين إنَّه حَيٌّ ناطِقٌ مائتٌ [أي حَيٌّ] من قِبَل الحِسّ والحركة، ناطقٌ مِنْ قِبَل الفِكْرِ والتمييز، مائتٌ مِنْ قِبَل السَّيَلان والاستحالة، فمن حيثُ هو حَيٌّ شريكُ الحيوان الّذي هو جِنْسُه، ومن حيث هو مائِتٌ هو شَرِيكُ ما يَتَبَدَّل ويَتحلَّل، ومن حيث هو ناطقٌ هو إنسانٌ عاقِلُ حَصيف، ومن حيث يَبلغ إلى مُشاكَهة المَلَكِ بقوّة الاختيار البَشَرِيّ، والنور الإلهي، - أعني يُنْعَتُ[٢] في حياته هذه التي وُهِبَتْ له بَدْءًا، بصحّة العقيدة وصلاح العمَل وصِدْق القَوْل - هو مَلَك، فإن لم يكن مَلَكًا فهو جامع لصفاتِه، ومالكٌ لِحِلْيَتِه، ولمَّا كان جنسُه مشتمِلًا على التفاوُت الطَّويل العَرِيض، كان نوعُه مشتمِلًا على التفاوت الطويل العريض؛ ومن كان نوعُه كذلك كانت آحادُه كذلك، وكما أنّ الجِنْسَ يَرْتَقي على نوعٍ كامل، كذلك النوعُ يَرتقِي إلى شَخْص كامل.

وأمّا قولُه: هل الحدّ هو الحقيقة، أو بينهما بَوْن، فإنّ الحدّ راجعٌ إلى واضِعِه ومُتَقَصِّيه[٣] بدَلالَةِ أنّه يَضَعُه ويُفَصِّله[٤]، ويُخَلِّصُه ويُسَوِّيه ويُصْلِحُه. فأما الحقيقة فهي الشيء وبها هُوَ ما هُوَ، حَدَّه صاحِبُه أم لَمْ يَحُدَّه، رَسَمَه قاصِدُه أمْ لم يَرْسُمْه، فملحوظ الحقيقة عَيْنُ الشيء [وموضع الحدّ ليس هو عينَ الشيء].

وأمّا قوله: وما الطبيعة، فهي أيضًا قوةٌ نفسيّة، فإن قلتَ عَقليةٌ لم تُبْعِدِ، وإن قلتَ إلهيّةٌ لم تُبْعِد، وهي الّتي تَسرِي في أثناء هذا العالَم مُحَرِّكةً وَمُسَكِّنَة، ومُجَدِّدةً ومُبْلِيَة، ومُنْشِئةً

(١) في (ب): «نجا».

(٢) في (أ): «يقيني»: وفي (ب): «يقتني»؛ وهو تحريف في كلتا النسختين ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٣) في كلتا النسختين: «ومقتضيه»؛ وهو تحريف لا معنى له في هذا الموضع.

(٤) في كلتا النسختين: «ويبطله». وهو تحريف.

وَمُبيدة، ومُحْيِيَةً ومُمِيتة، وتصاريفها ظاهِرَةٌ للحسَائس، وهي آخِرُ الخُلفاء في هذا العالَم، وهي بالموادِّ أَعْلَق، والموادُّ لها أعْشَق، وليس لها تَرَقي النفسِ في الثاني[1] إلى عالَمِ الرُّوح؛ لأنه لا كَوْنَ هُناكَ ولا فَساد، فلو رَقِيَتْ إلى هُنَالِكَ لبَقِيَتْ عاطِلة، وليس كذلك النفس، فإنّ لها في عالَمِها البَهْجَةَ والغِبْطة، والحُبُورَ والسُّرُور، والدَّوامَ والخُلود والخِلافة الإلهية، وهذا هُناك في مُقَابلة ما كان لها ها هُنا من الفضائل التي لا يأْتي عليها إحْصاء، ولا يحصِّلها استقصاء.

وأمّا قولُه: وهلّا أَغْنَى الرُّوح عن النّفْس، فهو يُغْنِي عنها، ولكن في جِنس الحيَوَان الذي لم يكْمُل فيكونَ إنسانًا. فأمّا في الإنسان فلا، لأنّ الإنسان بالنَّفْس هو إنسانٌ لا بالرُّوح، وإنما هو بالرُّوح حَيٌّ فحسْب.

وأمّا قولُه: وهَلاّ أغْنَت النفسُ عن الرُّوح، فإنّ الرُّوح كالآلة للنفس حتى يَنْفُذَ تدبيرُها بوَساطته في صاحِب الرُّوح، وليس ذلك لَعجْزِ النفس، ولكن لعَجْزِ ما يَنْفُذُ فيه التدبير، وإذا حُقِّقَ هذا الرَّمْزُ لم يَكُنْ هُنَاك عَجز؛ لِأنَّه نظامٌ موجودٌ على هذه الصورة، وصورةٌ قائمةٌ على هذا النظام، فليس لأحد أن يُعَلِّلَ ذلك بِلِمَ ولا بكيْفَ إلَّا من طريق الإِقْناع.

وأمّا قولُه: هَلَّا كَفَت الطَّبيعة. فقد كَفَت في مواضِعَها التى لها الولايَة عليها مِنْ قِبَل النَّفْس، كما كَفَت النفسُ في الأَشياءِ التي لها عليها الوِلايَةُ مِن قِبَل العَقْل، كما كَفَى العقلُ في الأمور التي لَه الولاَية عليها من قبل الإله؛ وإن كان مجموعُ هذا راجعًا إلى الإله، فإنّه في التفصيل محفوظُ الحُدود على أربابها؛ وهذا كالمَلِكِ الّذي لَهُ في بِلادِهِ جَماعةٌ فيَصْدُرون عن رَأيه، ويَنْتَهُون إلى أَمرِهِ، ويتوخَّوْن في كلّ ما يَعقدُونه ويَحُلُّونه، ويَنْقُضُونه ويُبْرِمونه، ما يَرْجِعُ إلى وِفاقِه، وكلُّ ذلك منه ولَه وبأَمْرِه، وقد كفاه أُولئك القومُ ذَلك كُلّه.

فإن قال قائلٌ: فكيف مَثَّلْتَ سِياسةً إلهيّةً بسياسةٍ بَشَرِيَّة، وأين هذه من تلك؟

فالجوَاب أنّ البَشَر المسكين لَم يُجِدّ هذه السياسة من تِلْقاءِ نَفْسِه، ولا بِمَا هُوَ به مَهِينٌ

(١) في الثاني، أي في العالم الثاني.

ضَعِيف عاجزٌ مِسْكين؛ بل بما فاض عليه من تِلك القُوَى وتِلْكَ الصُّوَر، فهو إذا أَبرَزَ شيئًا أبرَزَ على مِثالِ تِلْك، لأنَّه قد أُعْطِيَ القالَب، فقد سَهُلَ عليه أن يُفْرِغَ فيه، وَوُهِبَ له الطابَع، فهو يَخْتِمُ به؛ وَهُيِّئَ على ذلك فهو يَجْري عليه، وهذا سَوْقٌ إلهيّ وإن كان الانسياق[1] بَشَرِيًّا، وَنَظْمٌ رُبُوبيٌّ وَإن كان الانتظامُ إِنْسِيًّا؛ وفي الجُمْلة إحْدَى السِّياستين، أعني البَشَرِيَّة هِي ظِلٌّ للأخرى، أعني الإلهيّة، وَالسُّفْلِيَّات مُنْقَادَةٌ للعُلْويّات، وَالعُلْويَّات مُسْتَوْلِيَاتٌ على السُّفْلِيَّات، بحقّ العَدْل وما هو مقتضاها، ولأَنّ هذه فَوَاعِل، أعني العُلويّات، وَتلك قَوَابِل، أعني المُنْفَعِلات، وَوَجَب ذلك لأن الصورة في الفاعِل أَغْلَب، والهَيْولَى في القابِل أَغْلَب، وَالعَالَمان مُتَواصِلاَن، والسِّياستان مُتَماثِلَتَان، والسِّيرتَان مُتَعَادِلَتَان، والتَّدْبيران مُتَقابلان، ولكنّ التدبيرَ إذا نَفَذَ في السُّفْلِيِّ يُسَمَّى بَشَرِيًّا، وَإذا نَفَذَ في العُلْويّ يُسَمَّى إلهيًّا، وَإن كانا في التَّحْقيق إلهِيَّين، وَإنَّمَا اختَلَفا بحَسَب الصُّدُور وَالوُرُود، والفُصول وَالوُصول، وَالشُّخُوصِ[2] وَالبُلوغ؛ وَالعادة جارية بأنْ يُشَبِّهَ الإنسانُ شيئًا من الأَشياء بالشَّمْس وَالقَمَر، وَلا يُشَبِّهَ الشمسَ وَالقمرَ بشيءٍ آخَر، لأَنّ للأعلى النَّعْتَ الأَوَّل، وَللأَسفل النَّعْتَ الأَرْذَل؛ فهذا كما تَرَى.

وَأما قوله: وَما العَقْلُ، وَما أَنْحَاؤه، وَما صَنِيعُه؟ فإن الجواب عن هذا لو وَقع[3] في خَلَد كَثير، لكان محمولًا على التقصير، وكذلك فيما تَقَدَّم؛ ولكن هذا مكان قد اقتُرِح فيه الإيجازُ والتَّقريب، وهذان لا يكونان إلَّا بحَذْف الزوَائد المُفِيدة، وَإلّا بتَفْريق العَلائِق المُوَضَّحة. وَبعد، فالعقل أيضًا قوَّةٌ إلهيّة [أَبْسَط من الطبيعة، كما أَن الطبيعة قوَّة إلهيّة] أَبْسَطُ من الأسْطُقُسّات، وكما أَنّ الأَسْطُقُسّات أَبْسَطُ من المركّبات؛ وعلى هذا حتّى تَنتهى المركَّبات إلى مُرَكَّب في الغاية، كما بلغت المبسوطات إلى مَبْسُوطٍ في النهاية؛ فالْتَقَى الطَّرَفان على ما يقال له: كُلّ، فلم يكن بعد ذلك مَطلَبٌ لا فِي هذا الطَّرَف ولا في

(١) في كلتا النسختين: «الاشتياق» بالشين المعجمة، وهو تصحيف.

(٢) يريد بالشخوص هنا الارتحال، وهو في مقابلة البلوغ.

(٣) في كلتا النسختين «أنه لو وقع». والظاهر أن قوله «أنه» زيادة من الناسخ.

هذا الطَّرَف؛ وَالعَقْلُ هو خليفة الله، وهو القابل للفيْض الخالِص الّذي لا شَوْبَ فيه ولا قَذًى؛ وَإِنْ قيل: هو نُورٌ في الغايةِ لم يكن ببَعِيد، وَإِن قيلَ بأنَّ اسمَه مُغْنٍ عن نَعْتِه لم يكن بِمُنْكَر؛ وإنَّمَا عَجَزْنا عن تَحْدِيدِ هذه البَسَائِطِ لأنا حاوَلْنَا عند عِلْمِها[1] أن تكون في صورة المركّبات أو قريبةً منها، وأن تَصِيرَ لنا أَصْنَامًا نتمَثَّلها ونُوَكِّلُ بها[2]؛ وهذا مِنَّا تَعَجْرُفٌ مَرْدُودٌ علينا، وَخَطأٌ يَلْزمُنا الاعْتِذَارُ منه إلى كلّ مَنْ أَحَسَّ به مِنَّا؛ وينبغي أن نَتوب إلى الله في كلّ وَقْتٍ مِن وَصْفِه بما لا يَلِيقُ به، وَمِنْ طَرْح الوَهْم على شَيء قد حَجَبَه عن مَعارِفنا، ورَفَعَه عن عُقولنا، وَقَصَرَنا على حُدودنا اللازمةِ لنا، وَأشكالِنا المشتملةِ علينا؛ هذا حَدِيثُ العَقْلِ إذا لُحِظَ في ذِرْوَتِه.

فأما إذا فحِص عن آثارِه في حَضِيضِه فإنَّه تَمْيِيزٌ وَتَحْصِيلٌ وَتَصَفُّحٌ وَحُكم وتَصْوِيبٌ وَتَخْطِئَة، وَإجازَةٌ وَإيجابٌ وإباحَة؛ وَإيَّاك أَيُّها السامعُ أنْ يَكُون مَفْهُومُك من هذِه الأَسْماء والأَفْعال وَالحُروف أَشياءَ مُتَمَايزة فتَجْعلَ شيئًا وَاحدًا أَشياء، وَمَن كَثَّرَ الوَاحدَ فهو أَشَدُّ خَطَأً مِمَّن وَحَّدَ الكَثِيرَ، لأنّ تكْثِيرَ الواحدِ انحطاطٌ إلى المَرْكز؛ وتَوْحيدَ الكثيرِ استِعلاءٌ إلى المُحِيط، بل يَجِب أَن يكون مَحْصُولُكَ منها شيئًا واحدًا لم تَصِلْ إليه إلَّا بترادُفِ هذِه الكَلِمات، وتَصَاحُب هذه الصِّفات.

وأما أنحاؤه، فعلى قَدْر ما يقال: فلان عاقل وفلانٌ أَعْقَلُ من فُلان، وفلانٌ في عَقْلِه لُوثة[3]، وفلانٌ ليس بعاقل؛ وأَصْحَابُ العَقْل أَنْصِباؤُهم منه مُخْتَلفة بالقِلّة والكَثْرَة، والصَّفَاءِ والكَدَر، والإنارَة والظُّلْمة، واللَّطافَة والكَثافة، والخِفّة والْحَصافة، كما تَجِدُهم مُخْتَلِفين في الصُّور والألوَانِ والخِلَق بالطّولِ والقِصَر، والحُسْنِ والقُبْح، والاعتدالِ والانحراف، والرّدّ والقبُول، إلا أنَّ هذا القَبيلَ يُدْرَكُ بالحسّ، ويُشْهَدُ بالعِيَان، ويُعَايَنُ بالحضُور، وذلك القَبِيلَ مَحْجُوبٌ عن هذا كُلِّه، فلم يجز أن تكون الإحاطة بتَفاوُتِ ما غاب [عنَّا] في وَزْنِ

(١) في كلتا النسختين: «علمائها»؛ وهو تحريف؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(٢) في كلتا النسختين: «وتؤكل»؛ وهو تحريف.

(٣) في (أ): «لومه» ووردت هذه الكلمة في (ب) مطموسة الحروف تتعذر قراءتها، والصواب ما أثبتنا.

[الإحاطة][1] بتفاوُتِ ما حَضَر، فإنَّهما ما تَبايَنَا لِيأْتَلِفَا، بَلْ لِيَخْتَلِفَا، وهذا التفاوتُ مُعْتَرفٌ به إذا اعتُبِر من خارج، وذلك أنّك تَجِدُ أصحاب المال أيضا يتبايَنون في مقادير ما يَمْلكون من المال، ولا يتّفقون على مِقْدَارٍ واحدٍ منه عند جَمَاعتهم، ولا يَتّفِقُون على نوعٍ واحِدٍ أيضًا من أعْيانِ المال، لأنّ هذا يَمْلِكُ الصامت، وذاك يَمْلِكُ الناطق، وهذا يُمارِسُ القَزَّ، وهذا يُمارسُ الصُّوف، وهذا يَنْظُرُ في الصَّرْف، وهذا يَبِيعُ الحيَوان، وكلٌّ منهم صاحبُ مالٍ ومُباشِرٌ له، وعلى هذا المثالِ احْتَذَى أهْلُ العقل فى مطَالبِهم، فصار هذا يَمْلِكُ بِعَقْلِه غيرَ ما يَمْلِكُ الآخرُ، أَعْني أنّ هذا يَنْظر في الهنْدَسَة، وهذا في الطِّبّ، وهذا في النّحْو، وهذا في الفقْه؛ والعِبارةُ تمْنَعُ من إشباع هذا المعنى، وحَصْرِ هذا الفنّ، فعلى هذا أنْحَاؤه، وإنها لكثيرة إن لم تكن بلا نِهاية.

وأمّا صَنِيعُه، فهو الحُكم بقَبُول الشيء وردّه، وتحْسِينه وتَقْبِيحِه، إذا كان المعرُوضُ عليه على جهته غيرَ مموَّه ولا مَغْشُوش، ولا مُشْتَبه فيه ولا ملبُوس، فإنْ كان مموَّهًا اختلَفَ حُكْمُه، لأنّ العَقْل يَرَى الباطِلَ حقًّا في وَقْت، ويَرَى الحقَّ باطِلًا في وقت، مَعَاذ الله مِنْ هذا، ذلك للحِسِّ المَنْقُوص، والذِّهْنِ المَلْبُوس، لأنّ[2] العارِضَ مَوَّهَ مَعْرُوضَه على العَقل، فحَكَمَ له بما يَسْتَحِقُّه، إلَّا أَن يكون العارضُ لم يَشْعُرْ بذلك التَّمْوِيه، ولم يفْطَن لذلك الغشّ، فحينئذ يهديه العَقل ويُرْشِدُه، ويَفْتَحُ عليه، ويَنْصَحُ له.

وأما قوله: وهل يُعْقَلُ العقلُ، فإن الأَولى أن يقال: العاقِلُ يَعْقِل بالعَقل مَعْقُولَه، أَلا تَرَى أنّهُ يقال: السِّرَاجُ أَضَاء البَيْتَ، ويبْعُد أن يقال: أَضَاء نَفْسَه، لأَنَّهُ مُضِيءٌ بنَفْسِه، فليْسَ به فَقْرٌ إلى أن يُضِيءَ نَفْسَه، وإنما أَضَاءَ غَيْرَه....[3]. ولو عُقِلَ العَقْلُ لعُقِلَ بالعَقْلِ، وهذا إذا استمرَّ كان مَرْدُودًا، ونحن إذا قلنا: عَقَلَ العاقلُ مَعقُولَه، فإنما نَصِفُهُ بأَنَّه انْفعَلَ انفعالَ كمالٍ، والعقلُ يَرَى مِن هذا الانفِعال ألاّ يَتَوَخَّى أَنَّه يَعقِل الإله الّذي هُوَ به ما هُوَ، فإنّه

(١) لم ترد هذه التكملة في كلتا النسختين، والسياق يقتضيها.

(٢) وردت هنا كلمة: «لكن». في الأصول وهي زيادة من الناسخ.

(٣) ورد موضع هذه النقط في كلتا النسختين: «إلى لأنه أضاءه»، ولا مقتضي لهذه العبارة هنا كما يظهر لنا.

يجوز أن يَضُرَّ[1] به انفعالٌ لائقٌ به يكون عبارةً عن شَوْقه[2] إليه، وكماله به، واقتباسه منه، وهذا صراطٌ حَديد، والواطئُ عليه على خَطَر شديد، والوُقوفُ دونه أصْدَعُ بالحُجَّة، وأوْضَحُ للعُذْر، لأن الإنسان خَوَّارٌ بالطَّبْع، وإن كان جَسُورًا بالنّفس.

وأمّا قوله: وهل تَتَنَفّس النّفْس، فإنْ أُرِيدَ بذلك النّفْسُ الناميةُ والحيوانيّة فهو قريب، وأمّا الناطقةُ فإنّ ذلك يَبْعُدُ منها [لأن ذلك التنفس استمدادُ شيء به يكون الشيءُ حيًّا] أو كالحيّ؛ والناطقةُ غَنِيَّةٌ عن ذلك.

فإن قيل: فهل تَقْتَبِسُ من العَقْلِ وتَسْتَمِدّ؟ قيل: هذا لا يُسَمَّى تَنَفُّسًا، وليس اللفظ يُبْعِدُه عن الحقيقة تأويلٌ في الوَضْع؛ ولا وَجْهٌ في الاعتمال[3]، وإدخال العَوِيصِ في المَكان الذي يُحْتاج فيه إلى رَفْع اللَّبْس وزوالِ الإشكال، مُدَاجاةٌ في العِلْم [وخِيَانَةٌ للحِكْمَة] وجِنَايةٌ على المُسْتَنْصِح.

وأمّا مرتَبَتُه[4] عند الإله فقد وضح بأنه كالشمس تَطلُع فَتُحْيِي، وتضيء فَتنفَع.

فإن قيل: فالعَقْل أيضًا هكذا، قيل: العقلُ أيضًا شمسٌ أُخْرى، ولكنها تطلع على النفس التي ليست حاويةً لجدارٍ وَسَطْح، وبَرٍّ وبحر، وجَبَل وسَهل، لأنه لمّا كان العقلُ أشرَقَ من النَّفس – لأنه مُسْتَخْلِفٌ للنفس، والنفسُ خَلِيفَتُه – كان إشراقُه أَلْطَف، ومنافِعُه في إشْرَاقِه أشْرَف، وأَيضًا فإنّ الشمس تَجِدُها بالحِسّ لها غُرُوبٌ وطُلُوع، وتَجَلٍّ وكُسُوفٌ، وليس كذلك العقل، لأن إشْرَاقَه دائم، ونُورَهُ مُنْتَشِر، وطلوعَه سَرْمَد، وكُسوفَه مَعْدُوم، وتجلّيَه غيرُ متوقِّف[5].

فإن قيل: نَرَى العقلَ يَعْزُبُ عن الإنسان في وقتٍ[وَيثُوبُ إليه في وَقت]. فالجواب

(١) في كلتا النسختين: «يضن به» بالنون مكان الراء؛ ولم نتبين له معنى في هذا الموضع؛ ولعل الصواب ما أثبتنا أو لعله «يضل به» باللام.

(٢) في كلتا النسختين: «سوقه» بالسين وهو تصحيف.

(٣) في (ب): «الاحتمال».

(٤) مرتبته، يعني العقل.

(٥) في كلتا النسختين: «متوقع» بالعين؛ وهو تحريف.

أن الوَصْف الذى كنا نَنْعَت[1] به ونَصْدَع ببَيَانِه لم يَكُنْ لِعقْلِ زيد وعَمْرو، وبَكْرٍ وخالِد، لأن ذلك يُنْعَتُ بالطُّلوع والغُرُوب، وبالحضور والغُيُوب، لأنه ها هُنا مضافٌ ومُنْحازٌ[2]، أو كالمُنْحَاز، وليس كذلك هو، فإنَّه هُناك على بَهْجَتِه التامّة، وسُلطانِهِ القاهر، وملكوته الأفْيَح، وبسيطه الفائق[3]، وفَضَائه العريض.

وأمّا قوله: وهل يَنْفَعِل، فقد مَرَّ الكلامُ عليه في طَيِّ ما مَرّ، وليس للتَّكرار وَجْه، ولا في التَّطويل عُذْر.

وأما قولُه: فقِسْطُ الفِعْلِ أكثرُ، أم قِسْطُ الانْفِعال، فإنّ هذا يُلْحَظُ من وجْهيْن، إذا لُحِظَ قَبُولُه من فَيْضِ الإله فَقِسْطُ الانفِعالِ أظْهَر، وإذا لُحِظَ فَيْضُه على النّفس فقِسْط الفِعْل فيه أَكثَر، لأنّه بجُوده على غَيْرِهِ يُشَارِكهُ مَن جادَ عليه بجُودِه، وهذا لطيفٌ جِدًّا.

وأمّا قوله: وما المَعاد، فما أَسْهَلَ مُطَالَبَةَ السَّائِلِ بهذا الأمرِ الصَّعب الهائل الذي كلُّ أمرٍ متعَلِّقٌ به، وكلُّ رجاء حائمٌ حَوْلَه، وكلُّ طَمَعٍ مُتَوَجِّهٌ إليه، وكلُّ شيء مَقصورٌ عليه، وكلُّ إنسانٍ به يَهيم، وكلُّ مُصَرِّحٍ عنه يُصَرِّح، وكلُّ كانٍ عنه يَكْنِي، وكلُّ مترنِّم به يَحْدُو، وكلُّ لَحْنٍ إليه يُشِير، وكلُّ سامعٍ إليه يَطْرَب، ونَرْجِع فنقول - على العِيِّ والبَيان، وعلى الزَّحْفِ والعَدَوَان: - إنّ عَودْ النَّفْس إنما هو تَخْلِيَتُها للبدن إذا حانَ وَقْتُ التّخْلية، إما لأن البَدَنَ غيرُ مُحْتَمِلٍ لمادَّة الحيَاة، وإمّا لأنَّ النفسَ قد أَزْمَعَتْ أمرًا آخَرَ، ولا يَتِمُّ لها ذلك إلَّا بتَخْلِية هذا؛ وإمّا لَهُما.

فإنْ قال قائل: فما نَصِيبُ الإنسان مِنْ عَوْدِ النَّفْس الذي هُوَ تَخْلِيَتُها للبَدَن وخُروجها عنه، وتَرْكُ استعمالِها له. فالجوابُ مِنْ طَريقِ التَّمثيل، والرِّضَا بالرَّأْيِ الأصْوَب، والحُكْم الأجْلَى أَنْ يقال: لو قيل لرَجُلٍ مِنْ عُرْضِ النَّاس وافرٍ أو ناقص: إنَّك إذا فارقتَ هذا العالَم بَقِيَتْ عَيْنُك الباصرة، وأُذُنُك السامعة، هل تَرَى ذلك نِعْمَةً عليك، وإحسَانًا إليك، فإنَّ

(١) في (أ): «تقنع»؛ وفي (ب): «نتسع»؛ وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٢) في كلتا النسختين: «ومختار أو كالمختار»؛ وهو تحريف في كلا الموضوعين.

(٣) في (أ): الغائب بالغين والباء؛ وفي (ب): «الفائت» بالفاء والتاء؛ ولعل الصواب ما أثبتنا.

عَيْنَك إذا بَقِيَتْ أَبْصَرَت العالَم بَعْدَكَ كما كنتَ تُبصِرُه وهي مَعَك، بل تُبْصِرُ أَحْسَنَ مِن ذَاكَ الإِبْصارِ، لأَنَّها كانتْ مَعَك ترمَدُ بِسَببك، وتَعشَى من أَجْلِك، وربّمَا عَرَضَ لها سُوءٌ بسُوء تَدْبيرِك، أوْ باتفاق رديء عليك، مِن عَشًى أَوْ عَمًى وخَفَش وعَمَش وعَوَرٍ وآفات[1] كثيرة، وهيَ آمِنةٌ بَعْدَكَ مِنْ هذه الأعْراضِ المَكْرُوهة، والأحْوال الداهِيَة[2]، فإنا نَعْلَم حَقًّا وعِيانًا أنّه يقول: قَدْ رَضِيتُ بل أَتَمَنَّى هذا، ومَنْ لِي به، أيْ إنْ أُعْطِيتُ هذا فَمَنْ مِنِّى[3] أَسْمَعُ وأَبْصَرُ، وإذا كنتُ أكره الدنيا في حياتي إذا فقَدْتُهما فكيف لا أُحِبُّ الدُّنيا إذا وَجَدْتُهُمَا، فإنْ كان هذا التمثيلُ واقِعًا، وهذا التقريب نافِعًا، والحقُّ في تضاعِيفه واضِحًا، فليَكُنْ ذلك مُطَّرِدًا في بقاءِ نَفْس الإنسانِ التي بها كان إنسانًا، وبها كان يَنْعَمُ في هذا العالَم، وبها كان يَعْلَم ويَعرف ويَحْكُمُ ويُصِيب، ويَجِدُ لَذَّةَ اللّذِيذ من ناحِيةِ العَقْل والحِسّ، وبها كان يَتَمَنّى البقاء والدَّوامَ والخُلود، وإنَّما استحال ذلك التَّمنِّي من أَجْلِ كَوْنه وفَسادِه اللّذَيْن لم يَكُنْ بُدٌّ مِن انتهائهما إلى الفَناء الّذي هُوَ مُفارَقَةُ النَّفْسِ الجَسَدَ وتَخْلِيَتُها للبَدَن، ونِسْبَةُ نَفْسِ الإنْسانِ إلى الإنْسانِ أَوْكَد وأَلْصَقُ مِنْ نِسْبَةِ العَيْن إليه، أَلا تَرَى أَنَّه بالنَّفْس إنسَانٌ، وبالبَدَن حافِظٌ لشَكْل [الإنسان]؛ فإذا كانَ للإِنْسانِ في هذا التّمثيل فائدةٌ متمنّاة، وحالةٌ مَحْبوبَةٌ هنيئة، أعني فِي بقاء العَيْن والأُذُن حتى يُبْصِرَ بإحْدَاهما هذا العالَم المَحْشُوَّ بالآفات، ويَسْمَعَ بالأُخْرَى ما يَجْرِي فيه مِنْ ضُرُوب الاستحالات، فبالحَرِيِّ أن يكون رِضاهُ ببَقاءِ النَّفْس في مَحَلِّ الرَّوْح والأمْنِ، ومَقام الكَرامةِ والسَّكِينة عَلَ حالِ الخُلُودِ والطُّمَأْنينَة، إنَّ هذا لعَجيب؛ وأعْجَبُ مِنْ هذا العَجيب عَقْلٌ لا يَعْلَقُ به، ورُوحٌ لا يَهَشُّ لِسَماعِه، ونفسٌ لا تَجِدُ حَلاوَتَه، وصَدْرٌ لا يتصدّع طَرَبًا عليه، والتياحًا[4] إليه، فإنْ مَنْ لم يشعُرْ بهذِه الفائدة، ولم يَحمَدِ اللهَ على هذه النِّعْمة، لعازبُ الرَّأْي، ضعيفُ العَقْل، خَفيفُ المِثْقال، رَدِيءُ

(١) كذا في (ب) والذي في (أ): «وذنوب»؛ وهو تبديل من الناسخ. ولم يرد قوله: «كثيرة» في (ب).

(٢) في كلتا النسختين: «ذاهبة»؛ وهو تصحيف.

(٣) في كلتا النسختين: «مثلي» بالثاء واللام، وهو تحريف صوابه ما أثبتناه كما يقتضيه السياق÷ وأسمع وأبصر: وصفان للتفضيل.

(٤) الالتياح: الشوق. وفي الأصول: «وارتياحا». وهو تحريف.

الاختيار، قليلُ الحَصَافة، سَيِّئُ النَّظَر؛ حَيَوانٌ خَسِيس، في مَسْكِ إنْسان رئيس؛ فقد بانَ – على مَذْهَبِ التقريب – ما المَعادُ المُشَارُ إليه، وما الإنْسان منه، وما لنَفسه به.

وأمَّا قولُه: وما الفَرْقُ بَيْنَ الأنْفُس، أي نفسِ زيدٍ وعَمْرو وبكرٍ وخالد، وما الفَرْقُ أيضًا بين أَنْفُس أصْناف الحَيَوان، فإنَّمَا الفَرْقُ بَيْنَ هذه الأَنْفُسِ بقَدْرِ قِسْطِ كلِّ واحدٍ منهم منها، وهذه الأقْسَاطُ إذا اجتَمَعَتْ تفَاوَتَتْ، وإذا تفَاوتَتْ كانت منْها نَفْسٌ باقيةٌ حَيّةٌ، ونَفْسٌ فانِيَةٌ مَيّتةٌ، ألا ترى الشمسَ كيف تَطْلُعُ على هذه المواضع المختلِفَة بالعُلْو والسُّفْل، وبالتَّعْريج والاستِقامة، والأشكَالِ الكثِيرة، فيقولُ كلُّ إنسان: مَشْرقَتي أَطْيَبُ منْ مَشْرقَةِ فُلان، وما أَشْبَهَ هذا الكلام، وطلوعُ الشمس على جَميعِها طُلوعٌ وَاحد، ولكنّ حُظوظَ البِقاع منها مُخْتَلِفَة؛ فليس بمُنْكَر [أن تكون] نفسُ زيدٍ أَنْجى مِنَ الكَدَر، وَأَخْلَصَ من الآفة، وَأَوْصَلَ إلى السعادة؛ ونَفْسُ بَكرٍ على خِلاف ذلك، ومَرَاتِبُ هذِه الأنْفُس مَوْقُوفَة على الإضافاتِ الحاصِلةِ لها بأصْحابها، وَالأَنْصِباء المَذْخُورة لها باكتِسابها.

فأمّا أَنْفُسُ أَصْناف الحيَوانِ كالفَرَسِ والحِمار فإنَّها أنفسٌ ناقِصةٌ غيرُ كاملة، وهي ضعيفة، لأَنَّها لم تَجِدْ إلَّا الإحْساسَ والحركَات، لم يَشِعَّ فيها نُورُ النَّفْس الشريفة، ولم يَنْبَثَّ فيها شُعاعُ العَقْل الكَريم؛ فَوَجَب من هذا الوَجْهِ أن تكون تَابعةً لأَبدانها، جَاريةً على فَسادِها وبُطْلانِها، لأَنَّ الحكمةَ انتَهَتْ إلى ذلك الحَدِّ في كَوْنِها حَشْوًا لهذا العالَم وَزِينَةً وَمنَافِعَ وَمبَالِغَ إلى غايَاتٍ وأغْراض.

وأمّا قولُه: وهل المَلَكُ حَيوان، فقد عَلِمْتَ أنَّه يقال له حَيّ، وهذا وَقفٌ على الأَسماء الجارِية، والعادَات القائمة، وكأنَّ الحَيَوَانَ إنما شاعَ في غيرِ المَلَك لما فيه من الحسِّ وَالحَرَكةِ وَالاهْتداءِ وَالتَّصرُّفِ على ما لاقَ بجِنْسِه وَنَوْعِه وشَخْصِه؛ [فأما ما يَعْلُو وَيُنَزَّهُ عن الصفات فلم يُطْلَق عليه حيوانٌ، ولكن يقال]: حيٌّ لأَنَّه أقرَبُ الأَسماءِ إلى المَعْنَى المُشار إليه، وبهذا التَّقْريب قِيل أيضًا لِله: إنَّه حيٌّ، وَأَنْتَ إذا حَدَّدْتَ الحيَّ أو الحياةَ لَم تَقْدرْ على أن تَصِفَ اللهَ [جَلَّ وَعلا] بشيءٍ مِنْ ذلك.. وفي الجملة كُلُّ ما كان أَدْخلَ في البَساطَةِ كان أَخْرَجَ من التَّرْكيب، وكُلُّ ما كَان أَخْرَجَ مِنَ البَساطَة كَان أَدْخَلَ في التَّرْكيب.

فأمّا المركَّبُ الّذي ليس له من البسيط إلا النَّصيبُ النَّزْر، وَإلاّ طَيْفُ الخَيال، فاسمه واضح والإشارة إليه سَهْلة، والعِيانُ له مُدْرِك، لأنّه مُحاطٌ بحُدُوده في طُولِه وعَرْضِه وعُمْقِه.

وأما المُرَكَّبُ البَسيطُ الّذي ليس له من التركيب إلّا النَّصِيبُ اليَسير، فاسمُه غامِض، والإشارة إليه عَسِرة، والعِيانُ عنه مَكفُوف؛ وهذا بابٌ إذا حُفِظَ فُهِمَ منه شَيْءٌ كثيرٌ مما يَقَع فيه الغَلَطُ مِن الإنسان بفكْره الرَّدِيء؛ ويَنْفَع أيضًا نَفْعًا بَيِّنًا في التَّغَالُطِ العارِض بين المُتَنَاظِرين على جِهَةِ التَّنافُسِ والتَّناصُف.

قال أبو سليمان: مَن حَرَسَ هذا الثَّغْرَ أَمِنَ مِنْ جميعِ الأعْدَاء، ومَنْ أَهْمَله كانت جِنايَتُه على نَفْسه بيَدِه أَعْظَمَ مِنْ جِنايةِ عَدُوِّه الثائرِ من ثَغْره.

وَأَمَّا قولُه: على أيِّ وَجْهٍ يقال لِلهِ حيٌّ والمَلَكِ حيٌّ والفَرَسِ حيٌّ، فقد دخل الجوابُ عنه في ضِمْنِ ما تَشَقَّقَ القَوْل به، وتَحَقّقَ المعْنَى عليه في حديثِ المركَّبِ والبَسيط؛ ونَزِيدُ هاهُنا حَرْفًا يكونُ رَدِيفًا لما تَقَدَّمَ، فنقول: أَمَّا الإنسان فإنَّه يقال له: حيٌّ بسبَب الحِسِّ والحَركة وما يتبَعُهما ممَّا هو كمالُ الحيِّ، وكذلك الفَرَسُ وما أَشْبَهَه. وأَمَّا المَلَكُ فلمّا كان ما يَسْتَحِقّه ببَساطته مَعْدُومًا عندنا، لم نَقْدِرْ على شيء نَصِفُه به إلَّا ما نَصِفُ بِهِ أَنْفُسَنا بَيْننا، ولو كُنَّا في عالَمِ المَلَكِ لعلَّنا كُنَّا نَدْري بأيِّ شيءٍ يَنْبَغي أن يُنْعَتَ وَيُسَمَّى وَيُذْكَرَ ويُحْكى، فإنَّ مَن كانَ مِنَّا في بلادِ الصِّين فإنّه يُسمِّي الإنسانَ وَالفَرَسَ وَالحِمارَ والبَقَرَ بها بِتَعالُم أَهْلِهَا بينهم، وإذا كان هذا مُعْوزًا على ما تَرَى في المَلَك، أَعْني تَسْمِيَتَه الحَيّ، وَنَعْتَه بالحَيَاة، فاللهُ الذي لا سبيلَ للعقْلِ أنْ يُدركهُ أو يُحيطَ بِهِ أو يَجِدَه وِجْدَانًا أَوْلَى وَأحْرَى أن يُمْسَكَ عنه عَجْزًا وَاستِخْذَاءً، وَتَضَاؤُلًا وَاسْتِعْفَاءً، إلا بما وَقَعَ الإذْنُ به من جِهَةِ صاحِب الدِّين الّذي هو مالِكُ أَزِمَّة العقول وَمُرشِدُها إلى السَّعادات، وواقِفُها عِنْد الحُدُود، وَزَاجِرُها عَنِ التّخَطِّي إلى ما لا يَجُوزُ. فعَلى هذا قَدْ وَضَحَ أَنْ الصَّمْتَ في هذا المكانِ أَعْوَدُ على صاحبِهِ من النُّطْقِ، لأنَّ الصَّمْت عن المَجْهُولِ أَنْفَعُ من الجَهْلِ بالمَعْلوم، والتظاهُرَ بالعَجْزِ في مَوْضِعِه كالاستِطالة بالقُدْرَة في مَوْضِعِها، وليس لِلْخَلْقِ

من هذا الوَاحِدِ الأحَدِ إلا الإنِّية والهُويّةُ، فأما كَيْفَ ولِمَ وما هُو فإنها طائرةٌ في الرِّياح كما تَسْمَعُ وتَرَى.

ولما حَرَّرْتُ هذه الجُمْلَة وحَمَلْتُهَا إلى الوَزير وقرأتُها عليه قال لي: هذا واللهِ جُهْدُ المُقِلّ، وفي غَلِيلِي بَقِيَّةٌ من اللّهَب.

قلتُ: أيُّها الوَزير، قال أبو سليمان: سنقول لك كلامًا لا يَكون فيه كلُّ الرِّضا، فقُلْ له عِنْد ذلك: إنّكَ سَألْتَ عن العالَم بأسْره، فلا طاقَةَ لِأحَدٍ أنْ يَعْرِضَ عَلَيْكَ العالَمَ بأَسْرِهِ، ولولا عَجَلةُ رَسُولِكَ في المُطَالَبَة، وإدْلاَله بالإلحاح، وقوله: المُرادُ التَّقريبُ والإيجاز، لا التَّطْوِيلُ والإسْهاب، لكان النَّسْجُ على غَيْرِ هذا المِنْوال، والعمَلُ على غير هذا الوَشْي. قال: ومن المَعالِم الَّتي ليس لها ناظر، ولا بها خابِر، أنّ السائل يحضُّ على التَّلخيص المَفْهُوم، ولعلَّ ذلك يزيدُ الشيءَ إغْلاقًا، فإن امْتُثِل ما يَرْسُمُ، قال: ما شَفَانِي القول؛ وإنْ زِيدَ على ذلك قال: غَرقَ المُرَادُ في حَوَاشِي التَّكثير؛ فليس للعالِم تَخَلُّصٌ من استزادة المتَعَلِّم، ولا عند المتعلِّم شُكرٌ على مَبْذولِ جُهْدِ العالِم، وهذا أَمرٌ قد تَقَدَّمَتْ الاستغاثة منه على مَرِّ الدُّهُور، والأَوْلَى فيما لا حِيلة فيه الرِّضا بالمَيْسُور منه.

ثم قال: وإن أطال اللهُ أيامَ هذه الدَّولة، وحَرَسَ على هذه الجماعَةِ القَلِيلَة النِّعْمة، استأنفْنا نَظَرًا أَبْلَغَ مِنْ هذا النّظَر، ببيَانٍ أَشْفَى مِن هذا البَيَان، وطريق أوْضَحَ من هذا الطريق – إن شاء الله.

قال الوزير: والله ما قلتُ قَوْلِي ذاك، لأنَّ هذا الكلامَ سَهلٌ، وهذا المُتَنَاولَ قريب، وهذا المرْمى كَثَب، كلاَّ، وإنِّي لأظُنُّ بَلْ أَحُقُّ أنه ليس في بضائع أصحابنا الذين حَوْلِي مَنْ يُدْرك هذِه المعاني على هذِه الصِّفَة إذا قُرِئَتْ عليه، فكيف مَنْ[1] يُفرَعُ[2] في شَرْحِها وتَهْذِيبِها إليه. ثم تَمطَّى وقال: وانُعَاسَاه، واضَعْفَ مُنَّتَاه؛ ثم فارَقتُ المجلس.

(١) الظاهر أن «من» زائدة.

(٢) وردت هذه الكلمة في (أ) مهملة الحروف من النقط، ووردت في (ب) هكذا «نقرع».

الليلة السادسة والثلاثون

وقال - دامت أيّامه - كيف تَقُولُ عِنْد مُهَلِّ الشَّهْر شَيئًا آخَرَ مِن لَفْظِه؟ فكان من الجواب: حَكَى العالِم: عند هُلولِ[1] الشَّهر ومُسْتَهَلِّه [وَهِلِّه] وإهْلاَلِه واسْتِهلاَلِه.

قال: ورأيتُ الحاتميَّ يقول: عَشْرُ كلماتٍ جاءتْ وعَيْنُها عيْنٌ ولاَمُهَا وَاوٌ، ولم أُوثِرْ شَرْحَه لها لِثِقَل رُوحِه، ومُغَالاتِه بنَفسه، وكأنّه لا عِلْمَ إلَّا عندَه، ولا فائدةَ إلَّا هيَ مَعه، فهَلْ في حِفظِكَ هذه الكلمات؟

قلت: لا إله إلَّا الله، اليومَ ذكَرَ الأندلسيّ هذه الكلماتِ وعَدَّها، وقد حَفِظْتُها، فقال: هاتِ يا مُبارَك؛ فكان الجواب: منها البَعْو، وهو الجِناية، والجَعْو، وهو الطِّين، والدَّعْوُ، مَصْدَرُ دَعَا دَعْوًا، والسَّعْوُ: الشَّمَع، والشَّعْوُ: هو انتفاش الشَّعْر، والصَّعْو: الرَّجل الضعيف، وهو أيضًا طائرٌ أَصْغَرُ مِنَ العُصْفُور، والقَعْوُ: مِنَ البَكْرَة، واللّعْو: الحَرِيص. والذِّئْبُ في بَعْضِ اللُّغاتِ، والمَعْو[2]: الجَنِيُّ من الرُّطَب، والنَّعْو: الشَّقّ في مِشْفَرِ البَعِير.

قال: هذا حَسَن، لو أتَى به الحاتِميُّ لَلَوَى شِدْقَه، وقال: تَنَحَّ فقد جاءَ الأسَد وغَلَبَ الطُّوفانُ وخَرَجَ الدَّجَّال وطَلَعَت الشمسُ مِن المَغْرِبِ، ما بالُ أَصْحَابِنَا تَعْتَرِيهِمْ هذِه الخُيَلاَءُ، ويَغْلِبُ عليهم النّقْص، ويَسْتَمْكِنُ منهم الشَّيْطَان.

قلت: قال أبُو سُلَيْمان: كلّ مَنْ غَلَبَ عَلَيْه حِفْظُ اللَّفْظِ وَتَصْرِيفُه وأَمْثِلَتُه وأَشْكالُهُ بَعُدَ من مَعَاني اللفظ؛ والمعاني صَوْغُ العَقْل، واللّفظُ صَوْغ اللِّسَان،ومن بَعُدَ من المَعانِي قَلَّ نَصِيبُه من العَقْل، ومَن قَلَّ نَصيبُه من العقْل كَثُرَ نصِيبُه من الحُمْق، ومن كَثُرَ نصيبُه من الحُمْق خَفِيَ عليه قُبْحُ الذِّكْر.

---

(١) لم نجد الهلول فيما راجعناه من كتب اللغة، ولعل صوابه «هلال» أو لعله من الألفاظ التي انفرد المؤلف بروايتها عن مشايخه.

(٢) في كلتا النسختين «واللغو» باللام؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة.

الليلة السابعة والثلاثون

وقال الوزير ليلةً: ما أحوَجَ الجَبَانَ إلى أنْ يَسْمَع أحاديثَ الشُّجْعان! وما أَشَدَّ انتفاعَ الضَّيِّق النَّفْسِ باستماعِ أَخْبَار الكِرام، لأنّ الأخلاق في الخَلْقِ أَعْرَاض، والأعراضُ منها لازِمٌ ومِنها لاصِق.

قال: وكان[1] عيسى بن زُرْعَةَ سرَدَ عَلَيَّ سنَةَ سَبْعِين، ليالِيَ كانَت الأشغال خفيفة، والسِّياحة بالماضِي - نَوَّرَ اللهُ قبرَه وضَريحَه - عامَّة، والنَّظَرُ بالْحُسْنَى شامِلًا - أَشْيَاءَ في الخُلُق أتَى بها على عَمُودِ ما كان في نَفْسي، وذلك أنه ذَكَرَ العقْلَ والحُمْقَ، والعِلْمَ والجَهْلَ، وَالحِلْمَ وَالسُّخْفَ، والقَنَاعةَ والشَّرَه، والحَيَاءَ والقِحَة، والرَّحْمَةَ والقَسْوَة، والأمانةَ والخِيَانة، والتَّيَقّظَ والغَفْلَة، والتُّقَى والفُجُور، والجُرْأَةَ والجُبْن، والتواضُعَ والكِبْرَ، والوَفاءَ والغَدْر، والنصيحةَ والغِشّ، والصِّدْقَ والكَذِب، والسَّخَاءَ والبُخْل، والأَناةَ والبَطْش، والعَدْلَ والجَوْر، والنَّشَاطَ والكَسل، والنُّسكَ والفَتْك، والحِقْدَ والصَّفْح، ويَنْبَغي أن تَزُورَ عيسى وتَذْكُرَ له هذه الجُمْلَة، وتَبْعَثَه على إعادَةِ حُدُودِها، وإشْباعِ القَوْل فيها، مع إيجازٍ لا يكون به مَدْخَلٌ للخِلَل، ولا تَقْصِيرٌ عن إيصالِ الآخِرِ بالأوَّل.

فلقِيتُ عيسَى وعرَّفْتُه الحديث، وأَمْلَى ما رَسَمْتُه في هذا الجُزْء، وعرَضْتُه على أَبي سُلَيمَانَ، فرَضِيَه بَعْضَ الرِّضَا، ولم يَسْخَط كلَّ السُّخْط، وقال: تحديدُ الأخلاق لا يَصِحُّ إلَّا بضَرْبٍ من التجوُّز والتسَمُّح، وذلك أنَّها مُتَلابسَةٌ تَلابُسًا، ومُتَدَاخِلَةٌ تَدَاخُلًا، والشيءُ لا يَتَميَّزُ عن غَيْرِهِ إلَّا ببَيْنُونَةٍ واقِعَةٍ تَظْهَرُ للحِسّ اللَّطيف، أو تَتَّضِحُ لِلعَقْل الشَّريف.

ثم قال: [ألا ترى] أنَّ الفِكْرَ مشُوبٌ بالرَّوِيّة، والظَّنَّ مَخْلُوطٌ بالوَهْم، والذِّكْرَ مَعْنِيٌّ بالتَّخَيُّل، والبديهةَ جانحةٌ إلى الحِسّ، والاسْتِنْبَاطَ مَوْصوفٌ بالغَوْصِ، وما[2] هذا المعنَى

(١) في (أ) «ولو كان»؛ وقوله «لو» زيادة من الناسخ.

(٢) في كلتا النسختين: «ومن هذا»؛ وهو تحريف.

الذي مَيَّزَ التَّواضُعَ من شَوْبِ الضَّعَة، أو خَلَّصَ عُلُوّ الهِمَّة من شَوْبِ الكِبْر، أو فَرَزَ[1] عِزَّةَ النَّفْسِ من نَقْصِ العُجْب، أو أَبانَ الحِلْمَ عن بَعْضِ الضَّعْفِ؟! هذا بالقَوْل ربّما سَهُلَ وانقادَ، ولكِنْ بالعقْلِ رُبَّمَا عزَّ واعتاصَ، والأَخْلاَق والخِلَقُ مُخْتَلِطَة، فمنها ما اختلاطُه قَوِيٌّ شديد، ومنها ما اختلاطُه ضعيفٌ سَهْلٌ، ومنها ما [اختلاطُه] نَصَفٌ بين اللِّين والشِّدَّة، وهذه يَنْفَعُ العلاجُ في بَعْضِهَا، ويَنْبُو العِلاَج عن بَعْضِها؛ والحزْمُ يَقْضِي بألاّ يُتَهاوَنَ بما يَقْبَلُ العِلاَج لِأَجْلِ ما لاَ يقْبَلُ العِلاَج.

قال: وهذا أيضًا يَخْتَلِفُ بحَسَبِ المِزَاج والمِزَاج، والإنسانِ والإنسان، ألاَ ترَى أنَّكَ لوْ رُمْتَ تَحْويل البخيلِ مِنَ العَرب إلى الجُودِ كانَ أَسْهَلَ عليكَ من تحْويل البخيل من الرُّوم إلى الجود، والطَّمَع في جَبَان التُّرْكِ أَنْ يَتَحَوَّلَ شُجَاعًا أَقْوَى من الطّمَع في جَبَانِ الكُرْدِ أَنْ يَصِيرَ بَطَلًا.

قال: ومع هذا فَوَصْفُ الأَخْلاَقِ بالحدُودِ - وإنْ كان على ما قَدَّمْنَاه - نافِعٌ جدًّا، وإِضْمَارُها في النَّفْسِ مُثْمِرٌ أبدًا، فهذا هذا.

وأما ما قالَ أبو عَلِيٍّ فإنّهُ هذا.

قيل: ما الحلم؟ قال ضَبْطُ الفكْرِ بِكَفِّ الغَضَب.

وقال شيخُنَا أبو سَعِيد السِّيرَافيّ: اعتباره من ناحِية الاسم تعْطِيلٌ لِطَبْعِهِ[2] وذلك أنَّ الحِلْم شَرِيكُ التَّحَلُّم، «فكان الحليم [الّذي] يُعَدُّ فيمن يَحْلُم[3]» في عُرْضِ الحليم الّذي لا يُعاجُ عليه ولا يُكْتَرثُ له. قال: والتَّحَلُّمُ نافِعٌ أيضًا، وهو أَحْمَدُ من التَّحالُم، لأنَّ الثاني أَقْرَبُ إلى التَّأَنِّي، كما أنَّ الأوّل أَقْرَبُ إلى الحقيقة.

وقيل لعيسى: ما العَدْلُ؟ فقال: القِسْطُ القائمُ على التّساوي.

---

(١) في كلتا النسختين: «أو قرن»؛ وهو تحريف.

(٢) في الأصل «لطيفة»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٣) وردت هذه العبارة في كلتا النسختين مضطربة اللفظ لا يفهم المراد منها، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا، كما ورد في (ب) «هو» قبل كلمة «الذي».

وحَكى جالينُوس قال: إن الناسَ لشِدَّةِ حُبِّهِمْ لأنفسهم يظُنُّون أنَّ لهم ما يُحِبّون، فمن أجل ذلك وقعوا في العُجْب؛ فَيَنْبَغي أن تكونَ مَحَبَّتُكَ لنَفْسك حَقِيقِيّة، ويتِمُّ ذلك لك إذا أنْتَ صيَّرْتَ نَفْسَكَ على الحالِ الّتي يَرَى من يَرَى أنّكَ عليها.

[وقال: المُعْجَبُ] يُحِبُّ نفْسَه أكْثَرَ ممَّا يَحقُّ لها؛ وما أحْسَنَ بالإنسان أن يُحِبَّ نَفْسَه، ولكن بالعَدْل، فإن أرادَ أن يحبَّها جِدًّا فيَجبُ أن يَجْعَلَها مِن أَهْلِ المَحَبة، ثم يُحبُّها مِنْ بَعْد.

قيل: فما الحَسَد؟ قال: شِدّةُ الأسَى على شيء يكونُ لغَيْرِه.

قيل: فما الكآبة؟ قال: إفراطُ الحُزْنِ.

قال أبو سليمان: الحُزْن والغَمُّ وَالهَمُّ وَالأسَى وَالجزعُ وَالخَوَر مِنْ شجرةَ واحدة، وَمَن تَعاطَى وَصْفَ أغْصَانِ شَجَرة طالَ عليه، وَلم يَحْظَ بطائل، وَيكفي أن نَعْرف شجرَةَ التُّفّاحِ من شجرةِ المُشْمُش، وشجرةَ الكُمَّثْرى مِنْ شجرَةِ السَّفَرْجَل؛ فإنّ عَواقِبَ المعارِفِ نَكرات، كما أنّ فواتحَ المعارِف جَهالات.

قيل: فما الشَّجاعة؟ قال: الإقْدَامُ في مَوْضع الفُرْصَةِ منْ جميع الأمُور.

قال أبو سليمان: الشجاعة إذا كانت نُطْقِيّةً[1] كانت فُرْصتُها تعاطِيَ الحِكمة وَالدءوبَ في بُلوغ الغايَة، وبَذْلَ القُوَّة في نَيْلِ البغيَة؛ وَإذا كانت غضبيَّةً كانتْ فُرْصَتُها شِفاءَ الغَيْظِ إمّا منْ مُسْتَحِقّ، وإما من غير مُسْتَحِقّ، وإذا كانت شَهَوِيّةً كانت فُرْصَتُها التَّحَلّيَ بالعفّة التامّة، أعني في الخَلْوَة والحَفْل.

قال لنا أبو الحسن عليُّ بنُ عِيسَى الرُّمّانيُّ الشيخُ الصالحُ: العِفّةُ واسِطَة بين المُقَارَفَة والعِصْمَة، والعِصْمَة واسطةٌ بين البَشَرِيّة والمَلَكِيّة.

وحَكى عيسى بنُ زُرْعَة في هذا الموضع – عند تَدافع الحَديث – أن مُورِيسَ[2] قال: إنِّي لأعْجَبُ مِن ناسٍ يقولون: كان يَنْبَغي أن يكونَ الناسُ على رَأيٍ واحد، ومنهاج واحد،

(١) نطقية: أي فكرية.

(٢) لعله: أمورس.

وهذا ما لا يَسْتَقيم ولا يَقَعُ به نظام.

قال: وهَبْ أن يكون الناسُ وكلُّ واحدٍ منهم مَلِكًا يأمُرُ ويَنْهَى ويُسْتَمَع له ويُطاع، فَمَن كان المَأمُورَ المؤتمِر، والمَنْهِيَّ المُنْتَهِي؛ والعاقلُ الحَصِيفُ يَعْلَمُ أنه لا بدَّ من التفاوت الّذي به يكون التَّصالحُ، كالعالِم والمُتَعَلِّم، والآمِرِ والمَأمور، والصانعِ والمصنوعِ له.

ثم قال عيسى: مِن توابِعِ الأخلاقِ المَذْمُومَة الغَضَبُ والكَذِبُ والجهْلُ والجَوْرُ والدَّناءَةُ.

قال أبو سليمان: أمَّا الغَضَب فلا يكون مَذْمُومًا إلَّا إذا أُعْمِل في غير أوانِه، وعلى غيْر ما يَأذَنُ النامُوسُ الحَقُّ به؛ وأمَّا الكَذِبُ ففيه أيضًا مَصالِحُ، كما أنَّ الصِّدْقَ ربَّما أَفْضَى إلى كثير من المَفَاسِد - وإن كانَ الصِّدْقُ قد فازَ بالوَصْفِ الأحْسَن، والكَذِبُ قد وُصِف بالنعْت الأقْبَح - فكَمْ كذِبٍ نجَّى مِنْ شرّ، وكَمْ صِدْقٍ أَوْقَعَ في هُوَّة، وبقَى الآنَ أَنْ نَعْرِفَ الصّدقَ مع أوانِه ومَكانِه، فيُؤتَى به أو يُنْهَى عنه، وكذلك الكَذِبُ على حَذْوِهِ ومِثالِه.

قال: وأمَّا الجهْلُ والجَوْرُ والدَّناءةُ فإنَّها أَثافِيّ الرَّذائِل، فَيَنبَغي أن يُنْتَفَى منها جُمْلةً وتَفْصيلًا، ولا يَسْلُكُ أَحَدٌ إلَى شيء منها[سبيلا] فإنها أَعْدام؛ - هكذا قال -؛ والعَدَم كَريهٌ ومَهْروبٌ منه، والوجودُ على أَنْقَص النُّعوتِ أَتَمُّ وأَشْرفُ مِنَ العَدَم على أَزْيَد الصِّفات، وإن كان لا زِيادة في العَدَمِ إلَّا من طَريقِ الوَهْم العارِضِ ما يَصِحُّ وما لاَ يصِحُّ.

قيل: فما العُجْب؟ قال وَزْن النفسِ بأكثر من مِثْقالها.

وقال أيضًا: العُجْبُ هو النَّظَر في النَّفْس بعَيْن تَرَى القَبيحَ جمِيلًا.

ويقال: المعْجَبُ يَدَّعِي أَنَّ ما يَنْبَغى أَنْ يُعْجَبَ منه قد حَصل لَه مِنْ غَير أَنْ يَكُونَ كَذلك؛ فأمَّا إذا كان ذلك حاصِلًا فالعُجْبُ ليس بعُجْبٍ إلَّا مِنْ طريق الاسم، وإلَّا فهو في الحقيقة إِحْساسٌ بالفَضْل المَعْشُوق، وشُعورٌ بالكمالِ المَوْمُوق، واستِدْعَاءٌ للزّيادَةِ مِمّا صارَ به هكذا، واستعدادٌ لقبول الفَيْضِ من مَعْدنِهِ بالاختيار الثاني والاعتياد الأوَّل.

قيل: فما الوَفاء؟ قال قَضاءُ حَقٍّ غيرِ واجب، مع رِقَّةٍ أُنْسِيّة، وحفيظةٍ مَرْعيّة.

قيل: فما الرَّغْبَة؟ قال: حركةٌ تكونُ مِنْ شَهْوَةٍ يُرْجَى بها مَنْفَعة.

قال أبو سليمان: الرَّغْبَةُ إذا كانت نُطْقِيّةً كانت مَبْعَثَةً على التَّحَلِّي بالفَضائِل، وإذا كانت سَبُعِيّةً أو بَهيمِيَّةً كانت مُلْهِجَةً بمُوَاقَعَةِ أضْدادِها[1] مِن الرَّذائِل.

وقيل: ما المِهْنَة؟ فقال: حركةٌ يَتَعاطَاها الإنسانُ بلا حَفْزٍ ولا استِكْرَاه.

قال عليُّ بنُ عيسى: المِهْنَةُ صِناعة، ولكنها [إلى الذلّ أقرب، وفي الضَّعَة أدخل، والصناعة مِهْنة، ولكنَّها] تَرْتَفِعُ عن تَوَابِعِ المِهْنَة، وفي الصِّناعات ما يَتّصِلُ به الذُّلُّ أَيْضًا، ولكن ذُلٌّ ليس من جهةِ حَقِيقةِ الصِّناعة؛ ولكن مِنْ جِهَةِ العَرْضِ الذي بين الصِّناعة والصناعة، والمرتبة والمَرْتَبة.

قيل: فما العادة؟ قال: حالٌ يأخذ بها المرء نفسَه من غَيْر أنْ تكون مَسْنُونَةً يَجْرِي عليها مَجرَى ما هو مَألوفٌ طَبِيعيٌّ.

قال أبو سليمان: كأنّ هذا الاسمَ ليس يَخْلُصُ إلَّا لمن أَتَى شيئًا مِرارًا، فأمّا في أَوَّل ذلكَ فليسَ له هذا النعت، وإنَّمَا يَصيرُ مَألوفًا بالتّكرار، ولهذا ما صِيغَت الكلمةُ مِنْ عادَ يَعُودُ واعتادَ يَعْتاد.

وأمَّا قولُه: طَبِيعيّ، فعَلَى وَجْهِ التَّشْبيه، لأن الطبيعيَّ أَشَدُّ رُسُوخًا وَأَثْبَتُ عِرْقًا، وَأَبْعَدُ مِن الانتِقاض؛ فأمَّا العادةُ فكُلُّ ذلك جائزٌ عليها، وَغيرُ مَأْمُون من الوُقوع فيه.

قيل: كم الحركات؟ قال: ستّةُ أصناف، أوَّلها حركةُ الانتقال، وهي ضَرْبان: إمَّا حَرَكَةُ الجسْم بكُلِّه مِنْ مَكان إلى مكان، وَإمّا حَرَكتُهُ بأجزائِهِ كالفَلَك وَالرَّحَى، والثاني حَرَكةُ الكَون، والثالث حَرَكةُ الفَساد، والرابع حَرَكةُ الرُّبُوّ[2]، والخامسُ حَرَكةُ النَّقْصِ وَالبِلَى، والسادِسُ حَرَكةُ الاستِحالة، وهى ضَرْبان: أمّا في الجِسْم فَمِثْلُ اللّوْن، وأمَّا في النَّفْسِ

(١) أضدادها، أي أضداد الضائل.

(٢) في كلتا النسختين: «الدنو»، وهو تصحيف. والربو: الزيادة، وقد أثبتنا هذه الكلمة أخذًا مما يأتي بعد في توضيح هذه الحركات، من قوله: «ولنمو» وإنما أثبتنا هنا الربو بالراء والباء لقربه من حروف الأصل.

فمِثْلُ الغَضَبِ والرِّضَا، والعِلْم [والجَهْل[1]].

وَالنُّقْلَةُ مَكانِيّة، وَالكَونُ وَالفَساد جَوْهَريّان، وَالاستحالة هَيْئِيّة، والنموُّ والاضْمِحْلالُ[2] مَكانِيّان.

قال الكِنْدِيّ: وَها هنا حَرَكةٌ أُخْرَى، وَهي حَرَكةُ الإبداع، إلاّ أَنّ بَيْنَها وَبينَ حَرَكةِ الكَوْنِ فَرْقًا، لأَنّ هذه لا مِنْ موضوع، وَحركة الكَونِ من فسادِ جَوْهرٍ قَبْلَه بحُدُوثه، وَلذلِك قيل: إن الكون خُروجٌ من حالٍ خَسِيسَةٍ إلى حال نفيسة.

قال أبو سليمان: حَرَكَةُ الإِبْدَاع عِبَارةٌ بَسِيطةٌ لا يَجبُ أَنْ يُفْهَم[3] منها مَعْنًى مُرَكَّب. قال: وَإِنَّمَا قلتُ [هذا] لأَنّ اللَّفْظَ نَظِيرُ اللَّفظِ في أَغْلَبِ الأَمر وَليس المَعْنَى نَظِيرَ المَعْنَى في أَغْلَبِ الأَمْر، وَاللَّفظ كلُّه من وَادٍ وَاحد في التركب بلُغَة كلّ أُمَّة، وَالمَعَاني تَخْتَلف في البَساطة على قَدْرِ العقْل[4] وَالعَقْل، وَالعاقِل والعاقل، وَإِنَّمَا حَرَكةُ الإِبْدَاع مُشارٌ بها إلى مقوِّم الأَشياءِ بلا كُلْفَة فاعِل، وَلا مُعاناةِ صانع، وَإِنَّها بَدَتْ بالمُبْدِع مِن المُبْدِع للمُبْدع لا عَلَى أَنَّ الباء أَلْصَقَتْ به شيئًا، وَلا على أَنَّ [مِنْ] فَصَلَتْ مِنْهُ شَيْئًا، وَلا على أَنَّ اللاَّم أَضَافَتْ إليه شيئًا، فإِنَّ هذِه العلامات وَالأَمارات كلَّها مَوْجُودَةٌ في الأَشياءِ الَّتى تعَلَّقت بالإِبداع، فلَم يَجُزْ أَنْ يُنْعَتَ بها المُبْدِع، وَلو جاز هذا لكانَ داخِلًا فيها، وَموجودًا بها، وَهذا بعيدٌ جدًّا. فلمّا جَلَّ عن هذه الصِّفات بالتَّحقيق في الاختيار وُصِفَ بها بالاستِعارَة على الاضطرار، لأَنّه لا بدَّ لنا من أَنْ نَذْكرَه وَنَصِفَه وَنَدْعوَه وَنَعْبُدَه وَنَقْصدَه وَنَرْجُوَه وَنَخافَه وَنَعْرِفَه وَنَنْحُوَه وَنَطْلُبَ ما عِنْدَه وَنُوَاجهَه ونكافِحَه[5]؛ وَهذه نعمةٌ منه عَلَيْنا، وَلُطفٌ منه بنا، وَحكمةٌ بينَه وَبَيْننا وَإلا كانت العِصْمَةُ تَنْبَتِر، وَالطمعُ يَنْقطِع، وَالأَمَل يَضْعُف، وَالرَّجاءُ

(١) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها لم ترد في كلتا النسختين، والسياق يقتضي إثباتها إذ لا تتحقق الاستحالة إلا بين الشيء وما يخالفه.

(٢) يشير بالاضمحلال هنا إلى ما سبق من حركة النقض والبلى، وهي الخامسة.

(٣) في (ب): «يظهر» مكان «يفهم».

(٤) في (ب) على قدر اللفظ، وفيه تبديل من الناسخ.

(٥) المكافحة: المواجهة والملاقاة.

يَخِيب، وَالأَركان تَتَخَلْخَل، وَالذَّرائِعُ ترتفع، وَالوَسائلُ تَمْتَنع، والقَواعدُ تَسِيح، وَالرَّغَبات تَسْقُط، وَالجود وَالكرَمُ والحِكْمَةُ والقُدْرَة وَالجَبَرُوتُ وَالمَلَكُوتُ تَأْبَى ذلك؛ فصارَتْ هذه الأَسْماءُ وَالصِّفاتُ سَلالِمَ لنا إليه، لا حقائقَ يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ به شَيءٌ منها، على سبيل[1] السِّياج المَمْدُود، وَالمِنهاج المَحْدُود.

سُقْتُ كلامَ عِيسَى في تَصْنِيفِ الحَرَكاتِ من أَجْلِ هذِه الفِقْرَة الّتي كانت مَحْفَوظَةً في حَرَكةِ الإبداع، فإني قد وَجدتُ للقَوم في هذا الباب حَيرةً عارِضَة أو راكدةً، لا يَسْتَطيعون التَّفَصِّيَ عنها، ولا يَقْدِرون على البراءة منها، للضّلال الذي قد لَزِمَهُم، والأصنام الّتي قد تربَّعَتْ في نُفُوسِهم، والأمْثِلةِ الّتي قد خَالَطَتْ عُقُولَهم، والأَفْياءِ الّتى استَصْحَبوها مِنْ إحْساسِهِمْ؛ والقائل هذا ينبغي أن يتحرَّى وَيَتَلَبَّث حتّى يَعْرَى مِنْ هذه الأشياء وَيتَرَيَّث؛ فحينئذ أَضْمَنُ له أنْ يَصِحَّ توحيدُه، ويَتِمَّ تَجْرِيدُه، وإلى التوحيد تنتهي الفَلْسَفَةُ بأجزائها الكثيرة، وأبوابِها المختلفة، وطُرُقها المتشَعِّبَة.

وأَنَا أَعوذُ بالله من صِناعةٍ لا تُحقِّق التَّوحيد ولا تدلّ على الواحد ولا تَدْعُو إلى عِبادته، والاعترافِ بوَحْدانيّته، والقِيامِ بحُقوقِه، والمَصير إلى كَنَفِه، والصبرِ على قضائِه، والتسليم لأمره؛ ووَجَدْتُ أربابَ هذِه الصناعَات، أَعْنِي الهنْدَسَة والطبَّ والحسابَ والمُوسِيقَى والمَنْطِقَ والتَّنجيمَ مُعْرِضين عن تجَشّم هذه الغَاياتِ، بل وجَدْتُهم تارِكين الإلمامَ بهذه الحانَات، وهذه آفَةٌ نَسْأَلُ اللهَ السَّلاَمَةَ منها، والعَافِيَة من عَواقِبها؛ والسلام.

قيل: ما التَّمام؟ قال: بلوغُ الشيء الحدَّ الّذي ما فوقه[2] إفراط، وما دُونَه تَقْصِير.

قال أبو سليمان: التمام أَلْيَقُ بالمْحْسُوسَات، والكمالُ أَلْيَق بالأشْياء المعْقُولة.

قال: وليست هذه الفُتْيَا مِنِّي جازمة، ولا عن العَربِ العَارِبَةِ مَرْوِيَّة، ولكن إذا لَحَظْنا المعانيَ مُخْتَلِفَة، طلبْنا لها أسماءَ مُخْتَلِفَة، ليَكُون ذلك مَعونَةً لنا في تَحْديد الأشْياءِ أَوْ

(١) في كلتا النسختين «لا علي سبيل» الخ. وقوله «لا» زيادة من الناسخ كما يلوح لنا.
(٢) ما فوقه، أي الذي فوقه. وكذلك أيضا «وما دونه».

فِي وَصْفِ الأشْياء من[١] طريقِ الإقناع الكافِّ[٢] للجَدَل والتهْمة، أو من طريق البُرْهان الساطِع بالحجَّة، الرافع للشّبْهة، أو مِنْ طَرِيقِ التَّقْليد الجاري على السَّنَنِ والعادة.

قال: ولهذا [إذا] قيل: ما أَتَمَّ قامَته! كان أحْسَن، وإذا قيل: ما أَكْمَلَ نَفْسَه! كان أَجْمَل.

قيل له: هل يَتَساوى الكَوْنُ والفَساد فيَبْقَى الشيءُ على ما هُوَ به؟ فقال: أمّا على الحقيقة فلا؛ ولكنْ[٣] على السَّعَة، لأنَّ الكَوْن متصل بالفساد، إلا أنهما يخفيان في مَبادِئهما حتى إذا امتدّ الآنان[٤] فصارَ آنًا[٤] واحدًا فحينئذٍ بانَ الكَوْنُ مِن الفساد، وبان الفَسَادُ من الكَوْنِ، وهذا بالاعتبار الحِسِّيّ؛ فأمّا العَقل فَيرْتَفِعُ عن هذا، لأنّه يَعلم حقيقة الشّيء على ما هُو عليه، ولا يَقبل من الحِسِّ حُكْمًا، ولا يَحْتَكِمُ إليه أبدًا.

وإنّما الحسُّ عامِلٌ من عُمّالِ العَقْل. والعامِلُ يَجُورُ مَرَّةً وَيَعْدِلُ مَرّة، فأمّا الذي هذا هُوَ عامِلُه فهو الذي يتعَقَّبُه، فإنْ وَجَدَهُ جائرًا أبْطَلَ قضاءَه، وإنْ وَجَدَه عادِلًا أَمْضَى حُكْمَه، ومتى استُشِير الحسُّ في قضايا العقل فقد وُضِعَ الشيءُ في غَيْر مَوْضِعِه، ومتى استُشِيرَ العَقْلُ في أحْكام الحسِّ فقد وُضِعَ الشيءُ في مَوْضِعِه.

قيل: فما الصُّورة؟ قال: الّتي بها[٥] يَخْرُجُ الجَوْهَرُ إلى الظّهُورِ عِند اعتِقاب الصُّوَرِ إيّاه.

قال أبو سليمان: هذه الفُتْيا جُزافِيَة، الصُّوَر أَصْناف: إلهيّةٌ وعَقليّة، وفَلكيّةٌ وطَبيعيّةٌ، وأُسْطُقُسِّيّة وصناعيّة، ونَفْسِيّةٌ ولَفْظِيّة، وبَسيطَةٌ وَمُرَكّبةٌ، وَمَمْزُوجَةٌ وَصافِيَةٌ، وَيَقَظِيَّةٌ وَنَوْمِيَّةٌ، وَغائِبِيَّةٌ وَشاهِدِيّة.

ثم اندفع فقال: أما الصُّورَة الإلهِيّةُ - وَهي أعلاها في الرُّتْبَة وَالحقيقة. وَهي أَبْعَدُ مِنّا في التَّحْصيل إلَّا بمَعُونَةِ الله تعالى - فلا طَريقَ إلى وَصْفِها وَتَحدِيدِها إلَّا على التَّقْرِيب،

(١) ورد في كلتا النسختين «إلا من طريق». وقوله «إلا» زيادة من النساخ كما يلوح لنا.

(٢) في كلتا النسختين «الكافي» والياء زيادة من الناسخ.

(٣) في (ب): «أما» مكان «ولكن»، وهو خطأ من الناسخ لا يستقيم به الكلام إذ لا جواب لأمّا بعد ذلك.

(٤) في (ب): الأبان.... أبا واحدًا، وفي (أ): الاناءان... «أناء واحدا»، وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٥) في (ب): «لها»، وهو تحريف.

وَذلك أنّ البَساطَةَ تَغْلِبُ عليها، إلا أنّها مع ذلك تُرسَمُ بأنْ يُقالَ: هي التي تَجَلّت بالْوَحْدَة، وَثَبَتَتْ بالدَّوام، وَدَامَتْ بالوُجود.

وَأما الصُّورَةُ العقْليّة فهي شَقيقةُ تلك، إلا أنها دونها لا[1] بالانحطاط الحِسّيّ، وَلكن بالْمَرْتَبَةِ اللّفظيّة، وَليس بَيْنَ الصُّورَتَين فَصْلٌ إلّا مِنْ ناحيَة النَّعْت، وَإلاّ فالوَحْدَةُ شائعَةٌ وَغالِبةٌ وَشامِلة، لكن الصُّورَة الإلهيّة تُلْحَظُ لَحْظًا، ولا يُلْفَظُ بوَصْفِها لفظًا، لمُشاكَهتِها الصُّورَةَ النَّفْسيّة، فإذا كان كذلك أَمْكَنَ أنْ تُرْسَمَ فيقال: هي الّتي تُهْدي إلى العاقِلِ ثَلَجًا في الحُكم، وثِقةً بالقَضاء، وطُمَأنينة للعاقِبة، وجزمًا بالأمر، ودُحُوضًا للباطل، وبَهْجَةً للحَقّ، ونُورًا للصِّدق.

والفَرقُ بين الصُّورة الإلهيّةِ والصُّورَة العَقْليّة أنَّ الصورةَ الإلهيّة تَرِدُ عليك وتأخذ مِنك، والثورةَ العَقْليَّة تَصِلُ إليك فتُعْطِيك، فالأُولَى بقَهْرٍ وقُدْرَة، والثانيَةُ برِفْقٍ ولَطافة؛ وتلك تَحْجُبُك عن لِمَ وكيْفَ، وهذه تَفْتَحُ عليكَ لِم وكَيْفَ، وتلك لا تُنْحَى ولا تُطْلَب، وهذه يُسْعَى إليها، ويُسْأَلُ عنها وتوجَد، وأَنْوارُ الصُّورَة الإلهيَّة برُوقٌ تَمُرّ، وأنوارُ الصُّورَة العَقْليّة شُموسٌ تَسْتَنير؛ وتلك إذا حَصَلَتْ لك بالخُصُوصِيّة لا نَصِيبَ لأَحَدٍ منها، وهذه إذا حَصَلَتْ لك فأنْتَ وغَيْرُك شَرَعٌ فيها؛ وتِلك للصَّوْنِ والحِفْظ، وهذِه للبَذْل والإفاضة.

وأمّا الصُّورَةُ الفَلَكيَّة فداخلةٌ تَحْتَ الرَّسْم بالعَرَض، وللوَهم فيها أَثَرٌ كثير، ولأَنَّها مأخوذةٌ من الجِسم الأَعْظَم صارت مشاكَهتُها مَقْسُومَةً بين البَسيطِ الّذي لا تَرْكيبَ فيه البَتّة، وبين المركّب الّذي لا يَخْلو من التَّرْكيب البَتّة؛ ولهذا صارَ تأثيرُ الفَلَكِ في المتحرِّكات عنه أَشَدَّ مِنْ تَأَثُّر الفَلَك عن المُحَرِّك له، وكأنّه أَوّلُ [مُحَرِّك] مُتَحَرِّك؛ وليس هكذا[2] ما عَلا عنه.

والفَلَكُ بما هو جِسْمٌ مَنْقُوصُ الصُّورَة، وبما هُو دائمُ الحَرَكة شريفُ الجَوْهَر.

وأَمَّا الصُّورة الطبيعيَّة فتَعَلُّقُها بالمادّة القابلةِ لآثارِها بحسب استِعدادِها لها، فلَذلك

(١) في كلتا النسختين: «دونها بالانحطاط» بسقوط «لا» النافية، والسياق يقتضي إثباتها.

(٢) كذا في (ب) والذي في (أ) «وليس هذا فاعلا عنه». ولا يخفى ما في هذه العبارة من التحريف.

ما هي مُزَحْزَحة عن الدَّرَجة العُلْيا، وعِشْقُها للقابِلِ منها أَشدُّ من عِشقِها للمُفِيضِ عليها، ولهذا أيضًا كانَت مَنافِعُها ممزوجة، ومَضَارُّها بَحْتة[1]، وهي تَجْمَع بين الحِكْمَة والبَلَه، وبين الجيّد والرَّديء، ولو سَأَلْتَها لِمَ أَنْتِ ضارَّةٌ نافِعَة؟ لقالت: بَعُدْتُ، فلما بَعُدْتُ صَوَّبْتُ وصَعَّدْتُ.

وَسَمِعْتُ أَبا النَّفِيس يقول في وَصْفِ الطَّبِيعة كلامًا له رَوْنَقٌ في النَّفْسِ[2] وأَنا أَصلُ هذه الجُمْلَة به.

قال: أَيَّتُها الطبيعة، ما الَّذي أقُولُ لَكِ، وبأَيِّ شيء أُؤاخِذُكِ، وكيف أُوَجِّه العَتْبَ عَلَيْكِ؟! فإنَّكِ قد جَمَعْتِ أُمُورًا مُنْكَرَة، وأَحْوَالًا عَسِرَة، لا يَفِي نِظَامُكِ فيها بانْتِثَارِكِ عليها، ولكِ بوادِرُ ضارَّة، وَغَوائِلُ خَفِيَّةٌ تَبْدُو مِنْكِ، وَتَغُورُ فِيكِ، وتَرْجع إليك، حتى إذا قُلْنَا في بَعْضِهَا: إنَّكِ حَكِيمة، قلنا في بَعْضها: إنَّكِ سَفِيهة، فالبَلَه مِنْكِ مَخْلوطٌ باليَقظَة، والاستِقَامَةُ فيكِ عائدةٌ بالاعْوجَاج، وفيكِ فَظَائعُ ونَزَائع، وقَوَارِعُ وبَدَائع، لأَنَّ حَركاتِكِ تَسْتَنّ مَرَّةً اسْتِنَانًا تُعْشَقِين عليه، وتُحَبِّين من أَجْلِه، وتَزيغُ أُخْرَى زَيْغًا تُمْقَتِينَ عليه، وتُبْغَضِين بِسَبَبِه، وربَّما كانَت حَرَكَتُكِ نَقْضًا لِلبِنَاء المحكَم والصُّورة الرَّائعة، والنظام البَهِيِّ، وربما كانت بناءً للمُنْتَقِضِ، وتَجْدِيدًا للبَالي، وإصْلاحًا للفاسد، حتى كأَنَّكِ عابِثَةٌ بلا قَصْد، عائثَةٌ على عَمْد، وعلى جميع صفاتِك من الواصفين لكِ لم يَعْلم[3] مَن ظَنّ، ولا رَأَى مَنْ تَخَيَّل، ولا بَعُدَ لَفْظٌ مِن تأويل، ولا حالَ مَعنًى عن تَوَهُّم، ولا أَسْفَرَ حقٌّ عن باطِل، ولا تَمَيَّزَ بَيانٌ عن تمْويه، ولا وضَحَ نُصْحٌ من غِشّ، ولا سَلِمَ ظَاهِرٌ من تَنَاقُض، ولا خَلَتْ دَعْوَى من مُعارِض، فلهذا وأَشْبَاهِه واجَهْتُكِ بخِطَابي، وعَرَضْتُ عَلَيْكِ ما في نَفْسي، فبالّذي أنتِ به قائمة، وبالّذى أَنْتِ به مَوْجُودَة، وبالذي أَنتِ له مُنْقَلِبة، وإليه مُنْسَاقة، إلَّا خبَّرْتني عَنْكِ، وشَفَيْتِ غَلِيلي منكِ، ونَعَتِّ لي غَيْبَ شَأنِك، وجَعَلْتِ الخَبَر عنكِ كعِيَانِكِ، وإنما

(١) في كلتا النسختين: «نجية»، وهو تصحيف، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(٢) في (ب) «في السمع».

(٣) عبارة (أ) «لم نر أعلم من ظن»، وهو تحريف.

ضَرَعْتُ إليكِ هذا الضَّرْع، وعرَضتُ علَيْكِ هذا الوَجَع، لأنَّك جارَتي وصَاحِبَتِي، وليس بَيْني وبَيْنَك حِجاب إلَّا ما هو عَدُوٌّ منك أو منِّي، أَعْني بما هو مِنْكِ لُطْفَ سِحْرِك، وخَفَاء سِرِّك، وأَعْنِي بما هُو مِنِّى ما أَعْجَزُ عن استِبانَتِه واستيضاحِه إلَّا بقوّة الإله الذي هو سَبَبٌ لِحَرَكَتك في أفَانِينِ تَصَرُّفك، وأعاجيب عَدْلكِ وتحيُّفكِ.

وكان إذا بَلَغَ هذا الحَدَّ وما شاكَلَه أَخَذَ في كلاَم كالجوابِ عَلَى طريق التأنيس والتّسْلِيَةِ والاسْتِرَاحة، وهذا بالواجب، لأن الإنسان بسببٍ أغراضه المجهُولَة، وعَوَارِضه الفاجِئَة البَاغِتَة مِنَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ يَفْتَقِرُ افْتِقَارًا شَدِيدًا إلى هذه النُّعُوت التي تقدَّمَ ذِكْرُها؛ وهذا كالدَّاء والدَّواء! وليس لأحد أن يتهكَّمَ فيقول: هلاّ ارتَفَعَ الدَّاء أَصْلًا فيُسْتَغْنَى عن الدَّواء جُمْلة، وهَلاّ وقَعَ الدَّوَاء أبدًا عَلَى الدَّاء ونَفَاهُ وصَرَفه. فإِنَّ هذا كلامٌ مَدْخُول، من عَقْل كليل، ولَعَمْري إنّ مَن جَهِلَ القِسْمةَ الإلهيّة في الأزَل[1] بحسب شهادة العَقْل لَعِبَ به الوَسْواسُ في هذه المواضِع، وظَنَّ أنَّ الأمرَ لو كانَ بخلاَف ما هوَ عليه كان أَوْلَى وأَتَمّ وأَوْثَقَ وأَحْكَم. يا وَيْحَه! من أَيْنَ يُوجِبُ هذا الحُكْم؟ وبأيِّ شيء يُثْبِتُ هذا القَضَاء؟ وكيف يَثِقُ بهذَا الوَهم؟

وكان يقول أيضًا إنَّ الطَّبيعةَ تقول: أَنا قُوَّةٌ من قوَى البارئ، مُوكَّلةٌ بهذِه الأجسام المُسَخَّرة حتَّى أَتَصَرَّف فيها بغاية ما عِنْدي من النّقْش والتَّصْوير والإصْلاَح والإفْسَاد اللَّذَيْن لَوْلاهُما لم يَكُنْ لِي أَثَرٌ في شيء، ولا لشيء أَثَرٌ مِنّى، وكانَ وجُودي وعَدَمي سَواءً، وحُضوري وغيَابي واحدًا، ولو بَطَلْتُ بَطَلَ ببُطْلَاني ما أَنا به؛ وهذا زائفٌ من القَوْل، وخَطَلٌ من الرَّأْي، وتَحَكُّمٌ من الظَّانّ؛ ولو احْتُمِلَ إيرادُ كلِّ ما كان يَتَنَفّسُ به هذا الشيخ في حال نَشَاطِه وانْقِباضِه، لكان ذلك مَرَادًا فسيحًا، ومَشْرَعًا واسعًا، ولكِنَّ ذلك متعذِّرٌ لِعَجْزي عن الوَفاء به، ولأنّ هذه الرِّسَالة تتَقَلَّصُ عنه، وإنما أجُولُ في هذه الأكنافِ لِكَلَفِي بالحِكْمة كيف دارَتِ العبارَةُ بها، وأَمْكَنَت الإشارةُ إليها، لا عَلَى التَّقَصِّي لها وبُلوغ الغايةِ منها، ومَنْ يَقْدِرُ على ذلك؟ ومن يُحدِّث نفسَه بذلك؟ العالَم أَبعَدُ غَوْرا وَأَعْلَى قُلّةً وَأَثْقَلُ

(١) في (أ) «الأول» وفي (ب) «الأولى»، وهو تحريف.

وَزْنًا وَأَحَدُّ غَرْبًا وَأَلْطَفُ أَعْرَاضًا وَأَكْثَفُ أَجْرامًا وَأَعْجَبُ تَركِيبًا وَأَغْرَبُ بَساطةً من أَن يأتيَ عليه إنسانٌ وَاحد، وَكلُّ مَنْ[1] كَان في مَسْكِهِ، وَإنْ بَلغ الغايَةَ في دِقّة الذِّهْن وَحُسْن البيَان وَبلاغة اللَّفظ، وَاسْتِنْبَاط الغَامِض في حاضِرِه[2] وَغائبه؛ هذا ما لا يَتَوَهَّمُهُ العقل[3].

وَأَنَا أَعُوذ بالله من هذه الدَّعْوى، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُلْهِمَني الشُّكْرَ عَلَى ما فَتَحَ وَشَرَح، وَهَدَى إليه وَمَنَحَ، وأَطْلَعَ عليه وَنَدَح[4]، فإنّ الشُّكْرَ قَرْعٌ لبابِ المَزيد، وَالمَزيدَ باعثٌ على الشُّكْر الجَدِيد، وَالشُّكْرُ - وَإنْ خَلَصَ بالعِرْفان، وَجَرَى بضُرُوب البيانَ عَلَى اللِّسَان - فإنَّه يَقْصُرُ عن تَواتُر النِّعْمَةِ بعد النِّعْمَة، وتظَاهُر الفائِدَةِ بعدَ الفائدة.

وَأما الصُّورَةُ الأُسْطُقُسّيَّة، فهي لائحةٌ لكلّ ذي حِسٍّ[5] بالتَّنَاظم الموجود فيها، وَالتَّبَايُنِ الآخذ بنَصِيبِهِ منها، وَلها انقسامٌ على آحادِها، أَعْني أنّ صورةَ الماء مُبَايِنةٌ لصُورَة الهواء، وكذلك صورَةُ الأرْض مُخَالِفةٌ لصُورَةِ النّار، فتَحْدِيدُها بما يُقَرِّرُها مع غَوْصِهَا في كلِّ أُسْطُقُسٍّ شديد، واللَّفْظُ لا يَصْفُو، والمُراد لا يَنْماز.

وَأَمّا الصُّورَةُ الصِّناعيّة فهي أَبْيَنُ من ذلِك، لأَنَّها مع غَوْصِها في مادَّتها بارزةٌ للبَصَر والسَّمْع وَلجميع الأَحساس، كصورة السَّرير وَالكُرْسيّ وَالبابِ وَالخاتَم وَما أَشبَه ذلك.

وَأمّا الصُّورَة النَّفْسيَّة فهي رَاجعةٌ إلى العِلْم وَالمَعْرِفَة وتَوَابِعهما فيما يُحَقِّقُهُما أَو يخْدُمُهُمَا[6] وَهي شقيقةٌ للصُّورَة العقليَّة بالحقِّ.

وَأَمّا الصُّورَةُ البَسِيطةُ فلاخْتِلاَف مرَاتِب البَسيط ما يَعِزُّ رسمُها إلا بالإِيماء إليها، فإنْ لحقَ هذا الإِيماءَ سامِعُه فذاك، وَإلاّ فلا طَمَع في عبارَةٍ شافِيةٍ عنها.

---

(١) في (ب) «ما» مكان «من» وفي (أ) «مسئلة» مكان «مسكه»؛ وهو تحريف في كلا اللفظين. والمسك: الجلد. ويريد به هنا الشكل، أي كل من أشبهه وشاكله. أو يريد به من كان محبوسا في جسمه مقيدا بمادته.

(٢) في كلتا النسختين: «في آخره» مكان قوله: «في حاضره»؛ وهو تحريف. وفي (أ) و«غايته» مكان «وغائبه» الوارد في (ب) وهو ما اخترناه ليتقابل الوصفان.

(٣) في كلتا النسختين «إلا عقل» وفي قوله «إلا» تحريف ظاهر.

(٤) ندح الشيء: وسَّعه، وفي كلتا النسختين: و«قدح» بالقاف، وهو تحريف.

(٥) في كلتا النسختين: «حسن»، وهو تحريف.

(٦) في (أ) «لوعد منهما»، وهو تحريف.

وَأَما الصُّورَة المركَّبة فهي بادِيةٌ للحِسِّ بآثارِ الطَّبيعةِ في مادَّتِها، وَبادِيةٌ أَيضًا للنَّفْس بآثارِ العَقل في سَيْحِه عليها، وكما أَنَّ بين البَسِيط والبسيطِ فَرْقًا يَكادُ البَسيطُ يكونُ به مُرَكَّبًا، كذلك بين المركَّب وَالمركَّب فَرْقٌ يَكادُ المركَّبُ يَكونُ به بَسِيطًا؛ وهذه جُمْلَةٌ تَفْسِيرُها مُعْوِز.

وأَمَّا الصُّورَةُ المَمْزُوجةُ فهي أُخْتُ الصُّورةِ المركَّبة، وكذلك الصورةُ الصافِيةُ أُخْتُ الصورة البَسيطة، وليسَ هذا تمايُزًا في اللَّفظ واللَّفْظِ، إذ كانتا مُتَصاحِبَتين[١] ولم تكونا مُتعانِدَتين.

وَأَمَّا الصُّورَةُ اليَقَظيّة فهي مَجْموعَةٌ من الأَحساس، لجرَيانها[٢] على وِجدان المَشاعر كلِّها، ومَا لها وبها.

وَأَمَّا الصُّورَةُ النَّوْميّة فهي أيضًا متميِّزةٌ عن أُخْتها، أعني اليَقَظيّة، لأنها إغْضاءُ عَيْنٍ وَفَتْحُ عَيْنٍ، أَعني أنّ النائم قد حِيلَ بينه وبين مِثالَاتِ الأَحساسِ وعَوارِضِ الكَوْنِ والفَساد، وفُتِحَ عليه بابٌ إلى وِجْدانِ شيء آخرَ يَجْرِي كَظِلِّ الشَّخْص من الشَّخْص، فإن كان ذلك مِن وادِي الطبيعة أومأ إلى آثار الأخلاط، وإن كان من وادِي النَّفْس أَوْمأَ إلى نَصْب التماثيل، وإن كان من وادي العقْلِ صَرَّح بحقَائِق الغَيْب في عالَم الشَّهادة إمّا بالتَّقْرِيبِ وإمَّا بالتَّهْذِيب؛ أعني إمّا بوقوعِه عَقِيبَ ذلك، وإمّا بَعْدَ مُهْلَة.

وأَمّا الصُّورَةُ الغائبيَّة والشاهِدِيّة فقد اتّصل الكلامُ في شَرْحها بما تَقَدَّم من حَديث الصُّورة اليَقَظِيّة والنَّوميَّة، والعِبارَةُ عن الشاهِدِ مَقصورَةٌ على وجدانِ المَشاعِر، والعبارة عن الغائب مقصورةٌ على ما تَغَلَّقَ[٣] على المَشاعر، وفي الغائب شاهدٌ هو الملحوظُ[٤] من الغائب، وفي الشاهِدِ غائبٌ هو المبحوثُ عنه في الشَّاهد، فالشاهد غائِبٌ بِوَجْه،

---

(١) في كلتا النسختين: «إذا كانا متصاحبين» الخ وهو تحريف.

(٢) في كلتا النسختين «وجريانها» بالواو، وهو تحريف.

(٣) في (ب) الموجودة فيها هذه العبارة وحدها دون (أ) «تعلق من»، وهو تحريف.

(٤) في (ب) الموجودة فيها هذه العبارة وحدها دون (أ) «المخلوط»، وهو تحريف.

والغائب شاهدٌ بوَجْه، حتى إذا استَجْمَعا لك كنتَ بهما في شِعارِهما. والإلهيّون من الفلاسفة هم الذين جَمَعُوا بين هذَيْن النَّعْتَيْن، وعَلَوْا هاتَيْنِ الذِّرْوَتَين، فتَوَحَّدوا عِنْدَ ذلك بخَصائِصِهم، وانْسَلَخُوا عن نَقَائِصِهم، فلو قلت: ما هؤلاء[1] بَشَرٌ كنتَ صادقًا.

ولقد أَحْسَنَ الّذي قال في وَصْفِ العِصابة حيث وصَفَ فقال:

فِينا وفيكَ طبيعةٌ أَرْضِيّةٌ	تَهْوِي بنا أَبَدًا لِشَرٍّ[2] قَرار
لكنّها مَقْسورَةٌ مَأْسُورَةٌ	مَغْلوبةُ السُّلْطانِ في الأَحْرارِ
فجسُومُهم مِن أَجْلِها تَهْوِي بهم	ونُفُوسهمْ تَسْمُو سُمُوَّ النارِ
لولا مُنازَعةُ الجُسومِ نُفوسَهمْ	نَفذَتْ بسَوْرَتِها مِن الأَقْطَارِ
عَرَفُوا لِرُوح اللهِ فيه فَضْلَ ما	قد آثَرُوا مِن صالحِ الآثارِ
فتَنَزَّهوا وتكَرَّموا وتَعَظَّمُوا	عن لُؤمِ طَبْعِ الطِّينِ والأَحْجارِ
نَزَعوا إلى البَحرِ الذي منه أَتَتْ	أَرْواحُهمْ وسَمَوْا عن الأَغْوارِ

وهذا وَصْفٌ بليغٌ بالإضافة إلى القَوْم[3].

فأمّا ما وَراءَ هذا فهُناكَ خَبَرُ ثقةٍ[4] بما قَرَّرَ وقال:

وأمّا الصُّورةُ اللّفظيّة فهي مَسْموعَةٌ بالآلة التي هي الأُذُن، فإنْ كانت عَجْماءَ فلها حُكْم، وإن كانت ناطقةً فلها حُكْم، وعلى الحالَيْن فهي بَيْن مَراتبَ ثلاث: إمّا أن يكون المُرادُ بها تَحسِينَ الإفْهام، وإمّا أن يكون المُرادُ بها تحقيقَ الإفْهام، وعلى الجميع فهي مَوْقُوفةٌ على خاصِّ ما لَها في بُروزِها من نَفْس القائل، ووُصولِها إلى نَفْس السامع؛ ولهذه الصُّورة بَعْدَ هذا كلّه مَرْتَبةٌ أخرى إذا مازَجَها اللَّحْن والإيقاعُ بصِناعة المُوسِيقار، فإنّها حينئذ تُعْطِي أُمُورًا ظَرِيفة، أعني أنّها تَلذُّ الأَحساس، وتُلْهِبُ الأنفاس، وتَسْتَدْعي الكاسَ والطاس،

(١) في (أ) التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) «هؤلاء ما ببشر»، وفيها تقديم وتأخير وقعا من الناسخ كما لا يخفى.

(٢) في (أ) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها دون (ب) «لنشر»، وهو تحريف.

(٣) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام دون (ب) «القول» مكان «القوم»، وهو تحريف فيما يظهر لنا.

(٤) في (أ) التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) «حرسه»، مكان قوله: «خبر ثقة» وهو تحريف لا يفهم له معنى.

وتُرَوِّحُ الطَّبْع، وتُنْعِم البال، وتُذَكر بالعالَم[1] المَشُوقِ إليه، المُتَلَهَّفِ عليه.

هذا مُنْتَهى كلامه على ما عَلقه الحِفْظ، ولقِنَه الذِّهن؛ ولو كان مأخوذًا عنه بالإِمْلاء لكان أقوَم وأَحكم، ولكنّ السَّرْدَ باللّسان، لا يأتي على جميع الإمكان في كلّ مكان، فهذا هذا.

قال الوزير: هذا بابٌ في غاية الإيفاء والاستيفاء، ومن يتحكّك بالاعتراض عليه فقد صَغَى[2]، وأبْدَى صَفْحَتَه بالبُهْت، ودَلّ مِنْ عَقلِه على الدَّخَل[3]، ومن أخلاقه على الخَلَل[4]: لقد وَهبَ اللهُ لهذا الرجل مقامًا عاليًا، ولا عجب فإنه مُعَوَّض بهذا عمّا فاته.

وقال: أنشِدْني في الخمر شَيئًا غريبًا، فأنْشَدْتُه:

وَمُوَرَّدِ الوَجَنــــات يَخْــــ ـطِرُ حينَ يَخْطِـرُ فــي مُـــوَرَّدْ
يَسْقِيكَ من جَفْــــن اللُّجَــــ ـين إذا سَقاكَ دُمـــوعَ عَسْجَـدْ
حتّى تَظُــنّ الشمـــسَ تَنْــــ ـزِلُ أو تَظُـــنَّ الأرْضَ تَصْعَـد
فــــإذا سَقـــــاكَ بعَيْنِــهِ وبِفِيـــه ثـــمّ سَقـاكَ باليَـــدْ
حَيَّــــاكَ بالياقــوت تَحْــــ ـتَ الدُّرِّ منْ فَـوْقِ[5] الزّبَرْجَـدْ

قال: أَحْسَنْتَ والله؛ هاتِ زِيادَةً. فقُلتُ:

وعَذْرَاءَ[6] تَرْغُو حينَ يَضْرِبُها الفَحْلُ كذا البِكْرُ تَنْزُو حينَ يَفْتَضُّها البَعْــلُ

---

(١) لعلّه يريد بالعالم: عالم الروح.

(٢) صغى: مال.

(٣) في (أ) التي ورد فيها هذا الكلام وجدها دون (ب) «الرجل»؛ وهو تصحيف والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٤) في (أ) التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) «الحال»؛ وهو تصحيف؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(٥) في (أ) التي ورد فيها وحدها دون (ب) هذا الشعر ما نصه:

حياك بالياقوت فو ق الدر من تحت الزبرجد

وهو تبديل من الناسخ صوابه ما أثبتنا. إذ الخمر المشبّهة بالياقوت إنما تكون تحت الحبب المشبّه بالدرّ؛ وكلاهما فوق الكأس المشبّه بالزبرجد.

(٦) يريد بالعذراء: البكر من الخمر. ويريد بالفحل: الماء الذي تمزج به.

تُديرُ عيونًــا في جُفـــونٍ كأنَّمــا ... حَماليقُها بِيضٌ وأحْداقُهــا نُجْــلُ

كأنّ حَبابَ المَــاءِ حَــوْلَ إنائهــا ... شذورٌ[1] ودُرٌّ ليس بَيْنَهُما فَصــلُ

تَوَهَّمْتُهــا في كأسِهــا فكأنّمــا ... تَوَهّمْتُ شيئًا ليس يُدْركه العَقْــلُ

إذا اشتبكتْ رِجْلاي منْ سَوْرة الكَرَى ... دَرَجْت إليها مِثلَ ما يَدْرُجُ الطِّفْــلُ

وأَنْشَدْتُ لآخر:

وكم عائبٍ للخمرِ لو أنّ أُمَّـــه ... تَبُولُ مُدامًا لم يَزَلْ يَسْتَبِيلُهــا

ولآخر:

خَليليّ لومَاني[2] عَلَى الخَمْر أَوْ دَعَـا ... فلَنْ تجِدا عنْدي على اللّوْم مَطْمَعـا

وشبًّا[3] سَنَا نــارٍ لعــلَّ نَديمَنــا ... بنَجْرانَ أنْ يَلقى سَناهَــا فَيَتْبَعــا

فما رَاعَنا إذ أُوقِدَتْ فــوقَ رَبْــوَةٍ ... مِن الأرْض إلّا رَاكبــان قد أوْضَعَــا

فَهشَّــا إليْنا ثــم قالاَ: ألا انعِمــا ... مَســاءً فقُلْنَــا: دامَ ذَاكَ لنَـا مَعَـا

وأَنْشَدْتُ لآخَر:

سقَوْني وقالُوا لا تُغَنِّ ولو سَقَــوْا ... جبــالَ شَمامٍ[4] ما سَقَوْني لَغَنَّــتِ

وأَنْشَدْتُ أيضًا:

الكأسُ لا تَدْرِي ولا الخَمْــرُ ... مِنْ أَيِّ شيء عُجِّلَ السُّكْــرُ

أَسْكَرَنِي مِنْ قَبْل شُرْبــي لهـا ... مَنْ دَأْبُهُ الإعْــراضُ والهَجْرُ

قلتُ له والخمرُ في كأسِــه[5] ... كأنّهــا فــي كَفِّــه بَــدْرُ

(١) في (أ) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها «أناسا شدود» وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٢) في (أ) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها «أوماني»؛ وهو تحريف.

(٣) في (أ) «وسنا» بالبن والنون؛ وهو تصحيف.

(٤) شمام: جبل لباهلة له رأسان يسمّيان ابني شمام؛ ويضرب بها المثل في الاجتماع وعدم الفرقة.

(٥) عبارة (أ) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها «في كنه * كأنها في كأسه»؛ وهو خطأ من الناسخ؛ وسياق المعنى يقتضي ما أثبتنا. إذ المعروف تشبيه الكأس بالبدر، لا تشبيه الخمر به.

أَنتَ لَعمْرِي الخمـــرُ يا سَيِّدي ... ليس الّذي سَقَّيْتَنِي الخَمْــــرُ

آخَر:

تركت النبيذ لأهـــل النبيـــذ ... فخـــارَ ليَ اللهُ في تَركِــــه

وقد كنتُ قِدْمًا بـــه مُعْجَبًـــا ... أَرُوحُ وَأَغْدُو إلى سَفْكِـــهِ[1]

فقال: قد جَرَى هذا أيضًا على التّمام. اختْمْ مجلسَنا بدُعاءِ الصُّوفيّة.

فقلتُ: سَمِعْتُ ابنَ سَمعونَ يَدْعُو في الجامع في آخِر مجلِسهِ ويقول: اللهمَّ اجعلْ قَوْلَنا مَوْصُولًا بالعَمَل، وَعَمَلنا مُحَقِّقًا للأَمَل، ولا تُضايقنا فيما نَتحوَّل به، وَنتَقَلَّبُ لك فيه، وَكَنِّفْ علينا بسِترك، وَسَوِّغنا بِرَّك، وَأَلْهِمْنَا شُكْرَك، وَخَفِّفْ عَلَى أَفْواهِنا ذِكرَك، وَاخصُصْنا بعد ذلك بما هُو أَلْيَقُ بذلك؛ اللهمَّ اسمَعْ وَاسْتَجِبْ وَقَرّبْ. وَانصرفتُ.



(١) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الشعر «بتكة» بالباء والتاء مكان قوله «سفكه» ولم نجد له معنى يناسب السياق؛ ولعل الصواب ما أثبتنا إذ المعروف تشبيه الخمر بالدم المسفوك؛ وقد جاء هذا كثيرا في الشعر.

الليلة الثامنة والثلاثون

وَجَرَى ليلةً بحضْرَة الوزير - أعْلَى الله كلمَتَه، وَأَدامَ غِبْطَتَه، وَوَالَى نِعْمَتَه - أَحقُّ مَنْ دُعِيَ له، وَأَشْرَفُ مَنْ بُوهِيَ به، وَأَكْمَلُ من شُوهِدَ في عَصْرِه - حديثُ ابنِ يوسفَ وَما هو عليه مِنْ غَثَاثَته وَرَثاثته، وَعِيارَته[1] وَخَسَاسَته.

فقلتُ له: عندي حديثٌ، ولا شَكَّ أَنَّ الوزيرَ مُطَّلِعٌ عليه، عارفٌ به.

قال: ما ذاك؟ قلت: حَدَّثني أبو عليّ الحَسَن بن عليٍّ القاضي التَّنُوخِيّ قال: كنت في الصُّحْبَةِ إلى هَمَذَان سَنَةَ تِسْع وسِتِّين، وكُنّا جماعةً وَفينا ابن حرنبار[2] أبو محمد، وكان في جَنْبِه ابنُ يُوسُف، فاتَّفَقَ أَنَّ عَضُدَ الدَّوْلة - برَّدَ الله مَضْجَعه - قال لابن شَاهَوَيْه: سِرْ إلى ابن حرنبار[2] وقل له: يَنْبَغي أن تسير إلى البَصْرة وَإِنَّا نجعلُ لك فيها مَعُونة، فقد طالَ مُقامُكَ عندَنا، وَتَوَالَى تَبَرُّمُنا بك، وَتَبَرُّمُكَ بنا، وليس لك بحَضْرتنا ما تُحِبُّه وَتَقْتَرِحُه، وَالسلامَةُ لكَ في بُعْدِك عنّا قبل أن يُفْضِيَ ذلك إلى تغيُّرنا. وكلامًا فِي هذا النَّوع.

قال: وَنَفَذَ أبو بكر ومَعَه آخَرُ مِنَ المَجْلِس يَشْهَدُ التَّبليغَ وَالأداء[3]، وَيَسْمَعُ الجَوابَ والابتداء - على رَسْمٍ كان مَعْهودًا في مِثلِ هذا الباب - فلقِيَ ابن حرنبار[2] وَشافَهَه بالرِّسالَةِ على التَّمام؛ فقال أبوُ محمد لما سَمِع: الأَمْرُ للمَلِك، وَلا خِلافَ عليه؛ وَلَعَمْرِي إنّ الناسَ بِجُدُودِهم يَنالون حُظُوظَهُمْ، وبحظُوظِهم يَسْتَديمون جُدُودَهم؛ ولو وُفِّقْتُ ما كانَ عجيبًا، فقد نالَ مَن هُوَ أَنقَصُ مِنِّي، وَبَلَغَ المنَى مَن أَنَا أَشرف[4] منه، ولكنَّ المقاديرَ غالبة، وليس

---

(١) في (أ) التي ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) «وعبارته» بالباء الموحدة؛ وهو تصحيف.

(٢) كذا ورد هذا الاسم في الأصول ولم نقف على تصحيحه؛ ولعل الصواب فيه ابن «حذقيار» فإن هذا من أسمائهم.

(٣) في (أ) التي ورد فيها هذا الكلام وحدها «والآراء»؛ وهو تحريف.

(٤) في كلتا النسختين «أشف»؛ وهو تحريف.

للإنْسَان عنها مُرْتَحَل؛ وقد قِيل: من سَاورَ الدهر غُلب، ولكن أيُّها الشيخ لي حاجة أنْ تُبَلِّغَ المَلِكَ كلمَةً عَنِّي. قال: هاتِها؛ قال: تقول له: أنا صائرٌ إلى ما رَسَمْتَ، وَمُمْتَثِلٌ ما أَمَرْت، بعد أنْ تَقْضِيَ لي وَطَرًا في نَفْسِي، قد تَقَطَّعَ عليه نَفَسي، وذاك أنْ تَتَقَدَّمَ فيُقامُ عبدُ العزيزِ بنُ يوسُفَ بين اثنين فيَصْفَعَانِه مائتين، ويقولان له: إذا لم تَبْذُلْ جاهَكَ لمتَلهِّف، ولا عِنْدَك فَرَجٌ لمكْرُوب، ولا بِرٌّ لضَعيف، ولا عَطاءٌ لسائل، ولا جائزةٌ لشاعِر، ولا مَرْعًى لمُنْتَجِع، ولا مَأوَى لضَيْف، فلِمَ تُخاطَبُ بسَيِّدنا، وتُقَبَّلُ لكَ اليَدُ، ويقامُ لك إذا طَلَعْتَ؟؟

قال ابن شاهَوَيه: فقَبْلَ أَن لقيتُ الملِكَ أَفْصَحَ[1] له الّذِي كان معي مُشْرِفًا عليّ. فلمّا دَخَلْتُ الدارَ عُرِّفَ، فقال: عليَّ به، فحضرْتُه وابنُ يوسفَ قاعدٌ بين يَدَيْه على رسْمِه. فقال لي: هاتِ الجوَابَ عما نَفَذْتَ فيه؛ فقلت: الجوابُ عِندَك، فقال: ما أعْجَبَ هذا! أنتَ حُمِّلْتَ الرسالةَ وأطالبُ غيرَك بالجواب؟ قال: فتلَوَّيْتُ حَياءً من ابنِ يوسُفَ، فقال: هات يا هذا الحَديثَ بفَصِّه، فوالله لا أَقْنَعُ إلَّا به، ما هذا التّوانِي والتكاسُل؟ فكرهتُ اللَّجاج، فسردْتُه على وَجْهِه، ولم أغادِرْ منه حَرْفًا، وابن يوسف يتقَدَّدُ في إهابة[2]، ويتغيّر[3] وَجْهُه عند كلِّ لفظةٍ تَمُرُّ به، فأقْبَلَ عليه الملِكُ وقال: كَيْفَ ترى يا أَبا القاسم الكَيِّسَ؟ فقال: يا مولانا، إنما أَنَا أَقْضِي الحاجَةَ بك، فإذا لَمْ تَقْضِها كيف أكون؟ فإن الحوائج كلَّها إليك.

قال: صَدَقْتَ، أنا لا أقضِي حاجةً لك، لأنك لا تَقْصِدُ بها وَجْهَ الله، ولا تَبْغِي بها مكْرُمَة، ولا تَحْفَظُ بها مُرُوءَة، وإنّما تَرْتَشِي عليها، وتُصَانِعُ بها، وتَجْعَلُني بابًا من أَبْوابِ تجارَتِك وأرباحِك، ولو كنتُ أعْلَمُ أنْكَ تَقْضي حاجةً لِله أو لمَكْرُمَةٍ أو لرَحمة ورِقَّةٍ لكانَ ذَلك سَهْلًا عليَّ، وخفيفًا عِنْدِي، لكنَّكَ مَعْرُوفُ المَذْهَبِ في الطَّمَع والحيلة، وجَرِّ النارِ إلى قُرْصِك، وشَرَهِكَ في جَمِيع أحْوالِك؛ وَليس الذَّنْبُ لك، وَلكنْ لمن رآكَ إنسانًا وَأنتَ كلْبٌ.

---

(١) في كلا الأصلين: «ما أفصح». و«ما» زيادة من الناسخ.

(٢) في (ب) «في نيابه»؛ وهو تحريف.

(٣) في (أ) «يتميز».

وصَدَقَ – صَدَّقَ اللهُ قَوْلَه – فإنّه كان أَخَسَّ خَلْق الله، وأَنتَنَ الناس، وأقذَرَ الناس، لا مَنْظَرَ ولا مَخْبَر.

وكانت أُمُّهُ مُغَنِّيَةً مِنْ أَهْل البَيْضاء، وأَبُوه مِنْ أَسْقَاطِ الناس، ونَشَأَ مع أشْكالِه، وكان في مَكْتب[1] الرَّبَضِيِّ على أحْوالٍ فاحشة، ووَرَّقَ زَمانًا، ثم إنّ الزمان نَوّهَ به، ونبّهَ عليه، ومِثْلُ هذا يكون، والأيامُ ظُهورٌ وبُطون؛ وكما يَسْقُطُ الفاضِلُ إذا عانَدَه الجَدّ، كذلك يَرْتفعُ السّاقِطُ إذا ساعَدَه الجَدّ، فهذا هذا.

فقال: ما كان هذا الحديثُ عندي، وإنّه لَمِنَ الغَريب.

ثم قال: كيف خَبَرُك فِي الفِتنة التي عَرَضَتْ وانتَشَرَت، وتفَاقمتْ وتَعاظَمَتْ؟

فكان مِن الجواب: خَيرُ من شَهِدَ أوّلَها، وغَرِقَ في وَسَطِها، ونجا فِي آخِرها.

قال؛ حَدِّثْني فإنّ في روايَتِهِ وسَماعِهِ تَبْصِرَةً وتَعَجُّبًا، وزيادةً في التّجربة.

وقد قيل: تجارِبُ المتقَدِّمين مَرَايَا[2] المتأخِّرين، كما يُبْصَرُ فيها ما كان، يُتَبَصَّرُ بها فيما سيكون، والشاعِرُ قد قال:

والدَّهْرُ آخِـرُه شِبـــــهُ بأوَّلِـــهِ ناسٌ كنـاسٍ وأَيَّـــامٌ كأيّـــام

وليس مِن حادثةٍ ماضيةٍ إلا وَهي تُعرِّفُكَ الخطأَ والصَّوابَ منها لِتَكُونَ على أُهْبَةٍ في أَخْذِكَ وتَرْكك، وإقْدَامِكَ ونُكُولِك، وقَبْضِكَ وبَسْطِك، وهذا وإنْ كانَ لا يَقي كلَّ الوِقاية، فإنّه لا يُلقِي في التَّهْلُكة كلَّ الإلْقاء.

كان أَوَّلَ هذه الحادثة الفظيعة البَشِعَة الّتي حَيَّرت العقولَ ولَّهَت الألباب، وسافَرَ عنْهَا التوفيق، وَاستولَى عليها الخِذْلان، وعُدِمَت فيه البَصَائر، شَيْءٌ كلا شيء، وإذا أَراد اللهُ [تَعالَى ذكره] أن يُعَظِّمَ صغيرًا فَعَل، وإذا شاءَ أنْ يُصَغِّر عظيمًا قَدَر، لَهُ الخَلْقُ والأمْر، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، ولا رادَّ لقَضائه، ولا صارِفَ لقَدَرِه؛ وقُدْرَةُ الإنسان محدودة، واستطاعتُه

(١) في (ب) «مكبت»؛ وهو تحريف. وفي (أ) «الرمضي» بالميم؛ وهو تحريف أيضًا.

(٢) في (أ) «مرأى»، وفي (ب) «مراي»؛ وهو تحريف في كلتا النسختين.

مُتَناهِيَة، واختِيارُه قَصِير، وطَاقَتُه مَعْرُوفة؛ وكلُّ ما جاوز هذا الحَدَّ وهذا[1] التَّناهي فهو الذي يَجْرِي على الإنسان شاءَ أَوْ أَبَى، كَرِه أَوْ رَضِي، وها هُنا يُفْزَعُ إلى الله مِن نازِلِ المَكْرُوه، وحادِثِ المَحْذُور.

وذَاكَ أنّ الرُّومَ تهايَجَتْ على المُسْلِمين، فسارَتْ إلى نَصِيبينَ بِجَمْع عَظِيم زائدٍ على ما عُهِدَ على مَرِّ السِّنين، وكانَ هذا في آخِر سَنَةِ اثنتين وستِّين، فخافَ[2] الناسُ بالموْصِل وما حَوْلها، وأَخَذُوا في الانحدار على رُعْبٍ قُذِفَ في قُلُوبهم، ليكون سبَبًا لما صارَ إليه [الأمر]؛ وماجَ الناسُ بمَدينةِ السَّلام واضطَرَبُوا، وتَقَسَّمَ هذا المَوْجُ والاضطرابُ بين الخاصّةِ والعامّة؛ وصارَتِ العامَّةُ طائِفتَين، طائفةً تَرِقُّ للدِّين ولما دَهَم المُسْلِمين، وتَسْتَعْظِم ذلِكَ فَرَقًا مما يُنْتَهَى إليه، بعد ما يُؤتَى عليه؛ وطائفةً وَجَدَتْ فُرْصَتَها في العَيْثِ والفَساد، والنَّهْبِ والغَارةِ بوَساطةِ التعصُّب للمَذْهَب.

وافتَرَقَت الخاصّةُ أيضًا فرقَتَين: فرقةً أَحَبَّتْ أن تكُونَ للنّاسِ حَمِيَّةٌ[3] للإسْلام، ونُهوضٌ إلى الغَزْو، وانْبعاثٌ في نُصْرَةِ المُسْلِمين، إذ قد أَضْرَبَ السُّلطانُ عن هذا الحديث، لانهماكِه في القَصْفِ والعَزْف، وإعْراضِه عن المصالح الدِّينيَّة، والخيرات السّياسيّة؛ وطائفةً اختارت السكونَ والإقبالَ على ما هُوَ أَحْسَمُ لمادّةِ الوُثوب والهَيْج، وأَقْطَع لشَغَب الشاغب، وأقمَعُ لخلاف المتَّهَم؛ فإنّ الاختلافَ إذا عَرَضَ خَفِيَ مَوْضعُ الاتّفاق، والتبَسَ الأمرُ على الصِّغارِ والكِبار؛ وبِمثْلِ هذا فُتِحَت البلاد، ومُلِكَت الحُصون، وأُزيلت النِّعَم، وأُريقَت الدِّماء، وهُتِكَت المحارِمُ، وأبيدَت الأمم؛ ونَعُوذُ بالله منْ غضَب الله ومِمَا قَرَّب من [سُخْطِ] الله؛ وإذا أرادَ اللهُ أَمْرًا كثَّرَ بَواعِثَه، وفَرَّقَ نَوابِثَه[4].

ولمّا اشتَعَلَت النائرَة، واشتَغَلَت الثَّائِرة، صاح الناس: النَّفيرَ النَّفيرَ، وإسْلامَاه،

---

(١) في (ب)؛ «وهو»؛ وهو تحريف.

(٢) في (أ) «فخلق»؛ وهو تحريف.

(٣) في (ب) «حيا»؛ وهو تحريف.

(٤) في كلتا النسختين: «نوائبه»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق. ونوابث الأمر: مثيرات دفينة ومظهرات خفية.

وامُحَمَّداه، واصَوْمَاه، واصَلاَتاه، واحَجَّاه، واغَزْوَاه، واأَسْرَاه، في أَيْدِي الرُّوم والطُّغاة. وكان عِزُّ الدَّوْلة قد خَرَج في ذلك الأوانِ إلى الكُوفَة للصَّيد، ولأغراضٍ غير ذلك؛ فاجتمَع الناسُ عند الشيوخ والأماثِل والوُجوهِ والأَشْرَافِ والعُلماء، وكانت النِّيَّة[1] بَعْدُ حَسَنَة، وللناس في ظِلِّ السلطان مَبيتٌ ومَقِيل، يَسْتعذبون وِرْدَه، ويَسْتَشهِلُون صَدَرَه، وعَجُّوا وضَجُّوا، وقَالوا: اللهَ الله، انظروا في أَمْرِ الضّعَفاء وأحْوالِ الفقراء؛ واغضَبُوا لِله ولدِينه؛ فإنّ هذا الأمر إذا تفاقَمَ تَعَدَّى ضُعفَاءنا إلى أَقْويائنا، وبَطَلَ رَأْيُ كُبَرائنا في تَدْبير صُغَرائنا؛ والتَّدَارُك واجب، وهو الإسلام، إن لم نَذُبَّ عنه غَلَبَ الكفر، وهُوَ الأَمْنُ والسكون إن لم يُحْفَظَا، فهو الخوف والبَلاء وذَهابُ الحرْثِ والنّسل، وَفَضِيحَةُ الوَلَدِ وَالأَهْل. فسَكَّنَ المشايخُ منهم، وطَيَّبُوا أنْفسهم، وَقَوَّوْا مُنَّتَهُمْ ووَعَدُوهم أن يَرْتَئوا[2] فيه مُتَّفِقين، وَيَجْتَمِعُوا عليه مجْتَهدين، وَيَسْتَخْيرُوا اللهَ ضارعين؛ وَانصَرَف الناسُ عَنهم، وَاجتمَع القوم: أبو تَمَّام الزينبيّ، وَمحمدُ بنُ صالح بنِ شَيْبان، وابنُ مَعْروف القاضي، وابنُ غسّان القاضي، وابن مُكرّم - وكان مِنْ كِبارِ الشُّهودِ في سُوق[3] يَحْيَى - وابنُ أَيُّوبَ القَطَّان العَدْل وأبو بكر الرازيُّ الفَقيه، وعليُّ بنُ عِيسَى والعَوّاميّ صاحب الزبيريّ[4]، وابنُ رُبَاطٍ شَيْخُ الكَرْخ، وباب الشِّيعة[5] ولسان الجماعة، وابن آدم التاجر[6]، والشّالُوسيُّ أبو محمد، وغيرُهم ممن يَطول ذِكْرُهم؛ وتَشَاوَرُوا وَتَفاوَضُوا، وقَلَّبُوا الأَمْرَ، وَشَعَّبُوا القول؛ وَصَوَّبوا وصَعَّدوا، وقَرَّبوا وبَعَّدُوا[7] وَالتأَمَ لهمْ مِنْ ذلك أَنْ تَخْرُجَ طائفةٌ وَراءَ الأمير بَخْتِيار إلى الكُوفَة وتَلْقَاه وتُعَرِّفَه[8] ما قد شَمِلَ مدينة السلام من الاهتمام؛ وأَنَّ الخَوْفَ قد

---

(١) في (أ) «الثقة» وفي (ب) «البقية» وفي (أ) «تعد» مكان قوله «بعد»؛ وهو تحريف.

(٢) في كلتا النسختين: «يرثوا» بالثاء وسقوط الهمز؛ وهو تحريف.

(٣) سوق يحيى كانت في الجانب الشرقي من بغداد، كانت بين الرصافة ودار المملكة؛ وهي منسوبة إلى يحيى بن خالد البرمكي؛ وهي محلة ابن حجاج الشاعر المعروف.

(٤) في (ب) «الزهري» مكان «الزبيري».

(٥) في (أ) «وناب السبعة» وهو تحريف.

(٦) في (ب) «الشاعر».

(٧) في (أ) «وقعدوا»؛ وهو تحريف.

(٨) في (ب) «وتعلمه»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

غَلَبَهم، وَأَنَّ الذُّعْرَ قد مَلَكَهُمْ؛ وأنهم يقولون: لو كان لنا خَليفةٌ أو أميرٌ أو ناظرٌ سائسٌ لم يُفْض الأمرُ إلى هذه الشناعة؛ وَأَنّ أميرَ المؤمنين المطيعَ لِله إنما وَلّاه ما وَرَاءَ بابه ليتيقَّظَ في ليلِه، متفكّرًا في مَصالح الرَّعايا، وَيُنَفِّذَ في نَهارِه آمرًا وَناهيًا ما يَعُودُ بمَرَاشِدِ الدِّين، ومنافعِ الدَّانينَ وَالقاصِين[1] وَإلّا فلا طاعة؛ وكلامًا على هذا الطابَع، وفي هذا النَّسْج؛ فاتّفَقَ جَماعةٌ على صَريمة الرأي في الحركة إلى الكوفة، منهم أبو كَعْبٍ الأنصاريّ، وأبو الحسن مِدْرَهُ القَوْم، وعليُّ بنُ عيسى، والعَوّاميّ، وابنُ حَسَّان القاضِي صاحبُ الوُقوف، وأبو أحمد الجُرْجانيُّ القاضي البليغ، وابن سَيّارٍ القاضي أبو بكر، وأبو بكر الرازيّ.

وأما جُعَل، فإنه ذَكَر ما به من وَجَع النِّقْرِس، واستَعْفَى.

وأما أبو سَعِيد السِّيرافيُّ، فإنّه ذَكر ضَعْفًا وسِنًّا، وقال: أنا[2] أعِينُ في هذه النائبةِ بإقامةِ رَجُلٍ جَلْدٍ مُزاحِ العِلَّة بالفَرسِ والسِّلاح، وقَعَدَ الجمُّ الغَفير، وسارت الجماعةُ إلى الكوفة، ولحقَتْ عزَّ الدولةِ في التَصَيُّد، وانتَظَرَتْهُ؛ فلمّا عادَ قامَتْ في وَجْهِه واستَأْذَنَتْ في الوُصولِ إليه على خَلْوَةٍ وسكونِ بال وقلّةٍ شُغْل؛ فلمْ يَلْتَفِتْ إليهم، ولا عاجَ عليهم - وكان وافرَ الحَظّ من سُوء الأدب، قليلَ التَّحاشِي من أهْل الفَضْل والحِكمة - ثم قيل له: إنّ القومَ وَرَدُوا في مهُمٍّ لا يجُوزُ التغافُلُ عنه، والإمساكُ دُونَه، فأَذِن[3] لهم بين المَغْرِبِ والعَتَمة، فجَلَسُوا بحَضْرَتِه كما اتَّفَقَ من غير ترتيب، فقال: تكلَّموا.

فقال أبو الوَفاء المُهنْدِسُ لأبي بكر الرازيّ: تكلمْ أيّها الشيْخ، فإنّك رِضَا الجمَاعَة، ومَقْنَعُ العصابة.

فقال أبو بكر: الحمد لله الّذي لا مَوْهِبَةَ إلّا منه، ولا بَلْوَى إلّا بقَضائه، ولا مَفْزَعَ إلّا إليه، ولا يُسْرَ إلّا فيما يَسَّرَه، ولا مَصلحةَ إلّا فيما قَدَّرَه؛ له الحُكْمُ وإليه المَصِير، وصلى الله على سيّدنا محمّد رسولِه المبعوث، إلى الوارِث والمَوْروث؛ أما بعد، فإنّ الله [تعالى]

(١) كذا في (ب). والذي في (أ) «الواردين والفاسدين»؛ وما أثبتناه أولى بالسباق.
(٢) في (أ) «لا»، وهو تحريف.
(٣) في (ب) «فأمر».

قد حَضَّ على الجهاد، وأَمَرَ بإعزاز الدِّين، والذَّبِّ عن الحَريم والإسلام والمسلمين في الدهر الصالح، والزمان المطمئنّ؛ فكيف إذا اضطرَب الحَبْلُ وانتَكَثَتْ مَريرَتُه، وأُبْرِزَ مَصُونُه، وعُرِّيَ حَريمُه بالاستباحة؛ ونِيلَ جانبُه بالضَّيم، وضُعْضِعَ مَنارُه بالرَّغْم، وقُصِدَ رُكْنُه بالهَدْم، وأنت أيها[1] المولى من وراء سُدَّة أمير المؤمنين المطيع لله، والحاملُ لأعْباءِ مُهمَّاته، والناهِضُ بأثقال نَوائِبه وأَحْداثه؛ والمَفْزَعُ إليك، والمُعَوَّل عليك، فإنْ كانَ مِنْكَ جِدٌّ وتَشميرٌ فما أقْرَبَ الفَرَجَ ممّا قد أظَلَّ وأزْعَج، وإنْ كانَ مِنْكَ تَوانٍ وتَقْصيرٌ فما أَصْعَبَه منْ خَطْب؟ وما أَبْعَدَه منْ شَعْب!! وقد جِئناكَ نُحَقِّقُ عندَكَ ما بَلَغَك من تَوَسُّط هذه الطاغية أَطْرَافَ المَوْصِل وما والاها، وأنّ الناسَ قد جَلَوْا عن أَوْطانهم، وفُتِنُوا في أَدْيانهم[2] وضَعُفوا عن حَقيقة إيمانهم؛ للرُّعْبِ الذي أذْهَلَهم، والخَوْفِ الَّذي وَهَلَهُمْ؛ وإنّما هم بَيْنَ أطْفَالٍ صِغار، ونِساءٍ ضِعاف، وشيوخٍ قد أخَذَ الزمانُ منهم، فهم أرْضٌ لكلِّ واطئ، ونَهْبٌ لكلِّ يد؛ وشباب لا يقفُون لعدوِّهم لقِلّة سلاحِهم، وسُوءِ تأتِّيهم[3] في القِراعِ والدِّفاع، ونحن نسأَلُكَ أن تتوخَّى في أمَّة محمّد ﷺ ما يُزْلِفُك عنده، ويكونُ لك في ذلك ذُخْرٌ منْ شَفاعتِه، وبَخْتيارُ مُطْرِق.

ثم اندَفَع عليُّ بنُ عيسى فقال: أيّها الأمير، إنّ الصغِيرَ يُتدارَك قَبْل أن يَكْبُر، فكيفَ يَجُوز ألاّ يُسْتَقْبَلَ بالجدِّ والاجتهاد وهو قد عَسَا وَكَبُر. والله إنْ[4] بنا إلَّا أَنْ يَظُنَّ أَهْلُ الجَبَلِ وأَذْرَبيجَانَ وخُرَاسَانَ أنَّه ليس لنا ذَابٌّ عن حَريمِنا، ولا ناصِرٌ لدِينِنا، ولا حافظٌ لبَيْضَتِنَا، ومُفَرِّجُ لكُرْبَتِنَا، ولا مَنْ يَهُمُّه شيءٌ مِنْ أُمُورِنَا، فاللهَ اللهَ، لا تَجُرَّنَّ علينا شَمَاتَتَهُمْ بنا، وخُذْ بأَيْدِينَا بقُوَّتِكَ، وحُسْنِ نِيَّتِك، وحَمِيدِ طَوِيَّتِك، وعِزِّكَ وسُلْطَانِك، وأوليائكَ وأَعْوَانِك، واكتُبْ قبل هذَا إلى عُدَّةِ الدّولَةِ بما يَبْعَثُه على حِفْظِ أَطْرَافِه، وحِرَاسَةِ أَكْنَافِه، مع اسْتِطْلَاعِ الرَّأْيِ مِنْ جهَتِك، ومُطالَعةِ أمير المؤمنين برأيكَ وَمَشُورَتِكَ.

(١) كذا في (ب). وعبارة (أ) «وأنت أمير الأمير المولى ما وراء سيده»، ولا يخفي ما فيها من اضطراب.

(٢) في (أ) «ديارهم»؛ وهو تحريف.

(٣) كذا في (ب)؛ والذي في (أ) بأسهم؛ وهو تحريف إذ أن سوء البأس في هذا الموضع مما يحمد لا مما يعاب.

(٤) «إن» في هذا الموضع نافية بمعنى «ما».

ثم رفع الأنصاريُّ رأسَه وقال: ليس في تَكْرِير الكلام - أَطال الله بقاء الأمير - فائدةٌ كبيرة، ولئن كانَ الإيجازُ في هذا الباب لا يَكْفِي، فالإطنابُ فيه أيضًا لا يُغْنِي، والله لو نَهَضْتَ بنا ونحن أَحْرَاضٌ[١] كما تَرَى لا نُقلِّب مِخْصَرَةً[٢] بكَفّ، ولا نَرْمي دُحْروجَةً[٣] بيَد، ولا نَعْرفُ سِلاَحًا إلا بالاسم، لَنَهَضْنَا وسِرْنا تحت رَايَتِك، وتَصرَّفنا بين أمرِكَ ونَهْيك، وفَدَّيْناك بأرْوَاحِنَا ضَنًّا بك، وبعثْنَا عَلَى مِثل ذلك أحداثَنا وأَوْلاَدَنا الذين رَبَّيْنَاهم بنِعْمَتِك، وخَرَّجْنَاهم في أَيَّامِك، وادّخَرْناهم للنَّوَازِلِ إذا قامت، والحوادثِ إذا تَرَامَت، فإن كان في المال قِلّةٌ فَخُذْ مِنْ مُوسِرِنا ومِمَّنْ له فَضْل في حالِه، فإنه يُفْرِج عنه طاعةً لك، وطَمَعًا فيمَا عِندَ اللهِ من الثَّوَاب.

وقال العَوَّامِيّ[٤]: واللهِ ما سُمِّيتَ لِلدَّوْلة عِزًّا، إلا لِأَنَّ اللهَ - تعالى - قد ذَخَرَكَ للمُسْلمين كَنْزًا، وجعل لهم على يَدَيكَ وبتدبيرك راحةً وفَوْزًا، ولم يُعَرِّضْك لهذه الفَادِحَةِ إلَّا ليَخُصَّكَ بانفِرَاجِها [عَلَى يَدِك] وَيُبْقِي لك بها ذِكْرًا يطبِّقُ الأرْض ويبْلُغَ أُمَرَاءَ خُرَاسانَ ومِصْرَ والحِجَازِ واليَمنِ فَيُصيبَهُم الحَسدُ على ما هَيَّأَ[٥] اللهُ لك منها.

ونَظَرَ بَخْتِيَارُ إلى ابنِ حَسَّان القاضي - وكان مُنْبَسِطًا مَعَه لِقَدِيم خِدْمَتِه - فقال: أَيُّهَا القاضي، أنتَ لا تقول شيئًا؟ قال: أَيُّهَا الأمير، وما القَوْلُ وعِنْدَك هؤلاء العلماء، والمَصَاقِعُ الألِبَّاء؛ وإنّ سِرَاجِي لا يَزْدَهِرُ في شَمْسِهِمْ، وإنّ سَحَابتي لا تبلّ على بُلالِهِم[٦]: وقد قالوا فأَنْعَمُوا[٧]، وَجَرَوْا[٨] فأَمْعَنوا، وليس قُدَّامَهم إمام، ولا وراءَهُمْ أَمام؛ لكنِّي أقول: ما

(١) في (ب) «أحراس» بالصاد؛ وهو تصحيف. والأحراض: جمع حرض بالتحريك وهو الكال المعيي والمشرف على الهلاك.

(٢) في (أ) «محصره» بالحاء المهملة؛ وفي (ب) «محضرة» بالحاء المهملة والضاد المعجمة وهو تصحيف في كلتا النسختين. والمخصرة: ما يتوكأ عليه من عصا ونحوها.

(٣) في كلتا النسختين «بحبوحة» وهو تحريف إذ لم تجد له معنى يناسب السياق، ولعل صوابه ما أثبتنا. والدحروجة: ما يدحرجه الجعل من البندق، أو لعله حَدَجَة بالتحريك يقال تراموا بالحدج وهو الحنظل الصغير.

(٤) في كلتا النسختين: «العراقي»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا أخذا مما سبق.

(٥) في (ب) «وهب» مكان قوله «هيأ»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٦) البلال بكسر الباء وضمّها: الماء.

(٧) أنعموا: جوّدوا.

(٨) في (أ) «وحرروا»؛ وهو تحريف.

جَشَمْنَا إليكَ هذه الكُلَفَ إلَّا لتنْظُرَ على ضَعْفِ أَرْكانِنا، وعُلُوِّ أَسْنَانِنا[١] وقلّة أعْوانِنا[٢]، لأَنّا[٣] رَأَيْنَاكَ أَهْلًا للنَّظَر في أَمْرنا، والاهْتمامِ بحالِنَا، وبما يعودُ نَفْعُه على صغيرِنا وكَبيرِنا.

فقال عِزُّ الدولة: ما زُوِيَ عَنِّي ما طَرَق هذه البلاد، ولقد أَشْرَفْتُ عليه، وفكَّرْتُ فيه، وَما أَحْبَبْتُ تَجَشُّمَ هذه الطائفةِ عَلَى هذا الوَجْه. وَما أَعْجَبَنِي هذا التقريعُ مِنَ الصَّغيرِ والكبير، وما كانَ يَجُوز لي أن أَنْعُسَ عَلَى هذه الكارِثَة، وأَنْعَمَ بالعَيْشِ مَعها، ولَعمْري إنّ الغَفْلَة [علينا] أَغْلَب، والسَّهْوَ فينا أَعْمَل، ولكن فيما رَكِبْتمُوه[٤] مِنّي تَهْجِينٌ شديد، وتوبيخٌ فاحشٌ، وإنّ هذا المجلس لمِمَّا يُتَهادَى حَدِيثُه بالزَّائِد والناقِص، والحَسَنِ والقَبِيح، وإنّكم لَتظُنّون أنّكم مَظْلُومُون بسلطانِي عليكم، ووِلَايَتي لأُمُوركم؛ كلَّا، ولكن كما تكونون يُوَلَّى عليكم، هكذا قَوْلُ صاحب الشَّريعَة فينَا وفيكُم؛ واللهِ لوْ لم تَكُونوا أَشْبَاهي لَمَا وَلِيتُكُمْ، وَلَوْلا[٥] أَنِّي كَوَاحِدٍ منكم، لَما جُعِلْتُ قَيِّمًا عليكم؛ ولو خَلَا كلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بعَيْب نفْسِه لَعَلِمَ أَنَّهُ لا يَسَعُه وَعْظُ غَيْره، وتَهْجِينُ سُلْطَانه؛ أَيَظُنُّ هذَا الشيخُ أَبو بكر الرَّازيُّ أَنَّني غيرُ عَالم بنفَاقِه، ولا عارفٍ بما يشتمل عليه مِنْ خَيْرِه وَشَرِّه؛ يَلْقَاني بوَجهٍ صُلْب، ولسانٍ هَدَّار يُرِي مِنْ نَفْسِه أَنّه الحَسَنُ البَصرِيّ يَعِظُ الحَجَّاج بنَ يُوسُف، أو وَاصلُ بنُ عَطاء يأمُرُ بالمَعْرُوف، أو ابن السّماك يُرْهِبُ الفُجَّار؛ هذا قَبيح، ولو سكتُّ عن هذا لكان عِيًّا وعَجزًا؛ جَزَى اللهُ أبا عَبْد الله شيخَنا خيْرًا حينَ جَلَس، وكذلك أَحْسَنَ اللهُ عنّا مكافأَةَ أَبي سَعيدٍ السِّيرَافيّ، فإِنَّه لَوْ عَلِمَ أنّ في مُسَاعَدَتكُمْ رُشدًا لَمَا تَوَقَّفْ؛ وأمّا أنتَ يا أبا الحَسَن - يُريد عليّ بن عيسى - فَوَحَقِّ أَبي إنِّي لَأُحِبُّ لِقَاءك، وأُوثِرُ قُرْبَكَ، ولولا ما يَبْلُغُني مِنْ مُلازَمَتِكَ لمجْلِسك، وتَدْرِيسكَ لمُختلِفَتِك[٦]، وإكْبَابِكَ عَلَى كِتابِكَ في القُرْآن، لغَلَّبْتُك

(١) في كلتا النسختين: «شأننا»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، كما أن في (أ) وحدها «وغلو» بالغين المعجمة مكان المهملة؛ وهو تصحيف أيضًا.

(٢) في (أ) «إخواننا»؛ وهو تحريف.

(٣) في كلتا النسختين: «لكنا»؛ وهو تحريف، فإن الاستدراك هنا غير مفهوم.

(٤) في (أ) «رأيتموه من»؛ وهو تحريف.

(٥) في (أ) «ولو أني»؛ ولا يستقيم به المعنى.

(٦) المختلفة: الذين يتعلمون منه.

على زَمَانِك، ولا اسْتَكْثَرْتُ ممَّا قَلَّ حَظِّي منه في هذِه الحال التي أنا مَدْفُوعٌ إليها، فإنها وَازِعَةٌ على هَوَى النّفْس، وطاعةِ الشيطان، ومُنَازَعةِ الأكْفَاء، وجَمْع المال، وَأَخْذِه منْ حَيْثُ يجِبُ أو لا يَجِبُ، وتَفْرِقَتِه فيمن يَسْتَحِقُّ ومن لا يَسْتَحِقّ، وإلى اللهِ أَفْزَعُ في قَليلِ أَمْرِي وكثيرِه، إذا شِئتم.

قال لي ابو الوَفاء – وهو الّذِي شَرَح لي المجلِسَ مِنْ أَوّلِه إلى آخِره–: لقد شاهدتُ من عِزِّ الدولة في ذلك المجلس المنصورَ[1] في جِدِّه وشَهَامَتِه، وثباتِ قَلْبِه وقُوَّةِ لِسانِه، مع بَحَحٍ لَذِيذٍ ولُثْغَةٍ حُلوَة.

قال: ولقد قُلتُ لَه بعد ذلك: أَيُّهَا الأمير، ما ظننتُ أنك إذا خَلَعْتَ رِدَاءك ونَزَعْتَ حِذاءك تَقُول ذلك المقال، وتَجُولُ ذلك المجال، وتَنالُ ذلِكَ المنال، لقد انصرَفَ ذلِك الرَّهْطُ عَلَى هَيْبَةٍ لَكَ شَدِيدة، وتعظيم بالغ، ولَقَد تَدَاوَلوا لَفْظَك، وتَتَبّعُوا مَعَانِيَك، وتَشَاحُّوا[2] عَلَى نَظْمِك، وقالوا: ما يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُسِيءَ ظَنّه بأَحَدٍ إلَّا بَعْدَ الخِبْرَةِ والعِيان، وإلَّا بَعْد الشَّهَادَة والبَيَان؛ أَهذا يقال له مُتَخَلِّف أَو نَاقِص؟ لِلهِ دَرُّه من شَخْص! ولله أَبوه مِنْ فتًى مِدْرَه!

ولما بلَغَ هذا المجلسُ الّذين قَعَدُوا عن المَسِير إليه – أَعْنِي عِزَّ الدولة – حَمِدُوا اللهَ تعالى، وعَلِمُوا أَنَّ الخِيرَة كانت قَرِينةَ اخْتِيَارهم.

قال الوَزير: قراتُ ما دَوَّنه الصَّابِئ أبو إسْحاق في (التَّاجِيِّ) فما وَجَدْتُ هذا الحديث فيه. قلتُ: لعلّه لم يَقَع إليه، أو لعلّه لم يَرَ التَّطويلَ به، أو لعلّهُ لم يَسْتَخِفَّ ذِكْرَ عِزِّ الدَّولة على هذا الوجه. قال: هذا مُمْكِن؛ فهل سَمِعْتَ في أيام الفِتْنَةِ بغَرِيبة؟

قلتُ: كلُّ ما كنّا فيه [كان] غريبًا بديعًا، عجيبًا شنيعًا، حَصَلَ لَنا مِنَ العَيَّارِين قُوَّاد[3]،

(١) يريد بالمنصور أبا جعفر الخليفة العباسيّ المعروف.

(٢) تشاحّوا على نظمك، أي أن كلا منهما ضمن بما يحفظه منه على صاحبه، وفي (ب) «وتسايحوا»؛ وهو تحريف.

(٣) في (أ) «قول»؛ وهو تحريف.

وأشْهرَهُم[١] ابن كَبْرَوَيه، وأبو الدُّود[٢]، وأبو الذُّباب، وأَسْوَدُ الزُّبْد، وأبو الأَرَضة[٣]، وأبو النَّوَابح، وشُنَّت الغارة، واتَّصَل النَّهْب، وتَوَالَى الحَرِيقُ حتى لم يَصِلْ إلَيْنَا الماءُ من دِجْلَة، أَعْنِي الكَرْخ.

فمِنْ غريبِ ما جَرَى أنَّ أَسْوَدَ الزُّبْدِ كان عَبْدًا يَأوِي إلى قَنْطَرَة[٤] الزُّبْدِ ويَلْتَقِطُ النَّوَى ويَسْتَطْعِمُ مَنْ حَضَرَ ذلِك المكان بلَهْوٍ ولَعِب، وهو عُرْيانٌ لا يَتَوارَى إلا بخِرْقَة، ولا يُؤْبَه له، ولا يُبَالَى به، ومَضَى عَلَى هذا دَهر، فلما حَلَّتِ النَّفْرة[٥] أعْنِي لمّا وَقَعَت الفتنة، وفَشَا الهَرْجُ والمَرْج، ورَأَى هذا الأسْوَدُ من هو أَضْعَفُ منه قد أَخَذَ السَّيْفَ وأَعْمله، طلَبَ سَيْفًا وشَحَذَه، ونَهَبَ وأَغارَ وسَلَبَ، وظَهَرَ منه شيطان في مَسْكِ إنسان، وصَبُحَ وَجْهُه، وعذب لَفْظُه، وحَسُنَ جِسْمُه، وعُشِقَ وعَشِق، والأيَّام تأتي بالغرائب والعجائب، وكان الحسنُ البَصْريّ يقول في مَوَاعِظه: المعتَبر كثير، والمعتبر قليل. فلمّا دُعِيَ قائدًا وأَطَاعَه رِجالٌ وأعطاهم وفَرَّق[٦] فيهم، وطلبَ الرِّئاسة عليهم، صار جانبُه لا يُرَام، وحِمَاه لا يُضَام.

فممَّا ظَهَر من حُسْنِ[٧] خُلُقه - مع شَرِّه[٨] ولَعْنَته، وسَفْكه للدَّم، وَهَتْكِه للحُرْمة، ورُكُوبه للفاحشة، وتمرُّدِه عَلَى رَبِّه القادِر، ومالِكِه القاهِر - أَنّه اشْتَرَى جاريةً كانت في النَّخَّاسِين عِند المَوْصِليِّ بألف دينار، وكانت حَسْناءَ جميلة، فلمّا حَصَلتْ عندَهُ حاوَل منها حاجَتَه، فامتَنَعَتْ عليه، فقال لها: ما تَكْرَهِين منّي؟ قالت: أكرَهُك كما أنت. فقال لها: فما تُحِبِّين؟ قال: أن تبيعني، قال لها: أو خَيرٌ مِنْ ذلك أعْتِقُك وأَهَبُ لكِ ألفَ دينار؟ قالت:

---

(١) في (ب) «وأسماؤهم».

(٢) في كلتا النسختين: «وابن الرود» بالراء؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا إذ هو المناسب لأسماء هؤلاء الذين ذكرهم.

(٣) كذا في (أ) والذي في (ب) «أبو الأري».

(٤) في كلتا النسختين: «الربد»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتاب بغداد للاستاذ لوسترانج **Le Strange**؛ ولعلهم كانوا يبيعون الزبد عند هذه القنطرة فأضيفت إليه وهي قنطرة البطريق أيضًا. وفي ياقوت: قنطرة رحى البطريق، وهي على نهر الصراة.

(٥) في (أ): «حلف الخنصرة» وفي (ب) «حلب البقرة»؛ وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٦) فرق فيهم، أي فرق الأعطية فيهم.

(٧) في (أ) «من خفي»؛ وهو تحريف.

(٨) في (أ) «شرهه»؛ والهاء الأولى زيادة من الناسخ.

نعم، فأَعْتقَها وأَعطاها أَلفَ دينار بحَضْرَة القاضي ابنِ الدَّقاق عند مسجد ابن رَغْبَان[1] فعَجِبَ الناس من نفْسِه وهِمّته وسماحَتِه، ومن صَبْرِه عَلَى كلامِهَا، وتَرْك مُكافأَتِهَا على كَرَاهتهَا، فلو قتلها ما كان أَتَى ما ليْسَ مِنْ فِعْلِه في مِثلِها.

قال الوزير: هذا وَالله طَرِيف، فما كان آخِرُ أَمْره؟ قلتُ: صارَ في جانب أبي أحمَدَ المُوسَوِيِّ وحِمَاه، ثم سيَّرَه إلى الشام فَهَلَك بها.

قال: وكيف سَلِمتَ في هذه الحالات؟ قلتُ: ومتى سَلِمتُ؟ جاءتِ النهَّابة إلى بَيْنَ السُّورَيْن[2] وشَنُّوا الغارَة واكتَسَحوا ما وَجَدُوا في مَنزلي من ذَهَب وثياب وأَثاث، وما كنتُ ذَخَرْتُه من تُرَاث العُمْر؛ وجرَّدوا السَّكاكين على الجارية في الدَّار يطالبونها بالمال، فانشقت مرَارَتُها، ودُفِنَتْ في يوْمها، [وأَمْسَيْتُ] وما أَمْلِك مع الشيطان فَجْرَة[3]، ولا مع الغُراب نَقْرَة.

أَيُّهَا الشيخ - وفَّقَكَ الله في جميع أحوَالك، وكان لك في كلِّ مَقَالك وفعَالِك - إنما نَثرْتُ بالقَلَم ما لَاق به؛ فأمَّا الحديثُ الَّذي كانَ يَجْرى بيْني وبَيْنَ الوزير فكان على قَدْر الحال والوقتِ [والواجب]؛ والاتّساعُ يَتبَعُ القَلَمَ ما لا يَتْبَعُ اللِّسان، والرَّوِيَّةُ[4] تَتْبَع الخَطَّ ما لا تتْبَع العبارة، ولما كان قَصْدِي فِيما أَعْرِضُه عليك، وأُلْقِيه إليك، أن يبقى الحديثُ بَعْدي وبَعْدَك، لم أَجِدْ بُدًّا من تنسيقٍ يَزْدَانُ بِه الحَدِيث، وإِصْلَاح يَحْسُنُ معه المَغْزَى، وتكلّفٍ يَبْلُغ بالمُراد الغاية، فليَقُم العُذْرُ عِندَك على هذا الوَصف، حتى يَزُول العَتْب، ويُستَحَقَّ الحَمْدُ والشُّكْر.

---

(١) مسجد ابن رغبان في غربي بغداد. والذي في (أ) ابن رعبان بالعين المهملة؛ وهو تصحيف.

(٢) إلى بين السورين، أي إلى هذه المحلة المسماة بهذا الاسم في بغداد.

(٣) في (أ) «نحوه». وفي (ب) «نخرة» وهو تحريف في كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا، أي لا أملك ما أفجر به فجرة واحدة مع الشيطان. ويشبهون العجلة في السجود بنقر الغراب، فيريد بالعبارة الثانية أنه لا يملك سجدة مستعجلة مع الغراب تشبه نقرة من نقراته. ويريد بالعبارتين أنه لا يملك عملا خبيثًا ولا طيبًا مهما قلاّ. هذا ما يلوح لنا من معنى هاتين العبارتين.

(٤) في الأصول: «والرق به يتسع الحظ ما لا تسع الخ» وهو تحريف؛ وسياق الكلام يقتضيي ما أثبتنا.

الليلة التاسعة والثلاثون

وقال الوزير ليلة: يعجبني الجوابُ الحاضر، واللفظ النادِر، والإشارة الحُلْوَة، والحَركة الرَّضِيَّة، والنَّغْمَةُ المُتَوَسِّطة، لا نازلةً إلى قَعْرِ الحَلْق، ولا طافِحَة على الشفة.

فكان من الجواب: اقْتِرَاح الشيء على الكمال سَهْل، ولكنّ وجْدَانه على ذلك صَعْب، لأنَّ التَّمَنِّي صَفْوُ النَّفْس الحِسِّيّة، ونَيْلَ المتمنَّى في الفُرْصَة[1] المحْشُوّةِ بالحَيْلولة.

وقد قال المدائِنيُّ: أحسنُ الجواب ما كان حاضرًا مع إصابَةِ المَعْنى وإيجاز اللَّفْظِ وبُلوغ الحجَّة.

وقال أبو سليمان شارحًا لهذا: أَمّا حَضور الجَوابِ فَلِيَكُونَ الظَّفَرُ عند الحاجة، وأما إيجاز اللفظ فَلِيَكونَ صافيًا من الحَشو، وأمّا بُلوغُ الحُجَّةِ فليَكُونَ حَسْمًا للمُعارضَة.

قال: ما أحسنَ ما وَشَّحَ هذهِ الفقْرَة بِهذِه الشَّذْرَة!

وحَكَى المدائنيّ قال: قال مَسْلَمةُ بنُ عَبْدِ المَلِك: ما مِنْ شيء يؤتاهُ العَبْدُ بعد الإيمانِ بالله أَحَبُّ إليَّ من جوابٍ حاضِر، فإنَّ الجَوَابَ إذا تُعُقِّبَ لم يَكُن له وَقْع.

وحَكَى المدائنيُّ بإسنادِهِ عن عَبْد الرَّحمن بن حَوْشَب أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال لعَمْرو بن الأَهْتَم التَّميميّ: أَخْبِرْني عن الزِّبْرِقَان بن بَدْر، فقال: مُطاعٌ في أَدْنَيه، شديد العارِضَة، مانعٌ لِمَا وَرَاء ظَهْرِه. فقال الزِّبْرِقان: يا رَسول الله، إنه ليَعْلَمُ مِنِّي أكثرَ مِنْ هذا، ولكنّهُ حَسَدَني، فقال عمرو: أَمَا واللهِ يا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ لَزَمِرُ[2] المروءة، ضَيِّقُ العَطَن، لئيمُ الخال، أَحْمَقُ الوالِدِ، وما كَذَبْتُ في الأولى، ولقد صَدَقْتُ في الأخرى، ولقد رَضِيتُ فقلتُ أَحْسَنَ ما

(١) في (أ) «ي العرضة»؛ وفي (ب) «في العرض» وهو تحريف فيهما.

(٢) في كلتا النسختين: «زمن» بالنون؛ وهو تحريف؛ وزمر المروءة: قليلها.

عَلِمت، وسَخِطْتُ فقلْتُ أَسْوَأَ ما عَلِمْتُ. فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ من البَيَان لَسِحرًا وإنَّ مِنَ الشِّعْر لَحِكَمًا»(*).

وقال أبو سليمان: السِّحْرُ بالقَوْلِ الأعَمِّ والرّسم المُفِيدِ على أَرْبَعةِ أَضْرُب: سِحْرٌ عَقْلِي، وهو ما بَدَرَ من الكلام المشتمِلِ على غريب المَعْنَى في أيِّ فنٍّ كان؛ وسِحْرٌ طَبيعيّ، وهو ما يَظْهَرُ مِنْ آثارِ الطبيعةِ في العَناصِر المُتَهَيِّئة[1] والموادِّ المُسْتَجِيبَة[1]، وسحرٌ صِناعيّ، وهو ما يوجَدُ[2] بخِفَّةِ الحركات المباشِرَة، وتصريفها في الوُجوهِ الخَفِيَّة عن الأبصار المُحَدِّقَة، وسِحْرٌ إلهي وهو ما يَبْدُو من الأنْفُسِ الكَريمة الطَّاهِرَة باللَّفْظِ مرَّة، وبالفِعْل مَرّة. وعَرْض كلِّ واحدٍ من هذه الضُّرُوب واسِع، وكلُّ حِذْقٍ ومهارَةٍ وبلوغٍ قاصِيَةٍ في كلِّ أمْر هو سِحْرٌ، وصاحبُه ساحِرٌ.

وقال المدائني: نظرَ ثابت بنُ عبد الله بن الزُّبَيْر إلى أَهل الشام فَشَتَمَهُم، فقال له سعيدُ بنُ عُثمان بن عَفَّان، أَتَشْتُمُهُمْ لأَنَّهُمْ قَتَلُوا أَباكَ؟ فقال: صَدَقْتَ، ولكنّ المُهَاجِرينَ والأَنْصَارَ قَتَلُوا أَباكَ.

وقال عبدُ المَلك بنُ مَرْوَان لثابتِ بن عبد الله بن الزُّبَيْر: أَبُوكَ كانَ أعلَم بك حين شَتَمَكَ، فقال: يا أمير المؤمنين، أَتَدْرِي لِمَ كان يَشْتُمُني؟ إني نَهَيْتُه أن يُقَاتِلَ بأَهْلِ مَكةَ وأَهْلِ المَدينَة، فإنّ اللهَ لا يَنْصُره بهما، وقلتُ له، أَمَّا أَهْلُ مكّةَ فأَخْرَجُوا رسُولَ اللهِ ﷺ وأَخَافُوه، ثم جاؤوا إلى المَدينةِ فأَخْرَجهُمْ مِنْهَا وشَرَّدَهُمْ.

فَعَرَّضَ بالحَكَم بن أبي العاص - وهو جّدُّ عبدِ المَلِك - وكان النبيُّ صَلّى اللهُ عليه وعلى آله وسلّم نَفَاهُ.

وأَمّا أَهْلُ المدينةِ فَخَذَلوا عُثمانَ حَتَّى قُتِلَ بينهم، لم يَرَوْا أنْ يَدْفَعُوا عنه. فقال له عبدُ المَلِك: لَحَاك الله.

(*) رواه البخاري برقم (٥٧٦٧) وليس فيه: «وإن من الشعر لحكمًا» والزيادة في مجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ١١٩).

(١) ورد في (ب) هذان اللفظان «المتهيئة والمستجيبة» مهملة حروفهما من النقط تتعذر قراءتها.

(٢) في (أ) يؤخذ.

وقال عبْدُ الرَّحْمَن بنُ خَالِد بنِ الوَلِيدِ لِمُعَاوِيَة: أما واللهِ لو كنتَ بمكة لَعَلِمْتَ، فقَال معاوية: كنتُ أكون ابنَ أبي سُفْيَان يَنْشَقُّ عني الأَبْطَح، وكنتَ أنتَ ابنَ خالدٍ مَنْزِلُكَ أَجْياد، أَعْلاَهُ مَدَرَة، وَأَسْفَلُهُ عَذِرَة.

وقال المَدَائِنيّ: قال ابنُ الضحَّاك بن قيس الفِهْرِيّ[1] لهشام بنِ عبد المَلِكِ قبل أَنْ يَمْلك - وهو يومئذ غلامٌ شابّ - يا بن الخَلاَئف، لم تُطِيل شَعرَكَ وقميصَك؟ قالَ: أَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ كما قَالَ الشاعر:

قصيرُ القَمِيصِ فاحِــشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ وشَرُّ غِراسٍ في قُرَيْشٍ مُرَكَّبَـا[2]

قال: وهذا الشعرُ لأبي خالدٍ[3] مروانَ بن الحَكَم، هَجَا به الضَّحَّاك بن قيس.

وحَكَى أيضًا، قال: مرَّ عَطاءُ بنُ أبي[4] صَيْفِيّ بعبد الرحمن بن حسّان بنِ ثابتٍ وعَطاءٌ على فَرَسٍ له؛ فقال له عبد الرحمن: يا عَطَاء، لو وجدتَ زِمَامَ زِقِّ الخمر خاليًا ما كنتَ تَصْنَعُ به؟ قال: كنت آتي به دُورَ بَنِي النَّجَّار فأعرِّفُه فإنَّهُ ضالَّةٌ من ضوالِّهم، فإنْ عَرَفُوه[5] وإلاّ فهوَ لَكَ لمْ يَعْدُكَ، ولكن أَخْبِرْني أيُّ جَدَّيْكَ أَكْبَر، أَفُرَيْعَةُ أَمْ ثابت؟ قال: لا أَدْرِي. قال: فلِمَ يَعْنِيك[6] ما في كَنَائِنِ الرِّجال وأَنْتَ لا تَدْرِي أَيُّ جَدَّيْكَ أكبَر؟ بل فُرَيْعَةُ أَكْبرُ مِنْ ثابت، وقد تَزَوَّجَهَا قَبْلَه أَرْبَعةٌ كلُّهُم يَلقَاهَا بمِثلِ ذِرَاع البَكْرِ، ثم يُطَلِّقُهَا عَنْ قِلًى؟ فقال لها نِسْوةٌ من قَوْمِهَا: واللهِ يا فُرَيْعَةُ إنَّكِ لَجَمِيلَة، فما بال أَزْوَاجِكِ يُطَلِّقُونَكِ؟ قالت: يُرِيدُون الضِّيقَ ضَيَّقَ اللهُ عَليْهم.

وحَكَى أيضًا قال: قال أبو السَّفَر: بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ يسيرُ إذ رُفِعَ بينَ مكة والمدينة

---

(١) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «العنزي»، وهو تحريف.

(٢) المركب: الأصل والمنبت. وفي (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «فركيا» وهو تحريف لا معنى له. وفيها أيضا «فراش» مكان «غراس»؛ وهو تحريف.

(٣) لم نجد في الكتب التي بين أيدينا أن أبا خالد كنية لمروان بن الحكم.

(٤) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة: قال ابن عطاء مر ابن صيفي. وفي العبارة اضطراب ظاهر لا يستقيم به المعنى، كما لا يخفى.

(٥) حذف الجواب هنا للعلم به وهو «فهو لهم».

(٦) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «ينهيك»؛ وهو تحريف.

قبرُ أبي سَعِيد بن العاص، فقال أبو بكر: لَعَنَ الله صاحِبَ هذا القبر، فإنه كان يُكذِّبُ اللهَ ورَسولَه، فقال [خالد بنُ][1] أَسِيد - وهو في القوم -: لا بل لَعَنَ اللهُ أبا قُحَافَة فإنه كانَ لا يَقْرِي الضيفَ، ولا يَمْنَعُ الضَّيْمَ، ولا يُقَاتِلُ معَ رَسُول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «إذا سَبّني المُشْرِكُون فعُمُّوهم بالسّبّ، ولا تَسُبُّوا الأمواتَ فإنْ سبَّ الأمْوَات يُغْضِبُ الأحْيَاء؟»(*).

قال محمدُ بنُ عُمَارة: فذاكرتُ بهذا الحديث رَجُلا من أصحاب الحديثِ مِنْ وَلَدِ سعيد بن العاص، فَعَرَفَه، فقال: فيه زيادة ليست عندكم، قلت: وما هي؟ فقال: قال خالدُ بنُ أَسِيد: يا رَسولَ الله، والّذِي بَعَثَكَ بالحق ما يَسُرُّني أنّه في أَعْلَى عِلِيِّينَ وأَنَّ أبا قُحَافَة وَلَدُه. فَضَحِك رَسولُ الله ﷺ حتى بَدَتْ نواجِذُه، وقال: «لا تَسُبُّوا الأمواتَ فإنَّ سَبَّهُمْ يُغْضِبُ الأحْيَاء».

وحَكَى قال: رَمى عُمَرُ بن هُبَيْرَة الفَزَارِيُّ إلى عُرَام بن شُتَيْر[2] بخاتَم له فِضّة - وقد زُوِّجَ - فَعَقَدَ عليه عُرَام سَيْرًا وردَّهُ إلى ابنِ هُبَيْرَة. أَرَادَ ابنُ هُبَيرةَ قَوْلَ الشاعر:

لقد زَرِقتْ عَيْنَاكَ يا بْنَ مُلَعَّنٍ كما كلُّ ضَبِّيٍّ من اللؤْمِ أَزْرَقُ

وعرَّض له عُرام بقول ابن دارَة:

لا تأمَنَـــنَّ فَزَارِيًّا خَلَــوْتَ به على قَلُوصِكَ واكْتُبْهَا بأَسْيَار[3]

وقال المدائني: وكان ابنُ هُبَيْرَة يُسايرُ هِلاَل[4] بن مُكَمّل النُّمَيري، فَتَقَدَّمَتْ بَغْلَةُ النُّميرِيِّ بغلةَ ابن هُبَيْرَة. فقال: غُضّ من بَغلَتِك. فالتفَتَ إليه النُّمَيرِيّ فقال: أَصْلَحَ اللهُ

(١) هذه التكملة التي بين مربعين لم ترد في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة والسياق يقتضي إثباتها إذ أن أسيدا أبا خالد لم يكن مع القوم.

(*) روى الإمام أحمد والنسائي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا» وليس فيه زيادات أبي حيان.

(٢) كذا في تاريخ الطبري طبع أوروبا، والذي في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «شنير» بالنون، وهو تصحيف.

(٣) اكتبها بأسيار، أي اخزم حياءها لئلا ينزى عليها.

(٤) في العقد الفريد «سنان بن مكمل». وفي نهاية الأرب أيوب بن ظبيان، وفي كتاب الكناية والتعريض للثعالبي «شريك بن محمد».

الأَمير، إنَّهَا مَكْتُوبة، وإنما أَرَادَ ابنُ هُبَيْرَة:

فَغُضَّ الطَّـــرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْـر فلا كَعْبًا بلَغْــتَ ولا كِلابــا[1]

وأَرَادَ النُّميرِيُّ قَوْلَ سَالِم بن دارَة:

لا تأمَنَـــنَّ فَزارِيًّا خَلَـــوْتَ به على قَلُوصِكَ واكْتُبْهَا بأَسْيَـــار

وقال الوليد العَنْبَرِيّ[2]: مرّت امرأةٌ مِنْ بَني[3] نُمَير على مجلسِ لهم، فقال رجل منهم: أيتها الرسحاء[4]. فقالت المرأة: يا بني نُمَيْر، والله ما أَطَعْتُم الله ولا أَطَعْتُم الشاعر، قال الله عزَّ وجلّ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

وقال الشاعر:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ فلا كَعْبًا بلغتَ ولا كِلابًا

وقال: مرَّ الفرزدقُ بخالِد بن صَفْوان بن الأهتم، فقال له خالد: يا أبا فِراس، ما أنت الذي لمّا رَأَيْنَهُ ﴿أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]، فقال لَهُ الفَرَزدق: ولا أَنت الذي قالت الفتاة لأبيها فيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

قال: ودخل يزيدُ بنُ مُسْلم على سُليمان بن عبد المَلِك، وكان مُصْفَرًّا نحيفًا، فقال سُليمان: على رَجُلٍ أَجَرَّكَ رَسَنَكَ[5] وسَلَّطَكَ على المُسْلمين لَعْنَةُ الله. فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّكَ رَأَيْتَنِي والأَمْرُ عَنِّي مدبرٌ، فلو رأَيْتَني وهو علَيَّ مُقْبلٌ لاسْتَعْظَمْتَ منّي يومَئِذٍ ما اسْتَصْغَرْتَ اليَوْمَ. قالَ: فأَيْنَ الحَجَّاج؟ قالَ: يجيءُ يومَ القيامَةِ بَيْنَ أَبِيكَ وأَخِيكَ، فَضَعْهُ حَيْثُ شِئْت.

وقالَ عبَّاد بن زِياد: كنتُ عند عبد المَلِكِ بن مروان إذ أتاه أبو يوسُف حاجِبُهُ، فقال:

---

(١) البيت لجرير.

(٢) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «الغيديّ»، ولم نجد الغيديّ هذا ضمن أسماء الرواة، والذي وجدناه في أسمائهم الوليد العنبري كما في تاريخ الطبري.

(٣) في نهاية الأرب مرت امرأة من العرب بمجلس من مجالس بني نمير؛ وهو أنسب.

(٤) الرسحاء: التي خفّ لحم إليتيها ووركيها.

(٥) أجرك رسنك، أي تركك وشأنك تفعل ما تشاء. والرسن المِقْوَد تقاد به الدابة.

يا أميرَ المؤمنين، هذه بُثَيْنَة. قال: أَبُثَيْنَةُ جَمِيل؟ قال: نعم، قال: أَدْخِلْهَا، فدَخَلَت امرأَةٌ أَدْمَاء طَوِيلَةٌ يُعْلَم أنَّها كانَتْ جميلة، فقال له: يا أبا يوسف أَلقِ كُرْسِيًّا، فألقاهُ لها، فقال لها عَبْدُ المَلِك، ويَحكِ ما رَجَا مِنْكِ جَمِيل، قال: الذي رَجَتْ مِنْكَ الأُمَّةُ حينَ ولَّتْكَ أمْرَهَا.

وقال سعيدُ بنُ عَبْد الرَّحْمن بن حَسَّان: إنَّ رَهْطًا من الأنْصار دَخَلُوا على مُعَاوية، فقال: يا مَعْشَرَ الأنْصَار، قُرَيْشٌ خَيْرٌ لكم منكم لَهُمْ، فإنْ يكُن ذلِك لقتلى أُحُد، فقد قَتَلْتمْ يومَ بَدْرٍ مِثْلَهُمْ؛ وإن يكن لإمْرَةٍ[1] فوالله ما جعلتم لي على صِلَتكم سَبيلًا؛ خَذَلْتُمْ عُثْمانَ يومَ الدار، وقتَلْتُم أنصارَه يومَ الجَمَل، وصَلِيتُم بالأمر يوم صِفِّين. فتكلَّمَ رَجُلٌ منهم، فقال: يا أميرَ المؤمِنين، أمَّا قولُك «إن يَكن لِقَتْلَى أُحُد» فإن قَتِيلَنا شَهيد وحَيّنا تائق[2]، وأمَّا ذِكْرُك الإمْرَةَ، فإنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَمرَ بالصَّبْر عليها. وأمَّا قولُك إنَّا خَذَلْنَا عُثْمانَ، فإنَّ الأمر في عثمان إلى قَتَلَتِه[3]؛ وأمّا قَوْلُك إنّا قَتَلنَا أَنْصَارَه يوم الجَمَلِ فذلك ما لا نَعْتَذِرُ منه، وأما قوْلُك إنّا صَلِينا بالأمْرِ يومَ صِفِّين، فإنما كُنَّا مع رَجُل لم نألُه خُبْرًا، فإنْ لُمْتَنا فرُبَّ مَلُومٍ لا ذَنْبَ لَهُ.

ثم قام هو وأصحابُه يجرُّ ثَوبَه مُغْضَبًا، فقال معاوية: رُدُّوهم، فرُدُّوا فَتَرضَّاهم حتى رَضُوا، ثم انْصَرَفُوا. وأقبلَ معاوية على رَهْطٍ من قريشٍ، فقال: والله ما فَرَغَ من مَنْطِقِه حتى ضاقَ بِي مجلسي.

قال سعيدُ بن عبد الرَّحمن بن حَسَّان: دَخَلَ قيسُ بنُ سعد بن عُبادَة مع قومٍ من الأنْصار على مُعاوِية. فقال معاوية: يا مَعْشَر الأنصار، لِمَ تَطْلُبُون ما قِبَلِي، فوالله لقد كنتمْ قليلًا معي، كثيرًا عليّ، ولقد قَتَلْتُم جُنْدِي[4] يوم صِفِّين حتى رأيتُ المَنَايا تَلَظَّى في أَسِنَّتِكُمْ،

(١) في (أ) التي ورد فيها وحدها دون (ب) هذا الكلام «الدهره»؛ وهو تحريف في صوابه ما أثبتنا كما يؤخذ مما يأتي بعد في جواب الأنصار من قولهم: وأما ذكرك الإمرة الخ. ويريد بالإمرة أنه لا يوليهم الأعمال.

(٢) تائق أي إلى أن يستشهد. وفي (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة وردت تلك الكلمة مهملة الحروف من النقط. ولعل الصواب ما أثبتنا أو لعل صوابها «مائت».

(٣) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «قلمنا»؛ وهو تحريف.

(٤) في (أ) «جدى»؛ وهو تحريف.

وهَجَوْتُمُوني[١] بأشَدَّ من وَخْزِ الأشَافي[٢] حتى إذا أَقَامَ الله ما حاولتُم مَيْلَه[٣]، قلتم: ارْعَ فينا وَصِيَّةَ رَسُول الله ﷺ؛ هَيهات، «أَبَى الحَقِين العِذْرَة»[٤]، فقال قيس: نَطْلُبُ ما قِبَلكَ بالإسلام الكافِي به اللهُ لا سِوَاه، لا بما تَمُتُّ به إليكَ الأحزاب، وأما عداؤنا لك فلو شئت كفَفْنا عنك؛ وأما هجاؤنا إيّاك فقولٌ يزُولُ باطِلُه، وَيثْبُتُ حَقُّه، وأَمَّا قَتْلُنا جُنْدَكَ يومَ صِفِّينَ فإنا كنا مع رَجُلٍ نَرَى أنّ طاعَتَه طَاعةُ الله؛ وأمّا استقامة الأمْرِ لك فعَلَى كُرْهٍ كان مِنَّا، وأمّا وَصِيَّةُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعَلَى آله وسلم فينا، فَنْ آمَن به رعاهَا؛ وأما قولك «أَبَى الحَقِينُ العِذْرَة»، فليس دُونَ الله يَدٌ تَحْجُزُكَ؛ فشأنَك. فقامَ مُعَاويةُ فَدَخَل، وخَرَجَ قَيْسٌ ومَنْ كان مَعَه.

وقالَ محمد بنُ خالد القُرَشيّ: دَخَلَ زُفَرُ بنُ الحارثِ الكِلاَبيُّ على عبدِ المَلك بن مَرْوَان وعندهُ خالدُ بنُ عبدِ الله بن خالد بن أَسِيد وأُمَيَّةُ بنُ عبد الله بن خالد، فقال زُفَرُ: لو كان لعبد الله سَخاءُ مُصْعَب وكان لمصعب عِبادَة عبد الله لكانا ما شاءَ المُتَمَنِّي. فقال عبدُ المَلك: ما كان سَخَاءُ مُصْعَب إلا لَعِبًا، ولا كانت عبادةُ عبد الله إلا عَبَثًا، ولكنْ لو كان للضَّحَّاك بن قَيْسٍ مِثْلُ رجال مَرْوَان، لكانت قيسُ أربابًا بالشَّام، فقال زُفَرُ: لو كانت لمروانَ صُحْبَةُ الضَّحَّاك لكان؛ فقال عبد المَلك، والله ما أُحِبُّ له مِثْلَ صُحْبَتِه ومَصْرَعِه، فقال خالد: لولا أَنَّ أميرَ المؤمنين لا يُبْصِر مَرْعًى[٥] لما تركْنَاكَ والكلامَ. فقال زُفَر:

---

(١) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «ولهجوتموني»، وهو تحريف.

(٢) في (أ) «الأثافي» بالثاء؛ وهو تحريف.

(٣) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «مثله» بالثاء؛ وهو تصحيف، والتصحيح عن العقد الفريد ج٢ ص ١٤٦ طبع بولاق.

(٤) وردت هذه العبارة في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «بأي الحقين الغدرة»؛ وهو تحريف كما ترى، والتصحيح عن مجمع الأمثال. والحقين: اللبن المحقون والعذرة: العذر. وأصله أن رجلا نزل بقوم فاستسقاهم لبنا، فاعتلوا عليه وزعموا أن لا لبن عندهم، وكان اللبن محقونا وطاب عندهم، فقال هذا المثل؛ وهو مثل يضرب للكاذب الذي يعتذر ولا عذر له. يقول: إن اللبن المحقون لديك يكذبكم في عذركم. والذي في العقد الفريد «أبي الخبير العذرة».

(٥) يشير خالد بهذه العبارة على قول زفر بن الحارث:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وهذا البيت من أبيات قالها زفر حين فرّ بعد وقعة مرج راهط التي قتل فيها الضحاك وانتصر فيها مروان، وكان زفر من أصحاب الضحاك.

ارْبَعا[١] على أنْفُسِكُما ودَعانَا وخَلِيفتَنا واسحبا ذُيولَكما على خيانة خُرَاسانَ وسِجِسْتَان والبَصْرَة.

وقال المدائنيّ: غابَ مَوْلًى للزُّبَيْر عن المدينة حينًا، فقال له رجل من قريش لمّا رَجَع: أما والله لقد أَتَيْتَ قومًا يُبْغِضون طَلْعَتك، وفارقتَ قومًا لا يُحبُّونَ رَجْعَتَك. قال المولَى: فلا أَنْعَمَ اللهُ ممَّن قدِمْتُ عليه عَيْنًا، ولا أَخْلَفَ اللهُ على مَنْ فارَقتُ بخير.

قال المدَائنيّ: كان مَرْثَد بنُ حوشب عند سُلَيْمان بنِ عَبدِ المَلِك، فجرى بَيْنَه وبينَ أبيهِ كلامٌ حتَّى تسابّا، فقال له أَبُوه: والله ما أَنْتَ بابني، قال: واللهِ لأَنا أَشْبَهُ بِكَ مِنْكَ بأَبِيكَ، ولأَنتَ كنتَ أَغْيَرَ على أمِّي من أَبِيكَ على أُمِّك. فقال له سليمان: قاتَلَكَ الله، إنَّك لابنُه.

وسابَّ مَرْثَد أَخاهُ ثُمامَة، فقال له ثُمامَة: يا حَلَقِيّ[٢]، فقال له مَرْثَد: يا خَبيث، أَتسابّني مُسَابَّة الصبْيَان، فوالله إنكَ لابْني، ولقد غَلَبنِي حَوْشب على أُمِّكَ، وقد أَلقَحْتُهَا بك[٣].

وقال ابنُ عَيّاش المَنْتُوف[٤] لأَبي شاكر بنِ هِشَام بن عبد الملك: لو قَصَّرْتَ قَمِيصَكَ، قال له: ما يَضُرُّك مِنْ طُولِهِ. قال: تَدُوسُه في الطِّين، قال وما يَنْفَعُك مِنْ دَوْسِه.

وقال: كان على تَبالةَ رجُل من قُرَيش، فقال لِرَجل من باهِلة، مَن الذي يقول:

إن كُنْتَ ترجو أن تنالَ غنيمـــةً ... في دُور باهِلَةَ بنِ يَعْفُرَ فارْحَــل

قومٌ قتيبة أُمُّهُـــمْ وأَبُوهُــــــمُ ... لَوْلاَ قُتَيبَةُ أَصْبَحُــوا في مَجْهَـلِ

فقال الباهِليّ: ما أَدْري غيرَ أَنِّي أَظُنُّه الذي يقول:

يا شَدْةً ما شَدَدْنا غَيرَ كاذِبَــــةٍ ... عَلَى سَخِينَةَ لولا اللَّيْلُ والحَرَمُ[٥]

(١) اربعا: يخاطب خالدا وأخاه أمية.

(٢) يتهمه بداء قبيح، ويقال أتان حلقية إذا تداولتها الحمر فأصابها داء في رحمها. والحلاق في الأتان ألا تشبع من السفاد.

(٣) يتضح من القصة أن مرثدا وثمامة أخوان لأب، وبذلك يستقيم الكلام.

(٤) كذا في تاريخ الطبري طبع أوروبا. والذي في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «المشبوق»؛ وهو تحريف.

(٥) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصّة: «تأييده» مكان قوله: «يا شدة». و«على سجية» مكان قوله «على سخينة»؛ وهو تحريف في كلتا الكلمتين صوابه ما أثبتنا نقلا عن الأغاني ج١٩ ص ٧٦ طبع بولاق. والبيت لخداش بن زهير، والسخينة: طعام يتخذ من الدقيق وهو دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء، وهو لقب لقريش كانت تسيّر به لكثرة =

قال: وتكلّم ابنُ ظبيانَ التَّيْمِيُّ يومًا فأكْثَر، فقال له مالِكُ بنُ مِسْمَع: إيهًا أبا مَطَر[1]، فإن للقوم في الكلام نَصِيبًا، فقال: والله ما إليكَ جِئتُ، ولو أن بكرَ بنَ وائل اجتمعتْ في بيْتِ بَقّالٍ لأَتَيْتُهُمْ. فقال له مالِك: إنما أنت سَهْمٌ من سِهام كِنانَتِي. فقال ابنُ ظَبْيَان: أنا سَهْمٌ من سِهام كِنَانتك؟ فوالله لو قمتُ فيها لَطلْتُهَا، ولو قعدتُ فيها لخرَقْتُهَا، وايْمُ اللهِ ما أَرَاكَ تنْتَهي حتّى أَرْمِيَكَ بِسَهْمٍ لم يُرَشْ[2]، تَذْبُلُ به شَفَتاك، ويَجِفُّ لَهُ رِيقُك.

وقال رجُلٌ للأحْنَف: بأيِّ شَيءٍ سُدْتَ تَميمًا؟ فوالله ما أنتَ بأَجْوَدِهم ولا أشجَعِهم ولا أَجْمَلِهم ولا أشْرَفِهم، قال: بخلاف ما أنتَ فيه. قال: وما خِلافُ ما أنا فيه؟ قال: تَرْكِي ما لاَ يَعْنِينِي من أُمُورِ الناس كما عَنَاكَ مِنْ أَمْرِي ما لاَ يَعْنيكَ.

وَوَفَد عُلَيْمُ بن خالِد الهُجَيْمِيُّ عَلَى هِشَامٍ وعنده الأبرش [الكلبيّ]، فقال الأبْرَش الكَلْبيّ: يا أخا بني الهُجَيْم، مَن القائل:

لو يَسْمَعُون بأَكْلَـــــةٍ أَو شَرْبةٍ بعُمانَ أَصْبَحَ جَمْعُهم بعُمـــانِ

أَلَكُم يَقوله؟ قال: نعم، لنا يَقُوله، ولكنّكم يا مَعْشَرَ كلْبٍ تُعبِرُون[3] النِّساء وتَجُزُّون[4] الشَّاء، وتكدِّرُون العَطاء، وتؤخِّرون العَشَاء، وتبيعون الماء.

فَضَحِكَ هِشَام، فلما خرجا قال الأبرش: يا أَخَا بَنِي الهُجَيْم، أما كانت عندَك بقيّة؟ قال: بلى، لو كان عندكَ بقيَّة.

قدَّمَتِ امرأَةٌ زوجَها إلى زِياد تُنَازِعُه، وقد كانت سِنُّه أَعلَى مِنْ سِنِّها فَجعَلتْ تَعيب

= اتخاذهم لهذا الطعام. وهذا البيت من أبيات أربعة وردت في الأغاني في خبر طويل. فانظره ثم. وها هي ذي الأبيات الثلاثة بعد هذا البيت:

إذ يتقينا هشـــــام بالوليد ولو أنا ثقفنا هشاما شالت الخـــدم

بين الأراك وبين المرج نبطحهم زرق الأسنة في أطرافهـا السمـــم

فإن سمعتم بجيش سالك شرفـا وبطن مر فأخفوا الجرس واكتتموا

(١) في (أ) «إنها أبا فطر»، وهو تحريف، وقد أثبتناه هذه الكنية عن الكامل للمبرد. والذي في (ب) إنما ينتظر القوم.

(٢) يقال راش السهم بريشة إذا وضع عليه الريش ليكون أسرع له. ويريد هنا سهمًا من القول.

(٣) تعبرون النساء أي تتركون ختانهن. يقال امرأة معبرة إذا طال بظرها. وفي الأصل تعيرون بالياء المثناة وهو تحريف.

(٤) في كلتا النسختين: «وتجرون»؛ وهو تحريف؛ ولعل صوابه ما أثبتنا.

زَوْجَها وتقَعُ فيه، فقال زَوْجُهَا: أَيُّهَا الأمير، إن شرَّ شَطْرَي المرْأَة آخرُها، وخيرَ شطرَي الرّجل آخِرُه. المرأَة إذا كبرَتْ عَقَمَتْ رَحِمُها، وحَدّ لسانُهَا، وساء خُلُقُها، وإن الرَّجُلَ إذا كَبِرَتْ سِنّه استحكَمَ رَأْيُهُ، وكثُرَ حِلْمُهُ، وقَلَّ جَهْلُه.

وقال أَعْشَى هَمْدَانَ لامرأتِه: إنّكِ لَسَلِسَةُ الثُّقْبَة، سَرِيعَةُ الوَثْبَة، حَدِيدة الرُّكبة، فقالت: والله إنَّك لسَرِيعُ الإِرَاقَة، بطيءُ الإفاقة، قليلُ الطاقة[1]، فَطَلَّقَها، وقال:

تقَادَمَ عَهْــدُكِ أُمَّ الجَــلاَلِ ... وطاشَتْ نِبالُكَ عند النِّضَــال

وقد بُتَّ[2] حَبْلُكِ فاسْتَيْقِنِــي ... بأَنِّي طَرَحْتُكِ ذَاتَ الشِّمــال[3]

وأَن لا رُجُــوعَ فلا تُكْذَبِيــ ... ــنَ ما حَنَّتِ[4] النِّيبُ إِثْرَ الفِصَال

قال الغِلابيُّ عن غيره: قال رجل لامرأته: أما إِنَّكِ ما علِمْتُ لسَئُولٌ مُنَعَة، جَزُوعٌ هَلِعَة، تمْشِينَ الدِّفقِيَّ[5] وتقعدين الهَبَنْقَعة، فقالَتْ: أما والله إن كان زَادِي منك لهَدِيّة[6]، وإن كانت حُظْوَتي منك لَحَذِيَّة[7]، فإنّك لابن خبيثة يهودية.

---

(١) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «الطاعة»؛ وهو تحريف.

(٢) في رواية: فحنى حنينك.

(٣) ورد هذا الشطر في (أ) التي وردت فيها هذه الأبيات:

* بأني فرضتك داب التبال *

وهو تصحيف لا معنى له. والتصويب عن شعر أعشي همدان المطبوع في أوروبا ضمن شعر الأعشين.

(٤) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه الأبيات «ما حييت للبنت» وهو تحريف. والتصحيح عن شعر أعشى همدان المطبوع في أوروبا ضمن شعر الأعشين. والنيب جمع ناب، وهي المسنة من النياق.

(٥) يقال مشى الدفقى كزمكي إذا مشى مسرعًا. وجلس الهبنقعة، إذا جلس مزهوًا أو جلس متربعا مادًّا إحدى رجليه في تربعه.

(٦) تريد بهذه العبارة أن ما تناله من طعام لدى زوجها يشبه الهدية في ندرته وازدهائه بإطعامها كما يزدهي صاحب الهدية بما أهدى وأن زوجها يرى أن إطعامها غير واجب بل هو من قبيل الهدية. هذا ما يلوح لنا من معنى هذه العبارة إن لم يكن فيها تحريف.

(٧) في الأصل «تحدية» ولعل الصواب ما أثبتنا. والحذية: من معانيها القسمة من الغنيمة، أي أنه كان يعطيها القليل مما يغنم. وقد تكون الجدية بالجيم والدال ومعناها القطعة من الكساء تحت السرج أي الشيء التافه.

وقال المدائنيّ: قَبَضَ كِسْرَى أَرْضًا لرَجُل من الدَّهَاقِين، وأَقْطَعَها البَحْرَجان[1]، فقَدِمَ صاحبُ الأرْض مُتَظَلِّمًا، فأقام بباب كسْرَى، فرَكِبَ كسْرَى يومًا، فقَعَدَ لهُ الرَّجلُ على طَرِيقه يُكَلِّمُه، فلما حاذَاهُ شَدَّ عليه حتى صَكَّ بصَدْرِهِ رُكْبَتَه، ووَضعَ يدَه على فَخذِه؛ فوَقَفَ له كِسْرَى وكلّمَهُ، فقال له: أَرْضٌ كانَتْ لأجْدَادِي وَرِثْتُها من آبائي قَبَضْتَها فأَقْطَعْتَها البَحرْجان؟ ارِدُدْهَا عليّ، فقال له كسرى: مُذْ كم هذه الأرْضُ في أيدِي أجْدَادِكَ وآبائك؟ فذَكَرَ دَهْرًا طويلًا، فقال له كسرى: والله لقد أَكَلْتُمُوها دهرًا طويلًا، فما عليكَ في أَنْ تَدَعَهَا في يد البَحْرَجان عاريةً سُنَيَّاتٍ يَسْتَمْتِع بها ثم يردّهَا عليك، فقال: أَيّهَا المَلِك، قد علمتَ حُسْنَ بَلاَء بَهْرَام جور في طاعَتِكُم، أهلَ البيت، وما كفاكم مِنْ حَدِّ عدوِّكُم، ودَفْعَه عنكم كَيْدَ التّرك وحُسْنَ بلاء آبائِه قَبْلَ ذلك في طاعة آبائك، فما كان عليك لو أَعَرْتَهُ مُلْكَكَ سُنَيَّاتٍ يَسْتَمْتِع به ثم يَرُدُّه إليك؟ فقال كِسْرَى: يا بَحْرَجان، أنت رَمَيْتَني بهذا السَّهم، ارْدُدْ عَليه أَرْضَهُ [فرَدَّهَا].

قال رجل من القحاطِنَة[2] لرجل من أَبنَاء الأعاجِم: ما يَقُولُ الشِّعْرَ منكم إلا من كانتْ أُمُّهُ زَنَى بها رجُلٌ مِنّا فنَزَعَ إلينا. فقال له الثنوي: وكذلك كلُّ مَنْ [لم] يقل الشِّعْر مِنْكم، فإنما زَنى بأُمِّهِ رَجُلٌ مِنّا فَحَمَلتْ به، فنَزَعَ إلَينا، فمِنْ ثَمَّ لم يَقُل الشعر.

وقال رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ لرجُلٍ مِنْ أَبْنَاء العَجَم: رَأَيتُ في النّوْمِ كأنِّي دَخَلْتُ الجَنّةَ فلم أَرَ فيها ثَنَوِيًّا. فقال له الثّنَوِيّ: أَصَعِدْتَ الغُرَفَ؟ قال: لا. قال: فمِنْ ثَمَّ لم تَرَهُم، هُمْ في الغُرَف.

قال ابنُ عَيَّاش: ما قَطَعَني إلا رَجُلٌ مِنْ قُرَيشٍ من آل أبي مُعَيْط، وكان ماجنًا[3] شارب

(١) يريد بالبحرجان هنا صاحب سفن كسرى ورئيس الملاحين، وهي كلمة فارسية معناها النوتي، كما في المعجم الفارسي الإنجليزي لاستاينجاس.

(٢) في (أ) القحاطبة وفي (ب) وردت هذه الكلمة مهملة الحروف من النقط.

(٣) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «ما حارنا» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

خَمْرٍ، وذاك أني وَقَفْتُ على بَيان التبّان[1] الذي أُتِيَ[2] به ابنَ هُبَيْرَةَ الفَزارِيّ فأَمرَ بِصَلْبِه، فقال لي: ما وُقُوفُكَ ها هنا يا أبا الجَرّاح؟ قلْتُ: أَنْظُرُ إلى هذا الشقيِّ الذي يقول: إنَّهُ نبيّ؛ قال: وما أَتى به في نبوَّتِه؟ قلتُ: بتحليل الخَمْر والزِّنا - وأنا أُعَرِّضُ به - فقال: لا، واللهِ لا يُقْبَلُ ذلك منه حتى يُبْرِئ الأَكْمَه والأَبْرَص.

قال المدائنيُّ: ابنُ عَيّاش أَبْرَص.

وقال: دَخَلَ أبو الأسود الدؤليُّ على عبيد الله بن زِياد، فقال له ابنُ زياد - وهو يَهْزَأُ به - [أمسيتَ يا أبا الأسود العشيَّةَ جميلا فلو عَلَّقتَ تميمةً تَنْفِي بها عنك العين؟ فعرف أنه يهزأ به] فقال: أصلح الله الأمير -

أَفنَى الشَّبابَ الّذى فارقْتُ بَهْجَتَــــه ... مَرُّ الجَدِيدَيْـــن مِنْ آتٍ وَمُنْطَلِـــقِ

لم يَتْرُكا لِيَ في طُـــولِ اخْتِلافِهِمـــا ... شيئًا تُخــافُ عليه لَدْغَةُ[3] الحَــدَقِ

وقال المَدائنيّ: وَقَعَ بين العُرْيانِ بنِ الهَيْثَم النَّخَعيّ وبين بلالِ بن أَبي بُرْدَةَ بنِ أَبي موسى الأشعريِّ كلامٌ بينَ يَدَيْ خَالد بن عبد الله القَسْرِيّ[4] وَخَالدٌ يومئذٍ على العراق - وكان متحاملا على بلال، وكان العريان على شرْطة خالد - فقال العُريان لبلال: إني والله ما أَنا بأَبْيَضِ الرَّاحَتَين، ولا مُنْتَشِر المنْخِرَيْن، ولا أَرْوَحِ القَدَمَين، ولا مُحَدَّدِ الأسنان، ولا جَعْدٍ قَطَط، فقال بلال: يا عُرْيان أَتَعْنِيني[5] بهذا؟ قال: لا والله، ولكن كلامٌ يتلو بعضه بعضًا. فقال بلال: يا عُرْيان، أتريد أَنْ تَشْتُمَ أبا بُرْدَةَ وَأَشْتُمَ أَباكَ، وتَشْتُمَ أَبا مُوسى وأَشْتُمَ جَدّك، هذا والله ما لا يكون، فقال العُرْيان: إني والله ما أجعل أبا مُوسى فِداءَ الأَسْوَد، ولا أبا بُرْدَةَ

(١) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «ابن بيان». ولم نجده فيما راجعناه من الكتب، ولعل الصواب ما أثبتنا نقلا عن الكامل لابن الأثير، والفرق بين الفرق، وعيون الأخبار. وبيان هذا، هو ابن سمعان التميمي وهو أول من قال بخلق القرآن، وغير ذلك من المقالات الزائفة وكان يقول إنه المشار إليه بقوله تعالى: «هذا بيان للناس».

(٢) في (أ) التى وردت فيها وحدها هذه القصة «أرى»؛ وهو تحريف. والذي وجدناه في الكتب أن الذي صلب بيانا هذا هو خالد بن عبد الله لا ابن هبيرة الفزاري وكان ذلك سنة ١١٩هـ.

(٣) في رواية: «لذعة».

(٤) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «القشيري»؛ وهو تصحيف.

(٥) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «استعن»؛ وهو تحريف إذ لا يناسب معناه سياق الكلام.

فِدَاءَ الهيْثَم، فمَثَلى ومثَلُكَ في ذلك كما قالَ مِسْكِينٌ الدارِميّ[1]:

أنا مِسْكيـنٌ لمـــن أَنْكَرَنــــي ولِمن يَعْرِفُني جِدُّ نَطِـــقْ[2]

لا أَبيعُ الناسَ عِرْضِـــي إنني لو أَبيعُ الناسَ عِرْضِي لَنَفَـــقْ

قال المَدائِنيّ: جرى بين وكيع بن الجراح وبين رجل من أصحابه كلامٌ في معاوية واختلفا، فقال الرجل لوكيع: ألم يَبْلُغك أن رسول الله ﷺ لَعَنَ أبا سفيان ومعاوية وعتبة فقال: «لعن الله الراكبَ والقائد والسائق»(*)، فقال وكيع: إن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّما عَبْدٍ دعوْتُ عليه فاجْعَلْ ذلك (له أوْ عليه) رَحْمَةً»(**)؛ فقال الرجل: أفيسرُّك أنّ رسول الله ﷺ لعَنَ والِدَيْك فكان ذلك لهما رحمةً. فَلَمْ يَحر إليه جوابًا.

تكَلَّمَ صَعْصَعةُ عِنْدَ مُعاويةَ فعَرق، فقال: وبَهَرَكَ القَوْلُ يا صَعْصَعة؟ فقال: إن الجيادَ نَضَّاحَةٌ بالماء.

هكذا قال لنا السِّيرافِيّ، وقد قَرأتُ عليه هذه الفِقَرَ كلَّها، وإنما جَمَعْتُها للوزير بعد إحْكامها ورِوايتِها.

قال عليُّ بن عبدِ الله: شَهِدْتُ الحَجَّاج خارجًا مِنْ عِنْدِ عبدِ الملك بن مَرْوَانَ، فقال له خالدُ بن يَزِيدَ بنِ مُعاوية: إلى متى تَقْتُلُ أهلَ العِراق يا أَبَا مُحَمّد! فقال: إلى أَنْ يَكفُّوا عَنْ قَوْلهم في أَبيك: إنّه كان يَشْرَبُ الخَمْر.

قال المدائنيّ: أَسَرتْ مُزَيْنَةُ حَسّانَ بنَ ثابتٍ – وكانَ قَدْ هجاهُم – فقال:

مُزَيْنَـــةُ لا يُرَى فيهـا خَطِيـــبُ ولا فَلِـــجٌ يُطَافُ به خَضِيـبُ

أُناسٌ تَهْلِكُ الأَحْســـابُ فِيهـم يَرَون التَّيْسَ يَعْدِلُـــه الحبيب

---

(١) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «الدانقي»؛ وهو تحريف.

(٢) ورد هذا البيت في (:) التي ورد فيها وحدها هذا البيتان:

أيا مسكين لمن تعرفني ولمن تبادر لي حد نطق

وهو تحريف؛ والتصحيح من الأغاني في ترجمة مسكين الدارمي.

(*) رواه الطبري في تاريخه (٦٢٢/ ٥) ورُوي من طرق أخرى ليس فيها ذكر لمعاوية. انظر مجمع الزوائد للهيثمي (١/ ١١٣).

(**) حديث صحيح رواه البخاري، باب الدعوات.

فأتتهم الخزْرج يَفْتَدونَه؛ فقالوا[1]: نفاديه بتَيْس؛ فَغضِبُوا وقامُوا؛ فقال لهم حسّان: يا إخوَتي خذوا أخاكم وادْفعُوا إليهم أخَاهم.

وقال المَدائنيّ: فَرّقَ عُمَرُ بنُ الخَطّاب بين منظور بن أبانَ وبين امرَأته - وكان خَلَفَ عليها بعد أبيه - فتزَوَّجها طلحةُ بنُ عبدِ الله، فلقيَه منظور، فقال له: كيف وَجدْتَ سُؤرِي؟ فقال: كما وَجدْتَ سُؤْرَ أبيكَ. فأفْحَمَه.

وقال حاطِب بنُ أبي بَلْتَعَة: بعثَني النبيُّ صلّى الله عليه وعلى آلِه وسلّم إلى المُقَوْقِس مَلِكِ الإسْكَنْدَرية، فأتَيْتُه بكتاب رسُول الله ﷺ وأَبْلَغْتُه رِسالَتَه؛ فضحكَ ثم قال: كتبَ إليَّ صاحِبُك أنْ أتبَعَه على دِينِه، فما يَمْنَعُه - إنْ كان نبيًّا - أن يَدْعُوَ الله أن يسلِّط عليَّ البحرَ فيُغْرِقَني فيَكْتَفِيَ مَؤُونتي ويأخُذَ مُلْكي؟ قلتُ: فما صَنَع عيسى إذ أخَذَتْه اليَهُودُ فربَطوه في حَبْل وحَلقُوا وَسط رَأسِه، وجَعَلوا عليه إكليلَ شوْك، وحَمَلُوا خَشَبَتُه الَّتي صَلَبُوه عليها على عُنُقِه، ثم أخْرَجُوه وهو يَبْكي حتّى نَصَبُوه على الخَشَبَة، ثم طَعَنُوه حَيًّا بحَرْبة حتّى مات؛ هذا على زَعْمِكم، فما مَنَعَه أن يَسأَلَ الله فيُنْجيَه ويُهلكَهُمْ فيُكفَى مَؤونتَهم ويَظْهَر هُوَ وأصْحَابُه عليهم؟ وما مَنَع يَحْيَى بن زكريّا حين سألَتِ امرأةُ المَلِكِ المَلِكَ أنْ يَقْتُله فقَتَله، وبَعَثَ برأسِه إليها حتى وُضِع بين يَدَيْها، أن يَسْأَلَ الله تعالَى أنْ ينْجيَهُ ويُهْلِكَ الناسَ؟ فأقْبَلَ على جُلَسَائه وقال: إنّه والله لحكِيمٌ، وما يَخْرُجُ الحَكِيمُ إلا مِنْ عند الحُكماء.

قال المدائنيّ: أبْطَأَ على رَجُلٍ منْ أصْحابِ الجُنَيْدِ بن عَبد الرَّحْمن ما قِبَله[2] - وهو على خُراسان - وكان يقال للرجُل: زامِلُ بنُ عَمْرو مِنْ بَنِي أسَد بن خُزَيْمة، فدَخَل على الجُنَيْدِ يومًا فقال: أصلحَ الله الأميرَ، قد طَال انتِظارِي، فإنْ رَأَى الأميرُ أنْ يَضْرِبَ لي مَوْعِدًا أَصِيرُ إليه فَعَل. فقال: مَوْعِدُك الحَشْر؛ فخرج زامِلٌ متوجِّهًا إلى أهله؛ ودخل على الجُنَيْدِ بعد ذلك رَجُلٌ مِنْ أَصحابِه فقال: أَصْلحَ اللهُ الأمير.

---

(١) فقالوا، أي آسروه، وهم بنو مزينة.

(٢) ما قبله، أي ما قبل الجنيد من العطاء.

أَرِحْنِي بخَيْـر منكَ إنْ كُنْـتَ فاعِـلًا ... وإلاّ فميعـادٌ كميعـادِ زامِـل

قال: وَما فَعَل زامل؟ قال: لَحِقَ بأهله. فأَبْرَدَ الجُنَيْدُ في أثره بَرِيدًا وبَعث يُعْهدهُ على الكُورة[1] التي يُدْرَكُ بها، [فأُدْرِكَ][2] بنَيْسابُورَ، فنَزَلها.

وامتَدَح رَجُلٌ الحسنَ بنَ عليٍّ - عليه السلام - بشِعْرٍ، فأَمَرَ له بشيء؛ فقيل[3]: أتُعْطِي على كلام الشَّيْطان؟ فقال: أَبْتَغِي الخيرَ لنَفْي الشّرّ.

قال المَدائنيّ: أتَى العَبْدَانيُّ حَمّادَ بْنَ أبي حنيفةَ وقَد مَلأَ عينَه كُحْلًا قد ظَهَر مِنْ محاجِر عَيْنِه، وعند حَمَّادٍ جَماعةٌ. فقال له حمّاد: كأنك امرأة نُفَساء. قال: لا، ولكنِّي ثَكْلَى. قال: على مَن؟ قال: على أبي حَنِيفَة.

وقال مَرْوانُ بنُ الحَكم ليَحْيَى[4]: إنّ ابنتَك تَشْكُو تَزْوِيجَك وتزْعُمُ أنَّه[5] يبول في دِثاره[6]. قال: فهو يَبُول منها فيما هو أعظَمُ مِنْ دِثاره[6].

وقال مُعاوِيَة: هذا عَقِيلٌ عَمُّهُ أبُو لَهَب. فقال عَقِيل: هذا مُعاويةُ عمَّتُه حَمَّالَةُ الحَطب.

قال: ودَخَل مَعْنُ بنُ زائِدةَ على أبي جَعْفَرٍ فَقَارَبَ في خَطْوه، فقال أبو جَعْفَر: كَبِرَتْ سِنُّكَ يا مَعْن. قال: في طاعَتِك. قال: وإنّك لجَلْد. قال: على أَعْدائك. قال: إنّ فيك لبَقِيَّة. قال: هي لَكَ يا أميرَ المؤمِنين.

قال المنصورُ لسُفْيانَ بنِ مُعاويَةَ المُهَلَّبيّ، ما أَسْرَعَ الناسَ إلى قومِكَ؟

قال سفيان:

---

(١) بعث يعهده إلى الكورة، أي بعث على الكورة التي يدرك بها يؤمنه. يقال أعهده إذا أمنه وكفله.

(٢) لم ترد هذه الكلمة في (أ) التي وردت فيها وحدها دون (ب) هذه القصة؛ وسياق الكلام يقتضي إثباتها.

(٣) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «ففال»؛ وهو خطأ؛ أو لعلّ اسم القائل قد سقط من الناسخ كما يظهر لنا.

(٤) يريد يحيى بن الحكم أخا مروان.

(٥) أنه أي زوجها.

(٦) في (أ) التي وردت فيها وحدها دون (ب) هذه القصة «داره»؛ في كلا الموضوعين وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

إنَّ العَرانِينَ[1] تَلْقاها مُحَسَّـــدَةً   ولَنْ تَرَى لِلِئامِ النّاسِ حُسّـــادا

فقال: صدقتَ.

قال المدائني: حضرَ قومٌ مِنْ قُرَيش مجلسَ معاويةَ وفيهم عَمْرُو بنُ العاصِ وعبدُ الله بنُ صفوان بن أمَيّة الجُمَحيّ وعبدُ الرّحمن بنُ الحارثِ بنِ هِشام؛ فقال عمرو: احمَدوا الله يا مَعْشَر قُريش إذ جعل واليَ أمورِكم من يُغْضِي[2] على القَذى، ويَتَصامُّ عَن العَوْراء، ويجرُّ ذَيْلَه على الخَدائع. قال عبد الله بنُ صفوان: لو لم يكن هذا لمشَيْنا إليه الضَّرَاء، ودَبَبْنا[3] له الخَمَرَ، وقَلَبْنا له ظَهْرَ المِجَنِّ، ورَجَوْنا أن يقومَ بأمْرنا مَنْ لا يُطْعِمُك مالَ مِصْر.

وقال معاوية: يا مَعْشَر قريش، حتّى مَتَى لا تُنْصِفُون من أنْفُسِكُم؟

فقال عبد الرحمن بنُ الحارث: إن عَمْرًا وذَوِي عمْرٍو أفْسَدُوك علينا وأفسَدُونا عليكَ، ما كان لَوْ أغْضَيتَ على هذه؟ فقال: إنّ عَمْرًا لي ناصح، قال: أطْعِمْنا ممَّا[4] أطْعَمْتَه، ثم خُذْنا بمثْل نَصِيحَتِه، إنّكَ يا مُعاوِيَةُ تَضْرِبُ عَوَامَّ قُرَيْشٍ بأيادِيك في خَواصِّها كأنّك تَرَى أنّ كِرامَها جارَوْكَ[5] دونَ لئامها، وايمُ الله: إنّك لتفرغُ[6] من إناء فَعْم في إناء ضَخْم، ولكأنك بالحَرْبِ قد حُلَّ عِقالُها ثمّ لا تُنْظِرُك. فقال معاوية: يا بن أخي[7] ما أَحْوَجَ أهلَكَ إليك. ثم أنْشَدَ معاوية:

أغَرَّ رجالًا من قُرَيْشٍ تَشايَعُـوا   على سَفَهٍ، مِنّا الحَيَـا والتَّكَرُّمُ؟

---

(١) عرانين القوم: عليتهم، تشبيها بعرانين الأنوف.

(٢) في نسخة: «يقضي على الهدى».

(٣) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام دون (ب) «ووهنا له الحمى» مكان «ودبينا له الخمر»؛ وهو تحريف من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق، يقال: مشى إلى خصمه الضراء ودب إليه الخمر بفتح الخاء والميم إذا مشى إليه مستخفيا ليختله. والضراء: الشجر الملتف: والخمر: ما واراك من جرف ونحوه.

(٤) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة «منذ»؛ وهو تحريف.

(٥) كذا في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة. وجاروك، أي جروا معك فيما تريد. وفي بعض الكتب حاربوك. يريد أنه يعطي كرامهم خوفا منهم واتقاء لحربهم.

(٦) في (أ) التي وردت فيها هذه القصة وحدها: «لتغرغر»، ولم نتبين له معنى. والصواب ما أثبتنا كما في العقد الفريد.

(٧) في الأصل: «يا براح» مكان «يابن أخي»، ولم نفهم له معنى. والصواب ما أثبتنا كما في العقد الفريد. وبعد قوله «ما أحوج أهلك إليك» قوله «فلا تفحمهم بنفسك».

وقال المَدَائنيّ: كان عروةُ بنُ الزُّبَيْر عند عبدِ الملك بنِ مَرْوانَ يحدِّثُه - وعنده الحَجّاج بنُ يوسف - فقال له عُرْوَةُ في بَعْضِ حديثه: قال أبو بكر - يَعْني عبدَ الله بنَ الزُّبَيْر - فقال الحجّاج: أعند أمير المؤمنين تكنِي ذلك الفاسقَ؟ لا أمَّ لك. فقال عُرْوَة. أَلِيَ تقول هذا لا أُمَّ لك وأنا ابن عجائز الجنّة خديجة وصفيّة وأسماء وعائشة، بل لا أمّ لك أنت يا بن المُسْتَفْرِمَة[١] بِعَجَم زَبيبِ الطّائف.

وقال: لمَّا صَنَع هِشامُ بن عبدِ المَلِكِ بغَيلانَ الواعظِ ما صَنَع، قال له رَجُلٌ: ما ظَلَمَك اللهُ ولا سَلَّطَ عليكَ أميرَ المؤمنين إلَّا وأنت مُسْتَحِقٌّ؛ فقال غَيلانُ: قاتلك اللهُ، إنك جاهِلٌ بأصحاب الأخْدُود.

قال عمرو بنُ العاص: أعْجَبَتْني كلمةٌ مِنْ أمَةٍ؛ قلتُ لها ومعها طَبَق: ما عليه يا جارية؟ قالت: فلِمَ غطَّيناه إذًا؟

وَقَعَ ابنُ الزُّبَيْر في مُعاوِيَة، ثم دَخَل عليه فأَخْبَره مُعَاوِية بِبَعْضِهِ، فقال: أنّى عَلِمْتَ ذلك؟ فقال مُعاوِيَةُ: أما عَلِمْتَ أنَّ ظَنَّ الحكيم كهانَة.

وقيل لعُمرَ بن عبدِ العَزيز: ما تَقُولُ فِي عليٍّ وعُثمانَ وفي حَرب الجَمَل وصِفِّين؟ قال: تلك دِماءٌ كفَّ اللهُ يَدِي عنها، فأنَا أَكْرَهُ أَنْ أغمِسَ لِساني فِيها.

وقال: طَلَّقَ أبُو الخنْدف امرأتَهُ أُمَّ الخِنْدِف، فقالت له: يا أبا الخنْدِف طَلَّقْتَني بعد خمْسِين سَنَة، فقال: ما لَكِ[٢] عِنْدِي ذَنْبٌ غَيْره.

وقال: لقي جريرٌ الأخْطَلَ فقال: يا مَالك، ما فَعَلَتْ خَنازيرُكَ! قال: كثيرةٌ في مَرْجٍ أَفْيَحَ، فإنْ شِئْتَ قَرَيْنَاكَ منها، ثم قال الأخطل: يا أبا حَزْرَةَ، ما فَعلتْ أعنازُك؟ قال كثيرةٌ في وادٍ أَرْوح، فإن شئتَ أَنْزَيْنَاكَ[٣] على بَعْضها.

---

(١) المستفرمة بعجم زبيب الطائف: عبارة كان عبد الملك بن مروان قد شتم بها الحجاج في بعض كتبه إليه. وعجم الزبيب: نواه. ويريد أن أمّه كانت تستفرم به أي تضمه في فرجها ليضيق.

(٢) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «تبالك».

(٣) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «أقريناك» بالقاف والراء؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

وقال الشَّعْبِيّ: ذَكرَ عَمْرُو بنُ العاصِ عَلِيًّا فقال: فيه دُعابَةٌ، فبلغَ ذلكَ عليًّا فقال: زَعَم ابنُ النّابِغَةِ أَنِّي تَلْعَابَةٌ تَمْراحَةٌ ذُو دُعابَةٍ أُعافِسُ وأُمارِسُ؛ هَيْهات، يَمْنَعُ مِن العِفاسِ والمِراسِ ذِكْرُ المَوْتِ وخَوْفُ البَعْثِ والحِساب ومَنْ كان لهُ قَلْبٌ فَفِي هذا عن هذا له واعظِ وزاجِر، أما وشَرُّ القَوْلِ الكَذِب - إنّه لَيَعِدُ فيُخْلِف، ويُحَدِّثُ فيَكْذِب، فإذا كانَ يومُ البَأسِ فإنّه زاجِرٌ وآمِرٌ ما لم تَأخُذِ السيوفُ بِهامِ الرِّجال، فإذا كان ذاكَ فأعْظَمُ مَكِيدَتِه في نَفْسِه أَنْ يَمْنَحَ القومَ اسْتَه.

قال المَدائنيّ: بَعَثَ المُفَضَّلُ [الضَّبِّيّ] إلى رَجُل بأضْحِيّة، ثم لَقِيه فقال: كيف كانت أضْحِيَّتُك؟ فقال: قَليلةُ الدَّم. وأرادَ قولَ الشاعر:

ولو ذُبِحَ الضَّبِّيُّ بالسَّيْفِ لم تَجِدْ مِنَ اللؤْمِ للضَّبِّيِّ لحمًا ولا دَمَا

وقال المَدَائِنيّ: مَرَّ عَقِيلُ بنُ أبي طَالِب على أَخِيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعه تيْسٌ، فقالَ له عليّ: إنَّ أَحَدَ ثلاثَتِنا أحمَق. فقال عَقِيل: أمّا أنَا وتيسي فَلَا.

وكَلّم عامرُ بن عبدِ قيسٍ حُمْران يومًا في المسجد. فقال له حُمْران: لا أكثرَ اللهُ فِينا مِثلَكَ. فقال عامر: لكن: أكثرَ اللهُ فينا مِثْلكَ، فقال له القوم: يا عامر، يقول لك حمران ما لا تقول مِثْلَه؟ فقال: نعم يَكسَحُون طُرُقَنا، ويَحُوكُون[1] ثيابَنا، ويَخرِزُون خِفافَنا. فقيل له: ما كنّا نَرَى أنَّكَ تَعْرِفُ مِثْلَ هذا، قال: ما أكثرَ ما نَعْرِفُ ممَّا لا تَظُنُّون بنا.

وقال: مَرَّ جَرير بن عطيةَ على الأحْوَصِ وهو عَلَى بَغْل، فأَدْلَى البَغْلُ فقال الأحوص: بَغْلُك يَا أبا حَزْرَةَ على خمسِ قَوائم. قال جرير: والخامِسةُ أَحَبُّ إلَيْك.

ومَرَّ جَرِيرٌ بالأحْوَص[2] وهو يَفْسُق بامرَأة ويُنْشِدُ:

يَقِرُّ بعَيْني ما يَقرُّ بعَيْنِهــــا وأحْسَنُ شيء ما به العَيْــنُ قَرَّتِ

فقال له جرير: فإنَّه يَقِر بعَيْنها أنْ تَقْعُدَ على مِثْلِ ذِراعِ البَكْر، أفَتَراكَ تَفْعلُ ذلك؟

(١) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه القصة: «يوحولون»؛ ولا يخفى ما فيها من تحريف ظاهر.
(٢) عبارة (ب) «ومر جرير بالأحوص وهو ينشد» ثم ذكر البيت.

فقال الوزير: مَنْ رأيتَ مِن الكِبار[١] كان يَحْفَظُ هذا الفَنَّ وله فيه غَزارَةٌ وانبعاثٌ وجَسارَةٌ على الإيراد. قلتُ: ابنُ عَبّاد على هذا، ويَبْلُغ من قُوَّته أنه يفتَعِل[٢] أشياء شَبيهةً بهذا الضَّرْبِ على من حضر، فقال: الكذبُ لا خيرَ فيه، ولا حَلاَوةَ لِراويه، ولا قَبُولَ عند سامِعِيه.

وقال: أرْسَلَ بلالُ بنُ أبي بُرْدَة إلى أبي عَلْقَمة فأتاه، فقال: أتدري لأيّ شيء أرسلتُ إليك؟ قال: نعم، لتَصْنَعَ بي خيرًا. قال: أخطأتَ ولكن لأُسِيءَ بك. فقال: أمّا إذْ قلتَ ذاك لقد حَكَّمَ المسلمُون حَكَمين، فسَخِرَ أحَدُهُما بالآخَر. فقال الوزير: أيُقَالُ سَخِرَ به! فكان الجواب أنّ أبا زَيْد حَكاه، وصاحبَ التَّصْنِيفِ قد رَوَاه؛ وسَخِرَ منه أيضًا كلامٌ، وإنما يقال هُو أفْصَح، لأنه في كتاب الله عَزَّ وجَلَّ، وإلا فكلاهُما جائز.

وقال حَمْزَةُ بن بيض الحنفيُّ للفِرَزْدَق: يا أبا فِراس، أيُّما أحبُّ إليك أن تَسْبقَ الخيرَ أمْ يسْبِقُك! قال: ما أُرِيدُ أن أسْبِقَه ولا أن يَسْبِقَني، بل نكون معًا. ولكنْ حَدِّثْني أيُّما أحَبُّ إليكَ: أن تَدخُلَ مَنْزِلَكَ فتجدَ رَجُلًا على حِرِ أمِّك، أو تجدَها قابضةً على قُمُدِّ الرجل. فأفْحَمَه.

فلما قَرَأْتُ الجُزْء في ضُروبِ الجوابِ المفحِم. قال: ما أفْتَحَ[٣] هذا النوعَ من الكلام لأبواب[٤] البَديهة! وأبْعَثَه لرواقد الذِّهْن! وما يَتَفاضَلُ الناسُ عِنْدِي بشيء [أحْسَنَ][٥] مِنْ هذه الكلمات الفوائق الروائق، ما أحْسَنَ ما جَمَعْتَ وأَتَيتَ به.



(١) في (ب) «الكتاب».
(٢) في (أ) «ينقل»؛ وهو تحريف.
(٣) كذا في (ب). والذي في (أ) «ما أصح»؛ وهو تحريف.
(٤) في (ب): «لأنواع »؛ وهو خطأ من الناسخ.
(٥) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها لم ترد في كلتا النسختين، والسياق يقتضيها، إذ لا تتم العبارة بدونها.

الليلة الأربعون

وقال مَرَّةً أُخرَى: حَدِّثني عن اعتِقادِك في أَبي تَمّام والبُحْتُريّ، فكان الجواب: إن هذا البابَ مُخْتَلَفٌ فيه، ولا سبيل إلى رَفْعه، وقد سَبَقَ هذاً من الناس في الفَرَزْدَقِ وجَرِيرٍ ومِنْ قبْلِهما في زُهَيْر والنابغة حتَّى تكلمَ على ذلك الصدرُ الأول، مع علوّ مَراتِبهمْ في الدِّين والعَقْلِ والبَيان، لكن حَدَّثَنا أبو محمد العَروضيُّ عن أبي العبّاسِ المُبَرّدِ قال: سألني عُبَيْدُ الله بنُ سُلَيْمانَ عن أبي تمّام والبُحْتُريِّ؛ فقلت: أبو تمّام يَعْلُو عُلوًّا رَفِيعًا، ويَسْقُطُ سُقُوطًا قَبيحًا، والبحتريُّ أحسنُ الرجلين نمَطًا، وأعْذَبُ لَفْظًا؛ فقال عُبَيْدُ الله:

قد كــانَ ذلكَ ظنِّــي فعــادَ ظنِّــي يَقينا

فقلتُ: وهذا أيضًا شِعْر. فقال: ما عَلِمْتُ.

فقال: هذه حكاية مفيدةٌ مِنْ هذا العالِمِ المتقَدِّم، وحُكمٌ يَلُوحُ منه الإنصاف، وقد أَغْنَى هذا القولُ عن خَوْضٍ كثير.

وَدَعْ ذا؛ مِن أيْنَ دَخَلَتِ الآفَةُ على أصحاب المَذاهِب حتى افترقوا هذا الافتراق، وتَبَايَنُوا هذا التّبايُنَ، وخَرَجُوا إلى التكفير والتَفسيق وإباحَةِ الدّم والمالِ ورَدِّ الشَّهادَةِ وإطْلاقِ اللِّسان بالجرْح والقَذْع والتَّهاجُر والتَّقاطُع!

فكان الجواب: إنَّ المذاهبَ فروعُ الأدْيان، والأديان أصولُ المذاهِب، فإذا ساغ[1] الاختلافُ في الأديان - وهي الأصول - فلِمَ لا يَسُوغُ في المَذاهب وهي الفروع.

فقال: ولا سَوَاء[2]، الأديان اخْتَلَفتْ بالأنْبِياء، وهم أرْبابُ الصِّدْقِ والوَحْيِ المَوْثوق

(١) في (ب) «شاع»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٢) في (أ) ولا سيما؛ وهو تحريف إذ لا يستقيم به سياق الكلام.

به، والآيات الدَّالّة على الصِّدق؛ وليس كذلك المذَاهِب.

فقيل: هذا صحيح، ولا دافع[1] له، ولكن لمّا كانت المذاهب نتائجَ الآراء، والآراءُ ثمراتِ العقول، والعقولُ مَنائحَ الله للعِباد، وهذه النتائجُ مُخْتَلِفَةٌ بالصَّفاء والكَدَر، وبالكمال والنَّقْصِ، وبالقِلّة والكَثْرة، وبالخفاء والوُضوح؛ وَجَب أن يَجْرِيَ الأمرُ فيها على مَناهِجِ الأدْيان في الاختلاف والافتراق وإن كانت تِلْكَ مَنُوطَةً بالنبوَّة؛ وبعد، فما دامَ الناسُ على فِطَرٍ كثيرةٍ، وعادَاتٍ حَسَنَةٍ وقَبيحة، ومَناشِئَ محمودةٍ ومَذمومة، ومُلاحَظَاتٍ قريبةٍ وبعيدة، فلا بدّ من الاختلاف في كلّ ما يُخْتَارُ وَيُجْتَنَب، ولا يَجوزُ في الحِكمَةِ أنْ يَقعَ الاتفاق فيما جَرَى مَجْرَى المَذاهِبِ والأدْيان؛ أَلا تَرَى أنّ الاتّفاق لم يَحْصُل في تفضِيل أُمة على أمّة، ولا في تفضيلِ بَلَدٍ على بَلَد، ولا في تَقديم رَجُلٍ على رَجُل، ولو لم يكن في هذا الأمر إلا التَّعصُّبُ واللَّجاجُ والهَوَى والمَحْكُ والذَّهابُ مَعَ السابق إلى النفس، والموافِقُ [لِلمزاج]، والخفيفُ على الطِّباع، والمالكُ للقَلْب، لكان كافيًا بالِغًا بالإنسان كلَّ مبلغ.

وشيخُنا أبو سُلَيْمانَ يقول كثيرًا: إنَّ الدِّين مَوْضُوعٌ على القَبولِ والتَّسليم، والمُبالَغةِ في التَّعْظيم[2]، وليس فيه «لِمَ» و«لا» و«كَيْفَ» إلا بقدرِ ما يؤكِّدُ أَصْلَه ويَشُدُّ أَزْرَه، ويَنْفِي عارِضَ السُّوء عنه، لأن ما زادَ على هذا يُوهِنُ [الأَصْلَ] بالشكّ، ويَقْدَحُ في الفَرْع بالتّهمةِ.

قال: وهذا لا يخصّ دِينًا دُونَ دِين، ولا مقالةً دُون مَقالة، ولا نِحْلَةً دونَ نِحْلَة، بل هو سار في كلّ شيء في كلّ حالٍ في كلّ زمان، وكلّ مَن حاولَ رَفْعَ هذا فقد حاولَ رَفْعَ الفِطْرَة، وَنَفْيَ الطِّباع، وَقَلْبَ الأَصْل، وَعَكْسَ الأمر؛ وهذا غيرُ مُسْتَطاعٍ ولا مُمْكِن؛ وقد قيل: «إذا لم يَكُنْ ما تُريد فأَرِدْ ما يكون».

وقال لنا القاضي أبو حامِد المَرْوَرُّوذِيُّ: أنا منذ أربعين سنةً أَجْتَهِدُ معَ أصْحَابِنَا البَصْرِيِّينَ في أنْ أُصَحِّحَ عندهم أن بغدادَ أَطْيَبُ مِنَ البَصْرَة، وأنَا اليومَ فِي كلامِي معهم

(١) في (أ) «ولا رابع»؛ وهو تحريف.

(٢) في كلتا النسختين «والتعظيم» بالواو؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

كما كنتُ في أوَّل كلامِي لهم، وكذلك حالهُمْ مَعِي، فهذا هذا. أنظر على فَضْل وَمَرْعُوش – وَهما مِن سَقَطِ النَّاس وَسِفْلَتهِم – كيف لَهِجَ الناسُ بهما وبالتعَصُّب لهما حتى صارَ جميعُ مَن ببغداد إما مَرْعُوشِيًّا وإمَّا فَضْلِيًّا.

ولقدْ اجْتازَ ابنُ مَعْرُوف وهوَ عَلَى قَضَاء القضاة بباب الطاق فَتَعَلَّقَ بعضُ هؤلاءِ المُجّان بِلِجام بَغْلَته، وقال: أيُّها القاضي، عرِّفنا، أنتَ مَرْعُوشِيّ أمْ فَضْلِيّ، فتحيّر وَعَرَفَ ما تَحْتَ هذه الكَلِمَة مِنَ السَّفَه والفِتْنَة، وأنّ التخلُّصَ بالجَواب الرَّفِيق أَجْدَى عليه مِن العُنْفِ والخُرْق وإظْهارِ السَّطْوة؛ فالتَفَتَ إلى الحَرَّانيّ – وكانَ معه وهو من الشهود – فقال: يا أَبا القاسم، نحن في مَحَلَّةِ مَن؟ قال: في مَحَلّةِ مَرْعُوش؛ فقال ابنُ معروف: كذلك نَحْنُ – عافاكَ اللهُ – مِنْ أَصْحابِ مَحَلَّتنا لا نخْتارُ على اختيارهم؛ ولا نَتَمَيَّزُ فيهم. فقال العَيَّار: امْشِ أَيُّها القاضِي في سِتر الله؛ مِثْلُكَ من تَعَصَّبَ للجيرَان.

فقال الوزير – أَحْسَنَ اللهُ تَوفِيقَه – هذا كلُّه تعصُّبٌ وهَوًى وتَمَاحُكٌ[(١)] وتكلُّفٌ. قِيل: هذا وإنْ كانَ هكذا فهو داخلٌ فيما عَدَاهُ مِنْ حَدِيث الدِّين والمَذْهَب والصِّناعَةِ والبَلَد.

قال أبو سليمان: ولمصلحةٍ عامّةٍ نُهِيَ عن المِراء والجَدَل [في الدِّين] على عادة المتكلّمين، الذين يزعمون أَنَّهم يَنْصُرُون الدّين[(٢)]، وهمْ في غايَةِ العَداوَةِ للإِسلامِ والمُسْلِمين، وأَبْعَدُ الناسِ من الطُّمَأنينة واليَقِين.

ثم حدّث فقال:

اجتمعَ رَجُلان: أحدهما يقول بقَوْلِ هِشام، والآخَرُ يَقُولُ بقَوْل الجوَاليقيّ؛ فقال صاحِبُ الجَوَاليقيِّ لصاحب هشام: صِفْ لِي رَبَّكَ الّذي تَعْبُده، فوَصَفَه بأنَّه لا يَدَ له ولا جارِحةَ ولا آلَةَ ولا لِسان، فقال الجواليقيّ: أَيسرُّكَ أَنْ يكون لكَ وَلَدٌ بهذا الوصف! قال: لا، قال: أَمَا تَسْتَحِي أن تصفَ رَبّك بصفةٍ لا تَرْضاهَا لوَلدِك! فقال صاحبُ هِشام: إنَّكَ قد سَمِعْتَ ما نَقُول، صِفْ لي أَنْتَ رَبَّكَ؛ فقال: إنّه جَعْدٌ قَطط في أَتَمّ القامات وأَحْسَن الصُّوَر

(١) في (أ) «تماسك»؛ وهو تحريف.

(٢) في (ب) «الجدل» مكان «الدين»؛ وهو خطأ من الناسخ.

والقَوام. فقال صاحب هِشام[١]: أيسُرُّكَ أنْ تكونَ لكَ جاريةٌ بهذه الصِّفة تَطَؤُها؟! قال: نعم، قال: أفما تستحي من عبادة من تُحِبُّ مُبَاضَعَةَ مِثلِه!! وذلك لأنّ مَنْ أحَبَّ مُباضَعَتَه فقد أوْقَعَ الشَّهْوةَ عليه.

فقال: هذا من شؤم الكلام ونكد الجَدَل، فلو كان هُناكَ دِين لكان لا يَدُورُ هذا في وَهْم[٢] ولا يَنْطِقُ به لِسان.

وَحَكى أيضًا قال: ابتُلِيَ غلامٌ أعْجَميٌّ بوَجَع شديد، فجعل يتأوَّهُ ويتلَوّى ويَصِيح. فقال له أبوه: يا بُنيّ، اصبرْ واحمَدِ اللهَ تعالى. فقال: ولماذا أحْمَدُه! قال لأنّه ابتَلاكَ بهذا؛ فاشتَدَّ وَجَعُ الغُلام ورَفَعَ صَوْته بالتأوُّه أشَدَّ مِمَّا كان، فقال له أبُوه: ولِمَ اشتدَّ جَزَعُك! فقال: كنتُ أظُنُّ أنَّ غَيْرَ اللهِ ابتَلاني بهذا فكنتُ أرْجُوهُ أن يُعافِيني من هذا البلاءِ ويَصْرِفَه عنِّي، فأمّا إذ كانَ هوَ الّذي ابتلاني به فمن أرْجُو أنْ يُعافِيَني! فالآن اشتدَّ جَزَعِي، وعَظُمَتْ مُصِيْبَتِي. قال: ولو عَلِمَ أنّ الّذي ابتلاه هو الذي استَصْلَحَه بالبَلاء لِيَكُونَ إذَا وَهَب له العافيةَ شاكِرًا له عليها بحِسٍّ صَحِيح وعِلْم تامٍّ لَكان لا يَرى ما قالَه وتَوهَّمَه لازِمًا.

وحَكَى أيضًا أنّ رَجلًا مِن العَجَم حَجَّ وتَعَلَّقَ بأَسْتارِ الكَعْبَةِ فَطَفِقَ يَدْعُو ويقول: يا مَن خَلَق السِّباعَ الضارِيةَ، والهَوامَّ العادِيَة، وسَلَّطها على الناس، وضَرَبَهُمْ بالزَّمانَةِ والعَمَى والفَقْرِ والحاجة؛ فوَثَب الناسُ عليه وسَبُّوه وزَجَروه وقالوا: ادع اللهَ بأَسْمائه الحُسنَى. فأَظْهر لهم النَّدامة، والتَّقارف[٣] فَخَلَّوْا عنه بعد ما أَرادُوا الوَقِيعةَ به، فَرَجَع وتَعَلَّق بأَسْتَارِ الكَعْبة، وجعَلَ يُنادِي: يا مَنْ لم يَخلق السِّباعَ الضَّارِيةَ، ولا الهَوَامّ، ولا سلَّطها على النَّاس، ولمْ يَضرب الناسَ بالأوْجاع والأسْقام. فوثبوا [عليه] أيضًا وقالوا له: لا تَقُلْ هذا فإنّ اللهَ خالقُ كلِّ شيء؛ فقال: ما أَدْرِي كيفَ أعمل؟ إنْ قلتُ: إنّ اللهَ خالقُ هذه الأشياء وَثَبْتُم عليَّ؛ وإن قلتُ: [إنّ اللهَ] لم يَخْلُقْها وثَبْتُم عَليَّ. فقالوا: هذا يَنْبَغي أنْ تَعْلَمه بقَلْبِك ولا

---

(١) في (أ) التي وردت فيها وحدها هذه العبارة «الجواليقي» مكان «هشام»، وهو خطأ من الناسخ؛ والسياق يقتضي ما أثبتنا. وعبارة (ب) «فقال له» ثم ذكر كلامه.

(٢) في (ب) «في خاطر»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٣) عبارة (أ) «وفارق بحلوا عنه»؛ وهو تحريف. والتقارف: التقارب والمداناة.

تَدْعُ اللهَ به.

قال أَبُو سُلَيْمان: وهذَا أيضًا مِن شُؤْم الكلام وشُبَه المُتكلِّمين الّذِين يَقُولون: لا يَجُوزُ[١] أَنْ يُعتَقَدَ شيء بالتقليد، ولا بُدَّ مِن دليل، ثم يُدَلِّلونَ ويَخْتَلِفُون، ثم يَرْجِعُون إلى القَوْل بأنّ الأدِلّةَ مُتكافِئة.

وكان ابنُ البَقّال يَجْهَر بهذا القول، فقلتُ له مرَّة: لِمَ مِلْتَ إلى هذا المَذْهب؟ فقال: لأني وَجَدْتُ الأدِلّةَ مُتدافِعَةً في أنْفُسها، ورأيتُ أصحابَها يُزَخْرِفُونها ويُمَوِّهُونها لتُقْبَلَ منهم، وكانُوا كأصحابِ الزُّيُوفِ الّذين يَغُشُّون النَّقْدَ ليَنْفُقَ عِنْدَهم، وتدور المُغالَطةُ[٢] بينهم. فقلتُ له: أَمَا تَعْرِفُ بأَنَّ الحقّ حَقّ والباطِلَ باطل؟ قال: بلى، ولكن لا يَتَبَيَّن[٣] أَحَدُهُما من الآخر. قلتُ: أَفَلأَنّه لا يتبيَّن لك الحقُّ مِنَ الباطِلِ تَعْتَقِد أنّ الحقَّ باطِل وأنّ الباطلَ حق؟ قال: لاَ أجيءُ إلى حقّ أعْرِفُه بعَيْنِه فأعتَقِد أنّه باطل، ولا أجيءُ أيضًا إلى باطل أَعْرِفُه بعَيْنِه فأعْتَقِد أنّه حَقّ، ولكنْ لمّا التَبَس الحقُّ بالباطِل والباطِلُ بالحق قُلتُ: إنّ الأدِلّة عليهما ولهما متكافِئة، وإنها مَوْقُوفَةٌ على حِذْقِ الحاذِق في نُصْرَته، وضَعْفِ الضَّعيفِ في الذَّبِّ عنه. قلتُ: فكأنّك قد رَجعْتَ عن اعترافِكَ بالحَقِّ أنّه حَقّ، وبالباطلِ أنّه باطِل. قال: ما رَجعْتُ. قلتُ: فكأنّك تَدّعي الحَقَّ حَقًّا جُمْلَةً والباطلَ باطِلًا جُمْلَةً من غير أنْ تُميِّزَ بالتفصِيل. قال: كذا هو. قلتُ: فما نَفْعُكَ[٤] بالاعتراف بالحقّ وأنّه مُتَمَيِّزٌ عن الباطل في الأَصل، وأنت لا تميِّزُ بينهما في التفصِيل؟ قال: والله ما أدْري ما نَفْعي منه. قلتُ فلِمَ لاَ تَقُول: الرأيُ أن أقفَ فلا أحْكمَ على الأدِلّة بالتّكافؤ، لأنَّ الباطلَ لا يُقاوِمُ الحقَّ، والحقَّ لا يَتَشَبَّه بالباطل، إلى أن يَفْتَح اللهُ بَصَري فأرَى الحقَّ حَقًّا في التفصِيل، والباطِلَ باطِلًا على التَّحصيل، كما رأيتُهما في الجُمْلة، وأنَّ الّذي فَتَح بَصَري على ذلك في الأوّلِ هوَ الّذي غَضَّ بَصَري عنه في الثاني؟ قال: يَنْبَغي أنْ أنْظُر فيما قلتَ. فقلتُ: انْظُرْ

(١) كذا في (أ) والذي في (ب) «لا يجب». ولعلها محرفة عن «لا يُحبُّ» بالبناء للمجهول.

(٢) كذا في (أ) والذي في (ب) «المعاملة».

(٣) في كلتا النسختين «يبين» بسقوط «لا»؛ والصواب ما أثبتنا كما يؤخذ مما يأتي بعد.

(٤) في (أ) «تفعل»؛ وهو تحريف.

إنْ كانَ لك نَظَر، ولا تَتَكلَّف النَّظرَ ما دامَ بكَ عَمًى أوْ عَشًا أو رَمَد.

وحكى لنا أبو سليمان قال: وصَف لنا بعضُ النَّصارَى الجَنَّةَ فقال: ليس فيها أكْلٌ ولا شُرْبٌ ولا نِكاح. فسَمِعَ ذلك بعضُ المتكلِّمين فقال: ما تصف إلَّا الحُزْنَ والأسَفَ والبَلاء.

وقال أبو عيسى الورَّاق- وكان من حُذَّاق المتكلِّمين- إن الآمر بما يَعْلَمُ أن المأمورَ لا يفعله سَفِيهٌ، وقد علم اللهُ من الكفار أنهم لا يؤمنون، فليس لأمْرِهم بالإيمان وَجْهٌ في الحكمة.

قال أبو سليمان: انظر كيف ذهب عليه السِّرُّ في هذه الحال، من أين أتَوا، وكيف لَزِمَتْهُم الحجَّةُ.

وقال أبو عيسى أيضًا: المُعاقِبُ الّذي لا يَسْتَصْلِحُ بعُقُوبته من عاقَبَه، ولا يسْتَصْلحُ به غَيْره، ولا يَشفي غيظَه بعقُوبَتِه جائر، لأنّه قد وَضَع العُقوبَةَ في غير مَوْضِعها. قال: لأنّ الله تعالَى لا يَسْتَصْلِحُ أَهْلَ النار ولا غيرَهم، ولا يَشْفِي غَيْظَه بعُقُوبَتِهم، فليس للعُقُوبَة وَجْهٌ في الحِكْمَة. هذا غَرَضُ كِتابِهِ الّذي نَسَبَه إلى الغَريب المَشْرقيِّ.

وقال أبو سَعِيد الحَضْرَميّ – وكان من حُذاقِ المُتكلِّمين ببَغْداد، وهو الذي تَظاهَرَ بالقَوْل بتكافُؤ الأدلّة – إنْ كانَ الله عَدْلًا كريمًا جَوَادًا عَلِيمًا رَءوفًا رَحيمًا فإنّه سَيُصَيِّر جميعَ خَلقِه إلى جَنَّتِه، وذلك أنّهم جميعًا على اختلافهم يجْتهدُون في طَلب مَرْضَاتِه، فيهْرُبُون مِنْ وَقْع سُخْطه بِقَدْرِ عِلمِهمْ وَمَبْلغ عُقولهم، وَإنّمَا تَركُوا اتِّباعَ أمره لأنّهم خُدِعُوا، وزُيِّنَ لهم الباطِلُ باسم الحَقِّ؛ ومَثَلُهم في ذلك مَثَلُ رَجُل حَمَلَ هَدِيّةً إلى مَلِك، فعَرَض له في الطريقِ قومٌ شأنُهم الخِداعُ والمَكْرُ والاستِلال[1]، فَنصَبوا له رَجُلا، وسمَّوْه باسم الملك الذي كان قَصَدَه، فسَلَّمَ الهدِيةَ إليهم؛ فالملِكُ الّذي قَصَده إنْ كان كريمًا فإنّه يَعْذِرُه ويَرْحَمُهُ ويَزِيدُ في كرامَتِه وبِرِّه حينَ يقِفُ على قِصَّته، وهذا أَوْلَى به مِنْ أَنْ يَغْضَبَ عليه ويُعاقبه.

(١) في (أ) «والاسترلال» وفي (ب) «والاسترسال»ح وهو تحريف في كلتا النسختين.

وقال أبو سليمان: ذكروا أنّ رَجُلًا رَأَى قومًا يَتَنَاظَرُون، فجَلَسَ إليهم فرآهم مُخْتَلِفين، فأَقْبَلَ على رَجُل منهم فقال: أَتُلْزِمُنِي أَنْ أقولَ بقَوْلِكَ وأنَا لا أعْلَمُ أنّك مُحِقٌّ؟ فإنْ قلتَ: نعَم، قلتُ لك: إنّ بعضَ جُلَسائك يدعونِي إلى مخالَفَتِك واتِّباعِه، وليس عِندي عِلْمٌ بالمُحِقِّ منكم؛ وإن أَلزَمْتَنِي أنْ أَتَّبِعَ كلَّكُم فهذا مُحال، وإن قلت: لا يَلزَمُكَ أنْ تتَّبِعَني ولا غَيْرِي إلَّا بَعْدَ العلم بالمُحِقّ منكم، لم يَخْلُ العلمُ بذلك مِنْ أَنْ يكون فِعْلي أو فِعْلَ غيري، فإنْ كان العلمُ فِعْلا لِغَيْرِي فقد صِرْتُ مُضْطَرًّا، ولا أَسْتَوجِبُ عليه حمدًا ولا ذمًّا [وإن كان الفعل لي] فمَنْ أعْظَمُ جَهالَةً ممّن يَفعل ما يَلْزَمُه الأمْرُ والنهْي به، وإنْ قَصَّرَ صَيَّرَه ذلك إلى العَطَب والهَلاك، مع أنّ هذا القَولَ يُؤَدِّي إلى أنْ أَكُونَ أنا المعْتَرِضُ على نَفْسي، لأنه إنما يَلْزَمُنِي ذلك إذا عَلِمْتُ أَنِّي أَقْدِرُ أنْ أَعْلَمَ وَألاّ أَعْلَم.

وحَكى لنا أيضًا قال: سئل عندنا رَجُلٌ مِن المتَحَيِّرينَ بسِجِسْتَان فقِيل له: [ما دليلك على صحّة مقالتك؟ فقال: لا دليل ولا حجّة. فقيل له]: وما الّذي أَحْوَجَكَ إلى هذا؟ قال: لأنِّي رأيْتُ الدليلَ لا يكون إلَّا مِنْ وُجُوهٍ ثلاثة: إمَّا مِنْ طَرِيق النبوَّةِ والآيات، فإن كان إنما يَثبت من هذه الجهة فلم أشاهد شيئًا من ذلك ثبتت عندى مقالته.

وإما أن يكون يثبت بالكلام والقياس، فإن كان إنما يثبت بذلك فقد رأيتُني مَرَّةَ أَخْصِمُ وَمَرَّةً أُخْصَم، ورأيتُنِي أعْجزُ عن الحجَّة فأَجِدُها عند غَيْري، وأَتَنبَّه إليها من تِلْقاء نَفْسِي بعد ذلك، فَيَصِحُّ عِنْدِي ما كانَ باطِلًا، ويَفْسُدُ عِنْدِي ما كان صحيحًا؛ فلمَّا كان هذا الوَصْفُ على ما وَصَفْتُ لم يكن لي أن أَقضي لشيء بصحَّةٍ من هذه الجهة، ولا أقضِيَ على شيء بفَسادٍ لعدَمِ الحجَّة.

وإمّا أن تكون ثبتَتْ بالأخْبارِ عن الكُتُب فلم أَجِدْ أهلَ مِلَّةٍ أَوْلَى بذلك مِنْ غيرهم، ولم أَجِدْ إلى تَصْديق كلِّهم سبيلًا. وكان تَصْدِيقُ الفِرْقَةِ الواحدةِ دُونَ ما سِواها جَوْرًا، لأنّ الفِرَق مُتَساوِيةٌ في الدَّعْوَى والحُجَّةِ والذَّبِّ والنُّصْرَة. فقيل له: فلِمَ تَدِينُ بدِينِك هذا الذي أنْتَ على شِعارِه وحِلْيَتِه، وهَدْيه وهَيْئَتِه؟

فقال: لأنّ له حرمةً ليْسَتْ لغَيْرِه، وذاك أَنِّي وُلِدْتُ فيه، ونَشَأت عليه، وتَشَرَّبْتُ حَلاَوَته،

وأَلِفْتُ عادَةَ أَهْلِه، فكان مَثَلِي كمَثَل رَجُلٍ دَخَل خانًا يستظلُّ فيه ساعةً مِنْ نَهار وَالسَّماء مُصْحِيَةٌ، فأدخله صاحب الخان بيتًا من البيوتِ من غير تَخَبُّرٍ ولا مَعرِفَةٍ بصَلاحِه، فبينا هو كذلك إذْ نَشَأَتْ سحابةٌ فمَطَرَتْ جَوْدًا، وَوَكَفَ البَيْتُ، فنَظَرَ إلى البُيوتِ التي في الفُنْدُق فرآها أيضًا تَكِفُ، ورأى في صَحْنِ الدَّارِ رَدْغَة، ففكَّرَ أنْ يُقيم مَكانَه ولا يَنْتَقِلُ إلى بَيْتٍ [آخر] ويَرْبَحَ الرَّاحةَ، ولا يُلَطِّخ رِجْلَيْه بالرَّدْغَة والوَحَلِ اللَّذَيْنِ في الصَّحْن؛ ومالَ إلى الصَّبْر في بَيْتِه، والمُقام على ما هُوَ عليه، وكان هذا مَثَلِي، وُلِدْتُ ولا عَقْلَ لي، ثم أَدْخَلَني أَبَوَايَ في هذا الدِّين مِن غَيْرِ خِبْرَةٍ مِنِّي، فلمّا فتَّشْتُ عنه رَأَيْتُ سَبيلَه سَبيلَ غَيْرِه، ورَأَيْتُني في صَبْري عليه أَعَزَّ مِنِّي في تَرْكِه، إذ كنتُ لا أَدَعُه وأَميلُ إلى غَيْرِه إلا باختيار مِنِّي لذلك، وأَثَرَةٍ له عليه؛ ولَسْتُ أَجِدُ له حُجّةً إلَّا وأَجِدُ لغَيرِه عليه مِثْلَها.

وحَكَى لنا ابنُ البقّال – وكان مِنْ دُهاةِ الناسِ – قال: قال ابن الهَيْثم: جُمِع بَيْني وبَيْنَ عُثمانَ بنِ خالد، فقال لي: أُحِبُّ أَنْ أُناظِرَك في الإمامة؛ فقلتُ: إنّكَ لا تُناظِرُني، وإنّما تُشيرُ عَلَيّ؛ فقال: ما أَفْعَلُ ذلك، ولا هذا مَوْضِعُ مَشُورة، وإنما اجتَمَعْنا للمناظَرة؛ فقلتُ له: فإنّا قد أَجْمَعْنا على أنّ أَوْلَى الناس بالإمامة أفضَلُهم، وقد سَبَقَنا القومُ الذين يُتَنازَعُ في فَضْلِهم، وإنما يُعْرَفُ فَضْلُهم بالنَّقْلِ والخَبَر؛ فإنْ أَحْبَبْتَ سَلَّمْتُ لك ما تَرْويه أَنْتَ وأَهْلُ مَذْهَبِكَ في صاحِبِك، وتُسَلِّمُ لِي ما أَرْوِيه أنا وفِرْقَتِي في صاحِبِي، ثم أُناظِرُكَ في أَيِّ الفَضائل أَعْلى وأشرَف؛ قال: لا أريد هذا، وذاكَ أني أَرْوِي مع أصحابي أَنَّ صاحبي رَجُلٌ مِنَ المسلمين يُصيبُ ويُخطِئ، ويَعْلَمُ ويَجْهَل؛ وأنت تقول في صاحبك: إنّه مَعْصومٌ من الخطأ، عالِمٌ بما يحتاج إليه. فكيفَ أَرْضَى هذه الجُمْلة؟ قلت: فأَقْبَلُ كلَّ شيء تَرْوِيه أنت وأصحابُكَ في صاحبي مِن حَمْدٍ أو ذَمّ؛ قال: هذا أَقْبَحُ من الأوَّل، وذلك أني وأصحابي نَرْوِي أنّ صاحِبك مؤمنٌ خَيِّرٌ فاضِل، وأنت وأصحابُك تَرْوُون أنّ صاحبي كافرٌ مُنافِق؛ فكيف أَقْبَلُ هذا منك وأُناظِرُك عليه؟

قال ابن الهيثم: فلم يَبْقَ إلَّا أن أَقول: دَعْ قَوْلَك وقولَ أصحابِكَ، واقبلْ قولي وقولَ أَصحابي؛ قال: ما هو إلَّا ذاك؛ قلت: هذه مَشُورَة، ولَيْسَت مناظَرَة. قال: صَدَقْتَ.

وحَكَى لنا الزُّهَيرِيُّ قال: سأَلَ رَجلٌ آخَرَ فقال: أتقولُ إنّ اللهَ نَهانَا أنْ نَعْبُدَ إلهَيْنِ؟ قال: نعم؛ قال: [وأَمَرَنَا أنْ نَعْبُدَ إلهًا واحدًا؟ قال:] نعم؛ قال: فالاثنان اللّذان نَهانَا عن عِبادَتِهما مَعْقولان هكذا؟ وأشار بإصْبَعَيْه، قال: نعم؛ قال: فالواحِدُ الذي أَمَرَنا بِعِبادتِه مَعقولٌ هكذا؟ وأَشَار بإصبع واحدة؛ قال: لا؛ قال: فقد نهانَا عمَّا يُعقَل وأَمرَنَا بما لا يُعقَل، وهذا يُعلَمُ ما فيه فانْظُرْ حَسَنًا.

وحَكَى لنا الزُّهَيْرِيُّ قال: حَدَّثَنا ابنُ الأخْشادِ قال: تَنَاظَرَ رَجلاَنِ في وَصْفِ الباري سُبْحانَه، واشتَدَّ بَيْنَهُما الجدال، فَتَراضَيَا بأَوَّلِ مَن يَطْلُعُ عليهما ويَحْكُمُ بينَهُما، فطَلَعَ أَعرابيٌّ، فأَجلَسَاه وقَصَّا قِصَّتَهُما، ووَصَفَا له مَذْهَبَيْهما؛ فقال الأعرابيُّ لأحَدِهما - وكان مُشَبِّهًا -: أمَّا أنتَ فَتصِفُ صَنَمًا، وقال للثاني: وأمَّا أنتَ فتَصِف عَدَمًا، وكِلاكُما تَقُولان عَلَى اللهِ ما لم تَعلَما.

وقال لنا الأنصاريُّ أبو كَعْب: قال ابنُ الطحَّان الضَّريرُ البَصْريّ - وكان يَقُولُ بقَوْلِ جَهم: إذا كان يوم القيامة بَدّل اللهُ سَيِّئاتِ المؤمِنين حَسَنات، فَيَنْدَمُون عَلَى ما قَصَّرُوا فيه من تَنَاوُل اللّذّاتِ، وقَضَاءِ الأوْطار بالشَّهَوَات؛ لأنهم كانوا يتوقَّعون العقاب، فنالوا الثَّوَاب؛ وكان يَتلو عند هذا الحديث قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وحَكَى لنا ابنُ الثّلاّج قال، قال أبو عُثمانَ الآدَمِيُّ: إنّ الجَنَّةَ لا ساتِرَ فيها، وذلك لأنَّ كلَّ ساترٍ مانع، وكلَّ مانع آفَة، وليستْ في الجَنّة آفَة، ولهذا رُويَ في الحديث: إنَّ الحُورَ يُرَى مُخُّ ساقِها مِنْ وَراء سَبْعين حُلَّةً سِوَى ما تَحْتَ ذلك من اللَّحم والعَظْم، كالسِّلْكِ في الياقوت؛ فقال له قائل: الجَنَّةُ إذًا أَوْلَى مِنْ الحمّام، إذ قيل: بئسَ البَيْتُ الحمّام، يُذْهِبُ الحيَاءَ، ويُبْدِي العَوْرَة.

وحَكَى لنا ابنُ رَبّاطِ الكوفِيُّ - وكان رئيسَ الشِّيعةِ ببَغدادَ، ولم أرَ أَنْطَقَ منْه - قال: قيل لأميرِ المؤمنين عليِّ بن أبي طالب - عليه السلام - مِنْ أَيْنَ جاءَ اختلافُ النّاسِ في الحديث؟ فقال: الناسُ أَرْبَعة: رَجُلٌ مُنَافِقٌ كذبَ عَلَى رسولِ الله ﷺ متعمِّدًا، فلو عُلِمَ أنّه

مُنافقٌ ما صُدِّق[1] ولا أُخِذَ عنه. ورجل سمع رسول الله ﷺ يقول قولًا أو رآه يفعل فعلًا ثم غاب ونُسخ ذلك من قوله أو فِعله، فلو عَلم أنّه نُسخ ما حَدَّثَ ولا عَملَ به. ولو عَلِمَ الناسُ أنّه نُسِخ ما قَبِلوا منه ولا أَخَذُوا عَنْه، ورَجُلٌ سَمِع رسولَ اللهِ ﷺ يقول قولًا فوَهِمَ فيه، فلو عَلِمَ أنّه وَهِمَ ما حَدّثَ ولا عمل به. ورجلٌ لم يَكْذِبْ ولم يَهِمْ، وشَهِدَ ولمْ يَغِبْ.

قال: وإنما دَلَّ بهذا عَلَى نَفْسِه، ولهذا قال: كنتُ إذا سُئِلتُ أَجَبْتُ، وإذا سَكَتُّ ابتُدِئتُ.

وحَكَى لنا ابن زُرْعَةَ النَّصرانيُّ قال: قيل للمسيح: ما بالُ الرَّجلين يَسْمَعان الحقَّ فيَقْبَلُه أحدُهما ولا يَقْبَلُه الآخَر؟ فقال: مَثَلُ ذلك مَثَلُ الرَّاعي الذي يصوِّت بغَنَمِه فتأتيه هذه الشاةُ بِندائه، ولا تأتيه هذه.

قال أبو سليمان: هذا جوابٌ مَبْتور، وليس له سَنَن، ولعلَّ الترجمة قد حافت عليه، والمعنى انحرف عن الغاية؛ وليس يَجُوز أن يكون حال الإنسان كيف كان، حالَ الشاةِ في إجابةِ الداعي وإبائها[2]، فإنّ له دَواعِيَ ومَوانعَ عقليّةً [وحِسِّيّة].

فقال الوزير: هذا أيضًا بابٌ قد مَضى مُستَوْفًى، ما الذي سمعتَ اليوم؟ فقلتُ: رأيت ابن برمويه في دَعْوَة، وتَرَامَى الحديث فقال: رأيتُ اليومَ الوزيرَ شديدَ العُبوس، أهُوَ هكذا أبدًا، أم عَرَضَ له هذا عَلَى بَخْتي؟ فقال ابنُ جَبَلة: لعلَّه كان ذاك لسَبب، وإلاّ فالبِشرُ غالبٌ عَلَى وَجْهِه، والبَشاشةُ مألوفةٌ منه. فقال ابن برمويه: ما أَحْسَنَ ما قال الشاعر:

أخو البِشْرِ محمودٌ عَلَى حُسْنِ بِشرِه ... ولن يَعْدَمَ البَغضاءَ مَن كان عابِسًا

فقال عليُّ بنُ محمد - رسولُ سِجستان -: ما أَدْري ما أنتُما فيه، ولكن يقال: ما أَرْضى الغَضْبان، ولا استَعطَفَ السلطان، ولا مَلَك الإخوان؛ ولا استُلَّت الشَّحْناء، ولا رُفِعت البَغْضاء؛ ولا تُوقِّي المحذور، ولا اجتُلِبَ السرور؛ بمثل البِشر والبِرِّ، والهَدِيَّةِ والعَطيّة.

وقال الوزير: هاتِ مُلْحَةَ المجلس[3].

(١) كذا في (ب). والذي في (أ): «ما حدث».

(٢) كذا في (أ). والذي في (ب): «وإتيانه»؛ وهو تحريف.

(٣) في (ب): «الوداع» مكان قوله: «المجلس».

فكان الجوابْ: قال أبو همّام ذاتَ يوم: لو كان النخلُ لا يَحمِلُ بعضُه إلا الرُّطَب، وبَعضُه [إلاّ] البُسْر، وبعضُه إلَّا الخَلاَل[1]، وكنّا مَتى تَناوَلْنا مِنَ الشِّمْراخِ بُسْرَةً خَلَقَ اللهُ مَكانَها بُسْرَتَيْن، ما كان بذلك بأس.

ثم قال: أَستَغفِرُ اللهَ، لو كنتُ تَمَنَّيْتُ بَدَلَ نَوَاةِ التَّمر زُبْدَةً كان أَصْوَب.

وسأَلَ الوزيرُ: هل يقال في النساء رَجُلة؟

فكان الجواب: حَدَّثَنا أبو سَعيد السِّيرافيُّ قال: كان يقال في عائشةَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ [رضي الله عنهما]: «كَانت رَجُلَةَ العَرَب»، وإنما ضاعَتْ هذه الصِّفَةُ عَلَى مَرِّ الأيام بغَلَبةِ العُجْمان؛ فقال: إنَّها واللهِ لكذلك، ولقد سمعتُ مَنْ يقول: كَان يُقال: لو كان لأَبيها ذَكَرٌ مِثلُها لما خَرَجَ الأَمْرُ منه.

قال: هل تَحْفَظُ مِن كلامِها شيئًا؟ فقلتُ: لها كلامٌ كثيرٌ في الشريعة، والرِّوايةُ عنها شائعةٌ في الأَحكام، ولقد نَطَقَتْ بعد مَوْتِ أبيها بما حُفِظ وأُذيع، لكنِّي أَحْفَظُ لها ما قالَتْهُ لمّا قُتِلَ عثمان:

خرجَتْ والناسُ مُجْتَمِعون، وعليٌّ فيهم، فقالت: أَقُتِلَ أميرُ المؤمنين عثمان؟ قالوا: نعم، قالت: أَمَا والله لقد كنْتُم إلى تَسْديد الحقّ وتأكيده أَحْوَجَ مِنكم إلى ما نَهَضْتُمْ إليه، مِن طاعةِ مَن خالَفَ عليه؛ ولكنْ كلّما زادَكم الله صحةً في دِينِه، ازْدَدْتُم تَثاقُلًا عن نُصْرَتهِ طَمَعًا في دُنياكم، أمَا والله لَهَدْمُ النِّعْمَةِ أَيْسَرُ من بُنْيَانِها، وما الزِّيادَةُ إليكم بالشُّكر، بأَسْرَعَ مِن زَوَالِ النعمةِ عنكم بالكُفْر؛ أما لئن كان فَنِيَ أَكْلُه، واختُرِمَ أَجَلُه، إنّه لصِهْرُ رسولِ الله صلى الله عليه وعَلَى آله وسلم مرَّتين، وما عَلِمْنا [خَلْقًا] تزوَّج ابنَتَيْ نَبيّ غَيْرَه؛ ولو غَيْر أَيْدِيكم قَرَعَتْ صفَاته لوُجِد عند تَلَظِّي الحربِ متَجَرِّدًا[2]، ولِسُيوفِ النَّصْرِ متقلِّدًا، ولكنّها فِتْنةٌ قُدِحَتْ بأيْدِي الظَّلَمَة؛ أَمَا والله لقد حاطَ الإسلامَ وأَكَّدَه، وعَضَّدَ الدِّينَ وأَيَّدَه؛

(١) الخلال بفتح الخاء: البسر إذا اخضر واستدار.

(٢) في (أ): «متحركا»؛ وهو تحريف.

ولقد هَدَم اللهُ به صَيَاصيَ أهلِ الشِّرْك، وَوَقَمَ[1] أركان الكُفْر؛ للهِ المُصيبَةُ به، ما أَفْجَعَها! والفَجيعَةُ به ما أَوْجَعَها! صَدَّعَ واللهِ مَقْتَلُه صَفاةَ الدِّين، وثَلَمَتْ مُصيبَتُه ذِرْوَةَ الإسلام، تبًّا لقاتِله، أعاذَنا اللهُ وإياكم مِنَ التَلبُّسِ بدَمِه، والرِّضَا بقَتْلِه.

فقال الوزير: ما أَفْصَحَ لسانَها، وأَشْجَعَ جَنانَها، في ذلك المحْفِل الذي يَتَبَلْبَلُ فيه كلُّ قُلْقُل[2]!

وَرَوَيْتُ أيضًا أنَّها قالت: مَكارِمُ الأخلاق عَشْر: صِدْقُ الحديث، وصِدْقُ البَأْس[3]، وأَداءُ الأمانة، وصِلَةُ الرَّحِم، وبَذْلُ المَعْرُوف، والتَّذَمُّمُ للجَار، والتَّذَمُّم للصَّاحب، والمُكافأَةُ بالصَّنائع، وقِرَى الضَّيْف، ورأْسُهُنَّ الحَياء.

فقال: واللهِ لكأَنَّها نَغَماتُ النبي ﷺ، ما كان أَشْهمَها، وأعلى نَظَرَها، وأبين جَوَابها!!

وحَدَّثَني أن امرأَةً تَظَلَّمَتْ إلى مسلِم بن قُتَيْبَة بخُرَاسان، فزَبَرَها، ولم يَنْظُرْ في قِصَّتِها؛ فقالت له: إنَّ أميرَ المؤمنين بَعَثَكَ إلى خُراسانَ لِتَنْظُرَ هل تَثْبُتُ خُراسانُ بلا عاملٍ أم لا؛ فقال لها مسلِم: اسكتي وَيْلَكِ، فظلامَتُكِ مَسْموعة، وحاجَتُكِ مَقْضِيَّة.

وقال مسلم: ما وَخَزَ قلبي قطّ شيءٌ مِثْلُ قَوْلِ هذه المرأة، ولقد آليت ألاّ أَسْتَهين بأَحدٍ من ذَكَرٍ أو أُنثَى.

وشبيهٌ بهذا قول المُعَلَّى بن أَيُّوبَ: رأَيْتُ في دارِ المأمون إنسانًا فازدَرَيْتُه، فقلتُ: لأَيِّ شيء تَصْلُحُ أنت؟ عَلَى غَيْظٍ مِنِّي وتَغَضُّب؛ فقال: أنا أَصْلُحُ لأَنْ يقالَ لي: هل يَصْلُحُ مِثْلُكَ لِما أَنْتَ فيه أَوْ لا. قال: فوَاللهِ ما وَقَرَتْ كَلِمَتُهُ في أُذُني حتَّى أَظْلَمَ عَلَيَّ الجَوُّ ونَكِرْتُ نَفْسِي.

وكان عَبْدُ المَلِك بنُ مرْوَانَ إذا كان له خَصيٌّ وَضِيءٌ أَمَرَ أَنْ يُحْجَبَ عن نِسائه، وقال: هو رَجلٌ وإنْ قُطِعَ منه ما قُطع، وربَّما اجتَزَأَتِ امرأَةٌ بمِثْلِها، وللعَيْنِ حظُّها.

---

(١) وقم أركان الكفر: كسرها وأذلّها.

(٢) القلقل: السريع الخفيف العوان.

(٣) في (أ): «الناس» بالنون. ووردت هذه الكلمة في (ب) لا نقط فيها. ولعل الصواب ما أثبتنا.

قال عبد الرحمن بنُ سعيد القرشيّ: كان لهِشام بنِ عبدِ الملك خَصِيٌّ يقال له خالد، وكان وَضِيئًا تأخُذُه العين، مديدَ القامة، فخمًا أبْيَضَ، فأَمرَ هشامٌ مَسْلَمَةَ بالغُدُوِّ عليه، فغَدَا: فقيل: اِسْتَأذِنْ لأخي أميرِ المؤمنين عليه، فاستَخَفَّ وقال كلمةً سَمِعَها مَسْلَمةُ، فحقَدَهَا عليه، فلمَّا دخل مَسْلَمةُ إلى هشام لَمْ يَزَلْ يُذاكِرُه شيئًا، ويُشِيرُ عليه حتى حُطَّ عن فُرُشِه وجلَسَا عَلَى البِساط ومَسْلَمةُ في ذلك يَرْمُقُ الخَصيَّ مَتَى يَمُرُّ به، فلمْ يَلْبَثْ أَنْ مرّ مُعَمَّمًا بعِمامَةِ وَشْي؛ فقال مَسْلَمة: يا أميرَ المؤمنين، أَيُّ فِتيانِنا هذا؟ قال: غَفَرَ اللهُ لك يا أبا سَعْد، هذا خالد الخَصِيّ؛ قال، فقال: يا أميرَ المؤمنين، لَضَمّةٌ مِن هذا خيرٌ من مُجَامَعَةِ رَجل، فقَلِقَ هِشامٌ وجعل يَتَضَوَّر حتى قام مَسْلَمة، ثم أَمَرَ بالخادِمِ فأُخرِجَ من الرُّصافة، فاتَّصَل ببعض بَنِيه، فكتب إليه هِشام، إني نحَّيْتُه لِمَا بَلَغَكَ، فجفاه، فلَحِقَ الخادمُ بالثَّغْرِ.

وجَرَى حديثُ النَّفْسِ وأنَّها كيف تَعْلَمُ الأشياء، فقيل: النَّفْسُ في الأصلِ عَلاّمة، والعِلْمُ صُورَتُها؛ لكنّها لما لاَبَستِ البَدَن، وصار البَدَنُ بها إنسانًا، اعترضَتْ حُجُبٌ بينها وَبينَ صُورَتِها كثيفةٌ ولَطيفَة، فصارت تَخْرِقُ الحُجُب بكلِّ ما استطاعَتْ لتَصِل إلى ما لَها مِن غَيْبِها، فصارت تَعْلَمُ الماضيَ بالاستِخبار والتَّعرُّف والبَحْثِ والمسألة والتَّنْقير، وتَعْلَمُ الآتيَ بالتّلقِّي والتوكُّفِ والتَّبشيرِ والإنذار، وتَعْلَمُ الحاضرَ بالتّعارُفِ[1] والمُشاهَدَةِ ومَجَالِ الحِسّ؛ وهذه المَعْلوماتُ كلُّها زَمانيّة، ولهذا انقَسَم بين الماضي والآتي والحاضر.

فأمّا ما هو فَوْقَ الزمان فإنَّها تَعْلمُه بالمصادَفَةِ الخارجَةِ من الزَّمان، العالِيَة عَلَى حَصْرِ[2] الدَّهر، وهذه عبارةٌ عن وجدانِها، لما لها في غَيْبِها بالحَرَكة اللائقة بها، أَعنِي الحركةَ التي هي في نوعِ السُّكون، وأَعْنِي بهذا السكون الذي هو في نَوْعِ الحَرَكة؛ ولمّا فُقِدَ الاسمُ الخاصُّ بهذا المعنى، ولم يُعْرَف في الإخْبارِ والاستِخبار إلَّا ما كان مألوفًا بالزَّمان، التَبَستِ العِبَارةُ عنه باعتمادِ السُّكونِ فيما يُلْحَظُ منه الحَرَكة، واعتمادِ الحَرَكة

(١) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول ولا معنى للتعارف هنا.

(٢) في (ب): «حصن».

فيما يُلْحَظ منه السُّكون، فصار هذا الجُزْء[١] كأنَّه ناقِضٌ ومَنْقوض، وهذا لِجَذْب[٢] مَحَلِّ الحِسّ مِنْ نَبْتِ[٣] العَقْل، وخِصْب[٤] مَرَادِ العَقْلِ بكلِّ ما عَلِقَ بالمَوجُودِ الحَقّ.

فقال الوزير: ما أَعْلَى نَجْدَ هذا الكلام! وما أَعْمَقَ غَوْرَه! وإني لأَعْذِرُ كلَّ مَن قابَلَ هذا المَسْموعَ بالرَّدّ، واعتَرَضَ عَلَى قائله بالتَّكْبُّر؛ ولَعَمْرِي إذا تَعَايَتِ الأشياءُ بالأسماء والصِّفات، وعَرَضَ العَجْزُ عن إبانَتِها بحقائق الألقاب، حارَ العَقْلُ الإنسانيّ، وحُيِّرَ الفَهْمُ الحِسِّيّ، واستَحَال المِزاجُ البَشَرِيّ، وتَهَافَتَ التركيبُ الطِّينيّ، وقَدَّرَ النَّاظرُ في هذا الفنّ، والباحث عن هذا المستكنّ، أنه حالِم، وأَنَّ الحُلْمَ لا ثَمَرَة له، ولا جَدْوَى منه.

وهذا كلّه هكَذا ما دامَ مَقيسًا إلى الأمورِ القائمة[٥] بشهادَةِ الإحْساس؛ فأَمَّا إذا صَفَا الناظِرُ، أَعْنِي ناظرَ العَقْلِ مِنْ قَذَى الحِسّ، فإنَّ المطلوبَ يكُونُ حاضِرًا أكْثَرَ ممّا يَكونُ غَيْرُه ظاهِرًا مُسْتَبانًا؛ ولَيْسَتْ شهادةُ العَبْدِ كشَهادَةِ المَوْلَى، ولا نُورُ السُّهَى كنُورِ القَمَر.

قال: أَنْشِدْني أبياتًا غريبَةً جَزْلَة، فأَنْشَدْتُ [لِهُدْبَةَ العُذْرِيّ]:

سَآوِي إلى خيْرٍ فقد فاتَنِي الصِّبَا ... وصِيحَ برَيْعانِ الشَّبَابِ فنُفِّرَا

أُمورٌ وأَلْوَانٌ وحالٌ تَقَلَّبَتْ ... بنا وزَمَانٌ عُرْفُه قَدْ تَنَكَّرَا

أُصِبْنَا بما لوْ أَنّ سَلمى أَصابَه ... تَسَهَّلَ من أَرْكانِهِ ما تَوَعَّرَا

وإنْ نَنْجُ مِنْ أهوالِ ما خافَ قَوْمُنا ... عَلينا فإنَّ اللهَ ما شاءَ يَسَّرَا

وإنْ غَالَنا دَهْرٌ فقَدْ غَالَ قَبْلَنا ... مُلوكَ بَنِي نَصْرٍ وكِسْرَى وقَيصَرَا

وذِي نَيْرَبٍ[٦] قد عابَنِي لِيَنالَني ... فأَعْيَا مَدَاهُ عن مَدَايَ فأَقصَرَا

(١) في (ب): «الخبر» مكان قوله: «الجزء».

(٢) في (أ): «الجزء» مكان قوله: «الجدب».

(٣) في (أ): «ثبت». وقد وردت هذه الكلمة في (ب) مهملة الحروف من النقط.

(٤) كذا في (ب). والذي في (أ): «وخصت مواد العقل»؛ وما أثبتناه هو ما يقتضيه سياق الكلام.

(٥) في نسخة: «الغائبة» مكان «القائمة».

(٦) النيرب: الحقد. والذي في (أ): «ثيرب». وفي (ب): «سرب»؛ وهو تحريف في كلتا النسختين.

فإنْ يكُ دَهْر نالَنـــي فأصـــابنـي | برَيْبٍ فما تُشْوِي[1] الحوادثُ مَعْشَرَا
فلَسْـــتُ إذا الضَّـــرَّاءُ نَابَتْ بِجُبَّأٍ[2] | ولا جَـــزِعٍ إن كـــان دَهرٌ تَغَيَّـــرَا

فقيل: ما الجُبَّأُ؟ فقال: الجبَانُ.

قال أبو سَعيد: حَكى العلماءُ أنَّ فلانًا جُبَّأٌ، إذا نَكَلَ.

فقال: ما أمْتَنَ هذا الكلامَ، وأَلطَفَ هذا الْجَدد! وما أَبْعَدَهُ من تَلْفيقِ الضَّرُورة، وهُجْنَةِ التكلّف، لو لا أَنَّ سامِعَه رُبَّما تَطَيَّرَ به، وانكَسَرَ عليه.

فكان الجوابُ: قَدْ مرَّ في الفَألِ والزَّجْرِ والطِّيَرةِ والاعتِيَاف ما إذا تُحُقِّقَ لم يُعَجْ عَلَى مِثْلِ هذا الاستِشعار؛ ولَعَمْري إنَّ المَذْكُورَ والمَسْموعَ إذا كان حَسَنًا وجَميلًا ومَحْبُوبًا ومُتَمَنًّى، كان أخفَّ عَلَى القَلْب، وأَخْلَطَ بالنَّفْس، وأعْبَثَ بالرُّوح؛ وكذلك[3] إذا كان ذلك عَلَى الضِّدِّ، فإنَّهُ يكونُ أَزْوَى للوَجْه، وأكْرَبَ للنَّفْس؛ ولكنَّ الأمورَ في الخَيراتِ والشُّرُورِ لَيْسَتْ فاشية من الطِّيَرةِ والعِيافَةِ، ولا جارية على هذه الحدود المعروفة، وهي عَلَى مَقاصدها التي هي غاياتُها، ومُتَوَجَّهاتُها التي هي نهاياتُها؛ وإنما هذه الأخلاق عارضةٌ للنِّساء وأَشْباهِ النساء، ومَن بنْيَته[4] ضعيفة، ومادّتُه من العَقْل طَفِيفة، وعادَتُه الجاريَةُ سَخيفة؛ وإلَّا فبأَيِّ بُرْهانٍ صَحَّ أنَّ الكلامَ الطَّيِّبَ يَجْلبُ المَحْبُوبَ ويكونُ عِلّةً له؟!وأَنَّ اللّفْظَ الخبيثَ يَجْلبُ المكرُوه ويكونُ عِلّةً له؟! هذا خَوَرٌ في طباعِ قائله، وتأَنُّثٌ[5] في عُنْصُرِ مُستَشْعِرِه؛ ولوْ سَلَكَ العُلماءُ والبُصَرَاء هذَا الطَّريقَ في كلِّ حالٍ وفي كلّ أَمْرٍ لأَدَّى ذلك إلى فسادٍ عامّ؛ وآثَرُ[6] ما في هذه القصَّة أَنَّ الإنسانَ إنْ أَعْجَبَه شيءٌ من هذا لا يُعَوِّلُ عليه، وإن ساء منه شيءٌ لا يَحُطّ إليه، بل يكون توَكُّلُهُ عَلَى رَبِّه في مَسَرَّتِه ومَساءَتِه، أَكْثَرَ مِن

(١) تشوي: تخطئ.

(٢) في (أ): «محببا». وفي (ب): «محبا»؛ وهو تحريف في كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٣) كان الأولى أن يقول «ولا كذلك» أو «وليس كذلك» أو «عكس ذلك» فإن الآتي بعد ليس كالذي ذكره قبل.

(٤) كذا في (ب). والذي في (أ): «نفسه».

(٥) في كلتا النسختين: «وثابت»؛ وهو تحريف.

(٦) في كلتا النسختين: «واكثر»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

تفَرُّده بحَوْله وقوَّته، في اختِياره وتكَرُّهه، وهذَا يَحْتاجُ إلى عَقْلٍ رَصِين، وهِمَّةٍ[1] صاعِدة، وشكِيمةٍ شَدِيدة، وليس يوجَدُ هذَا عند كلّ أَحد، ولا يُصَابُ مع كلّ إنسان.

فقال الوزير: قد أخذَت المسألة بحَقِّها، والمستَزِيدُ منها ظالم، والزائد عليها متكلِّف.

وقال أيضًا: أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلك عن ابن فارسٍ أبي الفَتْح – فقد كنتَ عندَه بقَرْمِيسِين[2] أيامًا – وما وَضَحَ لك من تقدُّمه وتأخّره في صِناعَتِه وبضاعتِه؟

فكان من الجواب: إنّه شيخٌ فيه مَحاسنُ ومَساوِئ، إلَّا أَنَّ الرُّجْحانَ لما يُذَمُّ به لا لِما يُحْمَدُ عليه، فمن ذلك أنَّ له خِبرة بالتصرُّف، وهُناك[3] أيضًا قِسْطٌ مِنَ العِلْم بأوائل الهندسة، وتَشَبُّه[4] بأصحابِ البلاغة، ومُذَاكَرةٌ في المَحافِلِ صالِحَة؛ إلَّا أَنَّ هذا كلَّه مَرْدُودٌ بالرعونة والمَكر[5] والإيهام والخِسَّة والكذب والغيبة؛ وقد كان قَرِينُه بقَرْمِيسِين يَظُنُّ به خَيْرًا، ويَلْحَظُه بعينٍ ما؛ فلمَّا سَبَرَه ذَمّه وكَرِهَ أَنْ يُعاجِلَه بالصَّرْف لئلاّ يُحْكَمَ عَلَى اختيارِه بالخطأ، وَعَلَى تَصَرُّفه بالهَوَى. وللكُبَراءِ وذَوِي القُدْرةِ زَلّاتٌ فاحشة، وفَعَلاتٌ مُوحِشة، ولكنْ ليس لهمْ [عليها] معيِّر للخَوْف منهم؛ فلمّا تَمادَى قليلًا وَجَّهَ ابنَ وَصِيفٍ حتى صَرَفه[6] وقَيَّدَه [بعد ما وَبَّخَه وَفَنَّدَه] وها هو ذا أُلقِيَ ههنا لا يُقْبَلُ بقَبْصَة[7]، ولا يُلْتَفَتُ إليه بلَحْظَة، ومع ذلك يَظُنُّ أَنَّ فَقْرَ الدَّولة إلى نَظَرِه كفَقْرِ المُدْنَفِ إلى عافِيَته.

(١) عبارة (أ): «ومدة متباعدة» مكان قوله: «وهمة صاعدة»؛ ومعناها لا يناسب سياق الكلام هنا.

(٢) قرميسين بلد قرب الدينور بين همذان وحلوان.

(٣) في (أ): «وهذا» مكان «وهناك»؛ وهو خطأ من الناسخ.

(٤) في (أ): «ونسبة»؛ وهو تحريف.

(٥) في كلتا النسختين: «والفكر»؛ وهو تحريف.

(٦) كذا في (ب). والذي في (أ): «ضربة».

(٧) في كلتا النسختين: «لا يقلب بقبضة»؛ وهو تحريف في كلتا الكلمتين. والقبصة: ما أخذ بأطراف الأصابع، كما سبق ذلك في تفسير المؤلف لهذا اللفظ نقلا عن بعض اللغويين في الجزء السابق من هذا الكتاب. ويريد بهذه العبارة أنه رخيص.

وله مع طاهر بن محمد بن إبراهيم شِرَار[1] وقَبْقَبَة[2]، وتَنْدِيد وشُنْعة.

وحدَّثني ابنُ أحمد أمسِ أَنْ ابنَ فارس شارِعٌ في أمور خبيثة، وعازِمٌ على أشياء قَبيحةٍ، ومُضَرَّبٌ بين أَقْوَام ضَمَّتْهم الأُلفَة، واستَحكمتْ بينهم الثِّقَة، وخَلَصُوا[3] حَفَظَةً للدّولة، وحَرَسًا للنِّعمة، وعَلِموا أنَّ اللهَ لا يغيِّرُ ما بقوم حتَّى يُغَيِّرُوا ما بأنفُسهم، وما أَخْوَفَني على إخوانِنا الذين بهم عَذُبَ شُرْبنا، وأَمِنَ سِرْبُنا، كَفَانَا اللهُ فيهم وكفاهم فينا كلَّ مَكْروه.

فقال: هو أَضْيَقُ مَبْعَرًا، وأقمأ مَنْظَرًا، وأَذَلُّ ناصرًا من ذاك؛ واللهِ لو نفختُ عليه لطار، ولو همَمْتُ به لبَار.

وأمَّا ما قلتَ لي أيُّها الشيخُ[4] إنَّه يَنْبَغي أن تكتُبَ رسائلَك إلى الوزير، حتى أقف عَلَى مقاصِدك فيها، وأَستبينَ براعَتَكَ وترتيبَك[5] بها؛ فأنا أَفعَل ذلك في هذه الوَرقات، ولم أكتُبْ في طولِ هذه المدة مع هذه الأحوال العَجيبة إلَّا رُقْعَتَين ورسالتين؛ فأما الرُّقْعةُ الواحدةُ فإنّها تضَمَّنت حديثَ الخادِم وما عزَمَ عليه، وقد شافَهْتُك به؛ وأما الأخرى فحَوتْ حديث ابنِ طاهر وصاحبِ الرُّصافة، وقد سَمْعْتَه منِّي.



(١) شرار، أي مشارّة بتشديد الراء. وفي نسخة: «سرار» بالسين المهملة.

(٢) من معاني القبقبة: الهدير، وصوت أنياب الفحل، والحمق؛ فلعله يريد ما تفيده هذه المعاني من أن بينهما مغاضبة وملاحاة وخصومة. وفي (أ): «وفتنة» مكان «وقبقبة». «وتبديل» مكان «وتنديد»؛ وهو تحريف في كلا اللفظين.

(٣) في كلتا النسختين: «وحصلوا»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٤) يريد بالشيخ أبا الوفاء المهندس.

(٥) في كلتا النسختين: «برأيك» مكان «براعتك». وفي (أ): «وقرنيتك» مكان «وترتيبك».

رسالتان كتب بهما المؤلف إلى الوزير

أما الرسالة الأولى:

بسم الله الرّحمن الرّحيم: اللهمّ حَلِّني بالتوفيق، وأَيِّدْني بالنُّصْرَة، واقرِنْ مَنْطِقي بالسَّداد، واجعل لي مِن الوَزير وزير المَمالِكِ عُقْبَى فارِجَةً[١] من الغُمَم، وخاتمةً موصولةً بالنجاح، فإنك على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

كنتُ وصلتُ إلى مجلس ِ الوَزير، وفُزْتُ بالشَّرَفِ منه، وخدمت دولته، وعلاه من صدري بخَبيئَتِه، ومن فؤادي بمحِيضته، وتصرفتُ من الحديث بإذْنِه في شُجونِه وفُنُونه، كلُّ ذلك آمِلًا في جَدْوَى آخُذُها، وحُظْوَةٍ أَحْظَى بها، وزُلفَى أَمِيسُ معها، ومَثالةٍ أُحْسَدُ عليها؛ فتقبَّل ذلك كلَّه، ووَعَدَ عليه خيرًا ولمْ يزَلْ أَهْلَه، وانقَلَبْتُ إلى أهلي مَسرُورًا بوَجْهٍ مُسْفِرٍ، ومُحيًّا طَلْق، وطَرْفٍ عازم[٢]، وأَمَلٍ قد سَدَّ ما بين أُفُقِ العراق إلى صَنْعاءِ اليَمَن، حتّى إذا قُلتُ للنفس: هذا مَعَانُ الوَزير ومَعْمَرُه، وجَنابُه ومَحضَرُه، [فانشرحي مستفتِحَة، وتيمَّني مقترحة، واطمئنّي راضيةً مرضيّة، لا كدرَةَ الشُّرْب، ولا مذعورةَ السّرْب]، حَصَلْتُ من ذلكَ الوَعد والضمان، على بعض فَعَلات الزمان؛ ولا عَجَب في ذلكَ من الزمان فهو بمثله مليء، وله فَعُول. وبَقيتُ محمولًا بيني وبَين إذكارِه - قَرَنَ الله ساعاتِه بسعاداتِه، ووَصَلَ عِزَّ[٣] يومه بسعادةِ غَدِه؛ وغَدَه بامتِدادِ يَدِه - حيرانَ لا أَريش ولا أبرى، ثمّ رفعتُ ناظِري، وسَدَّدْتُ خاطري، وفصَّلتُ الحسابَ لي وعَلَيّ؛ فوَضَحَ العذرُ المبينُ، المانعُ

(١) في (أ): «نازحة»؛ وهو تحريف.

(٢) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول ولعلها تحريف إذ لم نتبين معنى وصف الطرف بهذا الوصف.

(٣) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «عن» مكان «عز»؛ وهو تحريف.

من استزادة المستزيدين، وذلكَ أني رأيتُ أَعباء الوزارةِ تؤودُ[1] سِرَّه، وتُتْعِبُ[2] بالَه، والمملكةَ تَفْزَعُ وَلهَى عليه، وتُلقِي بجِرَانِها[3] له بين يديه، والدولة تَسْتَمِدُّه التدبيرَ الثاقب، والرأيَ الصائب، سِوى أُمورٍ في خلاف ذلكَ لا يحرّرها رسمُ راسم، ولا يقرِّرها قَسْمُ قاسِم، ولا يَحْوِيها وهمُ واهِم، ولا يَفوزُ بها سَهْمُ مُساهِم، وهو يخطر في حواشي هذِه الأحوال، متأبِّطا بَواهظ الأثقال، مفتَتِحًا عَويصَ الأقفال[4]، سامِيَ الطَّرف، فسيحَ الصَّدْر، بَسَّامًا على العِلّات، غيرَ مُكترِثٍ بهاكَ وهاتِ، يَتَلقَّى ما أَعْيَا مِنْ ذلك باللّيّ[5]، وما أَشكَلَ بالإيضاح، وما عَسُرَ بالتّدبير، وما فَسَدَ بالإصلاح، وما أُرِقَّ بالعِتْق، وما خُرِق بالرَّتْق، وما خَفِيَ بالتكشيف، وما بَدَا بالتصريف، وما أَوِدَ بالتثقيف، وما لَبَسَ بالتعريف، حتى أَجْمَعَ على هَوَاهُ قاصيها ودانيها، وجَرَى عَلَى مُرَاده خافِيها وبادِيها، واستجابَ لأمْرِه أبيُّها ومُنقادُها، وأَتْلَفَ بلَفْظِه نادِرُها ومُعْتادُها؛ فلمّا تيقَّنْتُ[6] ذلك كلّه وقتَلْتُه خُبْرًا، أمسكت عن إذكارِه - نَفَّس اللهُ مُدَّته - سالِفَ عَهْدِه، ومتقدِّمَ وَعْدِه، عالمًا بأنَّ أَسَرَّهما[7] مَرعيٌّ عنده في صَدْرِ الكَرَم، ومَكتوبٌ لديه في صَحِيفةِ المجد، وثابتٌ قِبَلَه في ديوان الحُسْنَى.

ولكنْ كان ذلك الامتنان[8] عَلَى رَغْم منّي[9]، لأني قتلتُ في أثنائِه بين جَنْبَيَّ قلبًا مَغْرُورَ الرَّجاء، ومَنْزُورَ العَزاء، عَلَى عَوارِضَ لم تَسْنَح في خَلَدِي، ولم أَعْقِدْ عَلَى شيء منها يَدِي.

فالحمدُ للهِ الذي جعل مَعاذِي إلى الوزير الكريم، البَرِّ الرَّحيم، والمنَّة لله الذي جعلني

(١) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «تود»؛ وهو تحريف.

(٢) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «وتستعين» مكان «وتتعب»؛ وهو تحريف.

(٣) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «بحرانها»؛ وهو تصحيف.

(٤) في الأصول «الأفعال»؛ وهو تصحيف.

(٥) في كلتا النسختين: «بالكي» بالكاف؛ وهو تحريف لا معنى له هنا. ولعل صوابه ما أثبتنا.

(٦) في الأصل «نفثت»؛ وهو تحريف.

(٧) في كلتا النسختين: «ايسرهما»؛ والياء زيادة من الناسخ.

(٨) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول؛ ولا معنى للامتنان هنا: ولعل صوابه الكتمان أو «الإمساك» أو ما يفيد ذلك أخذا من قوله قبل: فأمسكت عن إذكاره.

(٩) في (أ) على زعم من أبي فلبث على أنيابه. مكان قوله على رغم مني لأني قتلت في أثنائه.

من عُفاةِ جُوده، وناشئةِ عُرْفِه، ووَارِدِ عِدِّه، وقادِحِي زَنْدِه، ومُقْتَبِسِي نُورِه، ومُصْطَلِي نَارِه، وحامِلِي نعْمَتِه، وطالِبِي خِدْمَتِه، وجَعَلَ خاصَّتِي وخالِصَتِي من بينهم روايةَ مَناقِبِه باللِّسانِ الأبْيَنِ، ونَشْرَ فضائِلِه بالثَّناء الأحْسَنِ، وذِكْرَ آلائه باللَّفْظِ الأفْصَح، والاحتِجاجَ لسَدادِ آرائِهِ بالمعْنَى الأوْضَح؛ فلا زَالَ الوَزيرُ - وزيرُ الممالك - مَمْدُوحًا في أَطْوَارِ الأرْض على أَلْسِنَةِ الأدباءِ والحكماء، وفي نَوَادِي الرُّؤساءِ والعُظماء، ما آبَ آئب[1]، وغابَ غائب، بمَنِّه ولُطْفه.

قد نَادَيْتُ الوزيرَ حَيًّا سامِعًا، وخيرًا جامعًا، وهَزَزْتُ منه صارمًا قاطِعًا، وشِهابًا ساطِعًا، واستَسْقَيْتُ من كرَمِه سَحابًا هاطلًا، ونُقاخا[2] سائلًا، وأسأله أن يُجَنِّبَني مرارةَ الخَيْبَة، وحَسْرَةَ الإخفاق، وعذابَ التَّسْويف، فقد تلَطَّفْتُ بالسِّحْرِ الحلال، والعَذْبِ الزُّلال، جُهْدَ المُقِلِّ المحتال، وهو أَوْلَى بمَجْدِه، في تَدْبير عَبْدِه، إن شاء اللهُ تعالى.

هذا آخرُ الرِّسالة الأولَى.

وحَضَرَ وُصُولَها إليه بهرام - لعنه الله - وتكلَّم بما يشبه نذالتَه وخِسَّتَه ونَتْنَ نِيَّته، فما كنتُ آمَنُه[3]؛ وما أَشَدَّ إشفاقي على هذا الوَزير الخطير من شؤم نَاصِيَةِ بهْرام، وغِلِّ صَدْرِه، وقلّةِ نَصيحته، ولؤم طَبْعِه، وخُبْثِ أَصْله، وسُقُوطِ فَرْعِه، ودَمامةِ مَنْظَره، ولآمةِ مَخْبَره؛ حَرَسَ اللهُ العبادَ من شرِّه، وطهَّرَ البلاد من عُرِّه وضُرِّه.

وأما الرسالة الثانية فهي التي كانَتْ في هذه الأيام بعد استِئذاني إيّاهُ في المخاطبةِ بالكاف، حتَّى يَجْرِيَ الكلامُ على سَنَنِ الاسْتِرْسال، ولا يُعْثَرَ في طريقِ الكتابةِ بما يُزاحَمُ عليه من اللَّفْظِ واللفْظ، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم. أيُّها الوزير، جَعَلَ اللهُ أَقْدَارَ دَهرِكَ جارِيَةً على تَحَكُّمِ آمالك، ووَصَلَ توفيقَه بمَبَالِغ مُرادِك في أقوالِك وأفعالِك، ومكَّنكَ مِنْ نَوَاصي أعدائك،

(١) في كلتا النسختين: «وغلب غالب»؛ هو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٢) ورد هذا اللفظ بالياء والفاء؛ ولعل صوابه ما أثبتنا.

(٣) في كلتا النسختين: «آمله» باللام؛ وهو تحريف. والسياق يقتضي ما أثبتنا.

وثبِّتَ أَوَاخِيَ دَوْلَتِكَ على ما في نُفُوسِ أوليائك.

يَجِبُ على كلِّ مَنْ آتاه الله رأيًا ثاقبًا، ونُصْحًا حاضرًا، وتنبُّها نافعًا، أن يَخْدُمَكَ مُتحرِّيًا لرُسوخِ دعائمِ المَمْلكة بسياسَتك وريادَتك[١]، قاضيًا بذلك حقَّ اللهِ عليه في تَقْويَتِكَ وحياطَتِك. وإني أَرَى عَلَى بابكَ جماعةً ليست بالكثيرة - ولعلَّها دُونَ العَشَرَة - يُؤْثِرُون لِقاءك والوُصول إليك لما تُجِنُّ صدورُهمْ من النصائحِ النافِعة، والبلاغاتِ المُجْدِيَةِ، والدَّلالات المُفيدة، ويَرَوْنَ أنَّهم إذا أُهِّلُوا لذلك فقد قَضَوْا حَقَّك، وأَدَّوْا ما وَجَبَ عليهم من حُرْمَتِك، وبَلَغوا بذلك مُرادَهم من تَفَضُّلِكَ واصطِناعِك، وتقديمِكَ وتكريمك؛ والحِجابُ قد حالَ بينَهم وبينَك، ولكلٍّ منهم وسيلةٌ شافعةٌ، وخِدْمةٌ للخَيْرَاتِ جامعةٌ؛ منهم - وهو أهلِ الوفاء - ذَوُو كفايةٍ وأمانةٍ، ونَباهةٍ ولَباقة؛ ومنهم مَن يَصْلُحُ للعَمَلِ الجليل، ولِرَتْقِ الفَتْقِ العَظيم؛ ومنهم مَن يُمْتِعُ إذا نَادَم، ويَشْكُرُ إذا اصطُنِع، ويَبْذُلُ المجهودَ إذا رُفِع؛ ومنهم مَن يَنْظِمُ الدُّرَّ إذا مَدَح، ويُضْحِكُ الثَّغرَ إذا مَزَح؛ ومنهم مَن قَعَدَ به الدَّهْرُ لِسِنِّه العالية، وجَلابيبِه البالية، فهو مَوْضِعُ الأجْرِ المَذْخُور، وناطِقٌ بالشُّكرِ المنظومِ والمنْثور؛ ومنهم طائفةٌ أُخرى قد عَكَفوا في بُيوتِهم عَلَى ما يَعْنِيهم من أحوال أنفُسهم، في تَزْجيةِ عَيْشهم، وعِمَارةِ آخرَتِهم، وهمْ مع ذلك مِنْ وَرَاء خَصَاصَةٍ مُرَّة، ومُؤَنٍ غليظة، وحاجاتٍ متوالية؛ ولهم العِلْمُ والحِكمةُ والبَيَانُ والتَّجرِبَةُ، ولو وَثِقوا بأنَّهم إذا عَرَضوا أنفُسهم عليك، وجَهَّزُوا ما مَعَهم من الأدبِ والفَضْلِ إليك حَظُوا منك، واعتزُّوا بك، لَحَضَرُوا بابَك، وجَشِمُوا المَشقّة إليك؛ لكنَّ اليأسَ قد غَلَبَ عليهم، وضَعُفَتْ مُنَّتُهم، وعُكِس أَمَلُهم، ورأَوْا أنّ سَفَّ التراب، أخفُّ من الوُقوفِ على الأبواب، إذا دَنَوْا منها دُفِعوا عنها؛ فلو لَحَظْتَ هؤلاء كلَّهم بفَضْلِك، وأَدْنَيْتَهم بسَعَةِ ذَرْعِكَ وكَرَم خِيمِك، وأَصْغَيْتَ إلى مَقالتِهم بسَمْعِك، وقابَلْتَهُم بمِلْءِ عَيْنِك، كان في ذلك بقاءٌ للنِّعمةِ عليك، وصِيتٌ فاشٍ بذِكرِك، وثوابٌ مُؤَجَّلٌ[٢] في صَحيفَتِك، وثناءٌ معجَّلٌ عند قَرِيبِكَ وَبعِيدِك؛

(١) في كلتا النسختين: «وزيادتك» بالزاي المعجمة؛ وهو تصحيف.

(٢) في الأصول «يوجد»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد «معجل».

والأيامُ مَعْروفةٌ بالتقلّب، واللّيالي ماخِضَةٌ بما يَتَعَجَّبُ منه ذو اللُّبّ، والمَجْدُودُ مَنْ جُدَّ في جَدّه، أَعني من كان جَدُّه في الدُّنيا مَوْصولًا بحظِّه من الآخِرة، وَلَأنْ يُوكلَ العاقلُ بالاعتبارِ بغَيرِه، خيرٌ مِنْ أن يُوكلَ غَيْرُه بالاعتبارِ به.

أيُّها الوزير، اصطِناعُ الرِّجالِ صِناعةٌ قائمةٌ برأسِها، قَلَّ مَنْ يَفِي بِرَبِّها[١]، أو يَتَأَتَّى لها، أو يَعْرِفُ حلاوَتها، وهي غيرُ الكتابةِ التي تتعلَّقُ بالبَلاغَةِ والحِساب.

وسَمِعْتُ ابنَ سُورين يقول: آخِرُ مَنْ شاهَدْنَا ممَّنْ عَرَفَ الاصطِناع، واستَحلى الصَّنَائع، وارتَاحَ للذِّكْرِ الطَّيِّب، واهتزّ للمَديح، وطَرِبَ على نَغْمَة السائل، واغتَنَمَ خَلّةَ المحتاج، وانتَهَبَ الكَرَمَ انتِهابا، والتَهَبَ في عِشْقِ الثَّناء الْتِهابا، أبو محمد المُهَلَّبي، فإنه قَدَّمَ قَوْمًا ونَوَّه بهم، ونَبَّهَ على فضلِهم، وأَحْوَجَ الناظِرين في أَمْرِ المُلْكِ إليهم، وإلى كفايتهم، منهم أبو الفَضْل العبّاسُ بنُ الحُسين، ومنهم ابنُ معروف القاضي، [ومنهم أبو عبد الله اليَفُرَنيّ]، ومنهم أبو إسحاق الصابئ، وأبو الخطّاب الصابئ، [ومنهم أحمد الطّويل، ومنهم أبو العَلاء صاعد، ومنهم أبو أحمد ابنُ الهيْثَم، وابنُ حَفصٍ صاحبُ الديوان]، وفلان وفلان، هؤلاء إلى غير هؤلاء[٢]، [كأبي تمّام الزّينبيّ، وأبي بكر الزهريّ]، وابن قريعة، وأبي حامد الـمَرْورُّوذِي، [وأبي عبد الله البصري] ، وأبي سَعيد السِّيرافي، [وأبي محمد الفارسي]، وابن دُرُسْتُويه، [وابن البقّال]، وَالسَّرِيُّ، ومَنْ لا يُحْصَى كثرةً من التّجارِ والعُدُول.

وقال لي [ابنُ سُورين]: كان أبو محمد يَطْرَبُ على اصطناع الرِّجال كما يَطْرَبُ سامِعُ الغِناء على الشَّبابير[٣]، ويَرْتَاحُ كما يَرْتَاحُ مُدِيرُ الكأس على العشائر. وقال عنه: [إنَّه] قال: والله لأكونَنْ في دولة الدَّيلم، أول مَن يُذْكَر، إنْ فاتني أنْ كنتُ في دَوْلةِ بني العَبّاس آخِرَ مَنْ يُذْكَر.

---

(١) في (أ): «يسقى تربها» مكان «يفي بربها». وفي (ب): «بريها» بالياء المثناة؛ وهو تصحيف في كلتا النسختين. يقال: رب الصنيعة يربها – بضم الراء – إذا نماها وتعهدها.

(٢) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «هذا إلى غير هذا».

(٣) في كلتا النسختين: «الستاير»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام. والشبابير: جمع شبور، وهو من آلات الموسيقي.

فلولا أنّكَ – أدامَ الله دَوْلَتكَ – أَذِنْتَ لِي أن أَكتُبَ إليكَ كلَّ ما هَجَس في النَّفس، وطَلَعَ به الرّأي ممّا فيه مَرَدٌّ على ما أنْتَ فيه من هذا الثِّقْل الباهِظ، وتنْبيهٌ على ما تُباشِرُه بكاهِلِكَ الضَّخْم، لم يَكُنْ خَطَري يَبْلُغُ مُواجَهَتَكَ بلَفْظٍ يَثْقُل، وإشارَةٍ تَغْلُظ، وكنايةٍ تَخْدِش[1]، لكنّكَ- واللهُ يأخُذُ بيَدِك، ويَقْرِنُ الصنعَ الجميلَ بظاهِرِكَ وباطِنِك – قد رَخَّصْتَ لي في ذلك، وخَصَصْتَني به من بين غاشِيَةِ بابِك، وخَدَم دَوْلَتك، فلذلك أقولُ ما أقولُ معتمدًا على حُسْن تَقَبُّلك[2]، وجميل تكفّلِك[3]، ومُنْتَظَرِ تفضُّلِك؛ وليس في أبوابِ السِّياسةِ شيءٌ أَجْدَى وأَنفَع، وأَنفَى للفَسادِ وأقمع، من الاعتبارِ المُوقِظِ للنفس، الباعثِ على أَخْذِ الحَزْم، وتَجْريد العَزْم؛ فإنّ الوِكالَ[4] والهُوَيْنَا قلّما يُفْضِيَان بصاحِبهما إلى دَرْكِ مأمول، ونَيْل مراد، وإصابة مُتَمَنّى. وقد قال رجُلٌ كبيرُ الحِكمة، مَعرُوفُ الحُنْكة: المُعْتَبَرُ كثير، والمعتبِر قليل. وصَدَق هذا الرَّجُل الصالح، وهو الحَسَنُ البَصريّ:

لو اعتبَرَ من تأخَّر بمن تَقَدَّم، لم يَكُنْ من يَتحسَّر في الناسِ[5] ويَنْدَم، ولكنّ اللهَ بَنَى هذه الدار على أن يكونَ أهْلُها بين يَقَظةٍ ونَوْم، وبين فَرَحٍ وتَرَح، وبين حَيْطةٍ[6] ووَرْطَة، وبين حَزْمٍ وغَفْلة، وبين نِزَاعٍ وسَلْوَة، لكنَّ الآخِذَ بالحَزْم – وإن جَرَى عليه مكْرُوه – أَعْذَرُ عند نَفْسِه وعند كلِّ من كان في مَسْكِه، مِنَ المُلْقِي بيَدِه، والمُتَدَلّي بغُرُوره، والساعِي في ثُبُورِه؛ وما وَهَبَ اللهُ العَقْلَ لأحَدٍ إلَّا وقد عَرَّضَه للنّجاة، ولا حَلّاه بالعِلم إلَّا وقد دَعاه إلى العَمَل بشرائطه، ولا هداه الطريقين (أَعْني الغَيَّ والرُّشْدَ) إلَّا ليزْحَفَ إلى أحدِهما بحُسْنِ الاختيار.

هذا بالأمْسِ أبو الفَضْل العبّاسُ بنُ الحُسَين الوزير – وهو في وزارَتِه وبَسْطَةِ أمره ونَهْيِه

---

(١) في كلتا النسختين: «تخرس»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق ما قبله.

(٢) في كلتا النسختين: «تقلبك»؛ وهو تحريف.

(٣) في (ب): «تكلفك»؛ وهو تحريف.

(٤) في (أ): «الوكان» بالنون. وفي (ب): «الوكاك» بالكاف؛ وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٥) في (ب): «في الدنيا».

(٦) في كلتا النسختين: «غبطة»؛ ولعله تحريف، إذ الغبطة لا تقابل الورطة، والذي يقابلها الحيطة كما أثبتنا.

– قيل له ذاتَ يوم: هذا التركي ساسنكر[1] تفَيَّأ بِظلّه، واعتصِمْ بحَبْله، واستَسْقِ بسَجْله، وارتَوِ من سُؤْرِه، ولا يَبْلُغْه عنك، ما يوحِشُه منك، ويُجْفيه[2] عليك. وقد قيل:

اسجُدْ لقِرْدِ السُوءِ في زمانه

وإذا لم تَقْدِر على قَطْعِ يَدٍ جائرةٍ، فقَبِّلها مُتْهِمَةً[3] مُنجِدَةً غائرة. فلم يَفْعَلْ، حتى وَجَدَ أعداؤه طرِيقًا إليه، فسلكوه وأَوْقعوه.

ثم قيل له في الوزارة الثانية: قد ذُقْتَ مَرارةَ النَّكبة، وتحرَّقتَ بنارِ الشماتة، وتأرَّقتَ على فرَطاتِ[4] العَجْز والفَسَالة، وقد كان من ذلك كلِّه ما كان، ودارَ لك بما تمنَّيْتَ[5] الزّمان؛ فانظُرْ أين تضَعُ الآنَ قَدَمَك، وبأيِّ شيء تُدِيرُ لِسانَكَ وقلَمك، فإنّ مُخَلِّصَك من وَرْطَتِك بالمِرْصاد، وقد وَعَدْتَ مِنْ نَفْسِك إنْ أعاد اللهُ يَدَك[6] إلى البَسْطة، ورَدَّ حالَكَ على السرورِ والغِبْطة، أنّكَ تُجْمِلِ المعامَلة، وتَنسى[7] المقابلة، وتَلقَى ولِيَّك وعدوَّك بالإحسانِ إلى هذا، والكفِّ عن هذا، حتى يَتَساوَيا بنَظَرِك، ويَتَعبَّدَا لك بتفضُّلك.

فكان من جوابه ما دَلَّ على عتوِّه وثَباتِه[8]، لأنّه قال: أمَا سَمِعْتُم اللهَ تعالى حيث يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]؟

---

(١) لم تجد هذا الاسم فيما راجعناه من معجمات الأعلام التركية؛ والذي وجدناه «سنجر» بالسين والجيم وبلا سين وألف في أوله.

(٢) في (أ): «ويخيفه»؛ وهو تحريف.

(٣) في كلتا النسختين: «بهمه»؛ وهو تحريف.

(٤) في كلتا النسختين: «فطرات»؛ والظاهر أن في حروفه قلبا وقع من الناسخ. كما أن في كلتا النسختين: «وأرقت» مكان «وتأرقت»؛ وما أثبتناه أولى للملاءمة بينه وبين قوله قبل: «وتحرقت».

(٥) في (ب): «ظننت»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٦) في (ب): «أعاد الله بك أيامك البسيطة»؛ وفي بعض كلماتها تحريف لا يخفى.

(٧) كذا في (أ). والذي في (ب): «وتسيء»؛ وهو تحريف. وتنسى المقابلة، أي لا تقابل الذنب بما يستحقه من عقوبة بل تعفو.

(٨) وثباته، أي ثباته على ما كان عليه من سوء السياسة.

وقال لي القُومَسيّ[1] – ولم يَعْلَم ما في فَحْوَى هذا الكلام –: ما ذاك؟ قلتُ: فحواه ولو عادوا إلى ما نُهُوا عنه لعُدْنا] إلى مُقابَلتِهم بما استَحقُّوا عليه.

وصدق ما قال اللهُ عزَّ وجَلْ، ما لَبِثَ ذلك الإنسانُ بعدَ هذا الكلام إلَّا قليلًا حتى أَوْرَدَه[2] ولم يُصْدِرْه، وأَعْثَرَه ولم يُنْعِشْه، وسُلِّمَ إلى عدوِّه حتّى اسْتَلَّ رُوحَه من بين جَنْبَيْه، شافِيًا به ومُشْتَفِيًا منه، وكان عاقِبةُ أَمْرِهِ خُسْرًا، ولو اتقي الله لكانَ آخِرُ أَمْرِهِ يُسْرًا. واللهُ المستَعان.

وهذا بَعْدَه محمد بنُ بقيّةَ طَغَى وبَغَى، واقتَحَم ظلماتِ الظلْم والعَسْف، وطار بجناحِ اللّهْوِ والعَزْف، والشُّرْب والقَصْف، ومَلَّ نِعْمَةَ اللهِ عليه، وضَلَّ بين إمْهالِ اللهِ وإمْلائه، فحاقَ به ما ذهبَتْ عليه نَفْسُه ومالُه، وخُرِّبَ بَيْتُه، وافتَضَحَ أَهْلُه، وكيف كان يَسْلَم؟ أم كيف كان يَنْجو وقد قَتَلَ ابنَ السَّرَّاج بلا ذَنْب، والجَرْجَرائيَّ[3] بلا حجّة، وضرَبَ ابن مَعْرُوفٍ بالسِّيَاط وأبا القاسم – أخًا لأبي محمد القاضي – وشَهَّرَهُ على جَمَلٍ في الجانِب الشرْقيّ؟!

والتَّشَفِّي حُلْوُ العَلَانِيَة، ولكنَّه مُرُّ العاقبة، وكأنَّ الحَفِيظَة إنما خُلِقَتْ لِتُعْتَقَد[4]، والحقدَ وُجِدَ لِيُبْلَغَ به ما يَسُرُّ الشيطان.

وكأنَّ العفوَ حرَام، والكَظْمَ[5] محظور، والمكافأةَ مأمورٌ بها.

وهذا بالأمْسِ عليُّ بنُ محمد ذو الكفايَتَين، اغترَّ بشَبَابه، ولَهَا عن الحَزْم والأخْذِ به فيما كان أَوْلَى به، وظَنَّ أنَّ كِفايَتَه تَحْفَظه، ونَسَبَه مِنْ أبيه يَكْنُفُه، وبَراءَتَه تَحْتَجُّ له، وذنوبَه الصغيرَة تُغْتَفَر؛ لِبَلائه المذكور، وغَنائه المشهور؛ ومَشَى فعَثَر، ورابَ[6] فخثُر، والأَوَّلُ

---

(١) في كلتا النسختين: «المسني»؛ وهو تحريف كما ترى، صوابه ما أثبتنا.

(٢) أورده ولم يصدره فاعل الفعلين ضمير يعود على الكلام السابق ذكره. أي أورده كلامه الخ.

(٣) في (أ): «الجرجاني».

(٤) في (أ): «لتعتد». وفي (ب): «لتنفذ»؛ وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٥) في كلتا النسختين: «والعلم»؛ وهو تحريف.

(٦) في (أ): «وداب فخسر». وفي (ب): «وذاب فختر»؛ ولعل الصواب ما أثبتنا.

يَقول:

مَن سابَقَ الدَّهـــرَ كبـــا كَبْوَةً ... لم يَستَقِلْهـــا آخِـرَ الدَّهْـــرِ

فاخْطُ مع الدَّهْرِ إذا ما خَطَـــا ... واجرِ مع الدَّهْرِ كما يَجْـــري

وقال لي الخليل - وكان لطيفَ المَحَلِّ عنده، لِما كان يَرَى من اختصاصِ أبيه له، ولِما يَظْهَرُ من فَضْله عندَه -: قلتُ له يومًا: يا هذا، في أيِّ شيءٍ أنت؟! وبأيِّ شيءٍ تَعَلَّلُ؟! وقد شُحِذَت المَوَاسي، وحُدِّدت الأنياب، وفُتِلت المَرائر[١]، ونُصِبَت الفِخاخ، والعيونُ مُحَدِّقَةٌ نحوَ القَطِيعة، والأعناقُ صُورٌ[٢] إلى الفَظِيعة، وأنتَ لاهٍ ساهٍ عمّا يُرادُ بك بَعْدُ؛ يَسْبيكَ[٣] هذا المزرفن[٤] وهذا المُرْخِي[٥] وهذا المُعَرَّض[٦]، وهذا الحَليق، وهذا النَّتِيف، وهذا المعقرَبُ الصُّدغ، وهذا المَصْفُوف الطُّرّة، وبالكاس[٧] والطاس، والغِناء والقَصْف، والناي والعُود، والصَّبُوحِ والغَبُوق، والشرابِ المُرَوَّق العتيق؛ واللهِ ما أَدْري ما أَصْنَع، إن سَكَتُّ عنك كَمِدْتُ، وإن نَصَحْتُكَ خِفْتُ منك؛ ونَعُوذُ بالله من اشتِباهِ الرأي، واشتباكِ الأمر، وقِلّةِ الاحتراسِ، والإعراضِ عمّا يَجرِى من أفْوَاهِ الناس.

يا هذا، سُوءُ الاستمساكِ خيرٌ من حُسْنِ الصَّرْعة، وَتَلَقِّي الأمرِ بالحزمِ والشهامةِ أَوْلَى من استِدباره بالحَسرَةِ والنَّدَامة، ومَنْ لا تَجْرِبَةَ له يَقْتَبِسُ مِمَّنْ له تَجْرِبَة، فإذا نَقِبَ الخُفُّ دَمِيَ الأظَلّ. فقال: قد فَرَغ اللهُ مِمّا هو كائن، وإذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَة وَلاَ يسْتَقْدِمُون.

(١) في (أ): «وقبلت». وفي (ب): «وقتلت»؛ وهو تصحيف في كلتا النسختين. وفي (أ): «المدابر» مكان «المرائر»؛ وهو تحريف أيضًا. والمرائر: الحبال، جمع مريرة.

(٢) صور، أي مائلة. إلى الفظيعة، أي إلى النكبة الفظيعة. وفي كلتا النسختين: «العظيمة». وما أثبتناه هو ما يستقيم به السجع الذي التزمه المؤلف في بعض فقراته.

(٣) في (أ): «يعد تشبثك». وفي (ب): «يعد بسببك»؛ وهو تحريف في كلتا النسختين.

(٤) المزرفن الذي يجعل صدغيه كالزرفين، وهي الحلقة.

(٥) كذا في (ب) والذي في (أ) «المزرجن»، ولا معنى له هنا.

(٦) المعرّض بتشديد الراء الذي نبت شعر عارضيه. كما يقال عذر الغلام بتشديد الذال إذا نبت شعر عذاره.

(٧) وبالكاس متعلق بقوله قبل: «لاه».

قال: قلتُ له: ما أَطْلَعكَ الله على كائنات الأمور، ولا أَعْلَمَكَ بعَواقب الأحوال، وإنما عَرَّفَكَ حظّك بَعْدَ أَنْ[1] وَفَّرَ عَقْلَك، وأَحْضَرَكَ استطاعتكَ، وأَوْضَحَ لِقلبكَ ما عَلَيْكَ ولك، حتَّى يَستَشِفَّ ويَسْتَكْشِف، ومَلَّكَكَ النَّوَاصيَ حتَّى تَمُنَّ[2] وتُرْسِل، وما طالَبَكَ إلَّا بعد أن أَزَاحَ عِلَّتَك، ولا عاقبَكَ إلَّا بعد أن أَنْذَرَكَ وأَنْظَرَك، وبمثْلِ هذا تُطَالِبُ أنت مَنْ هُوَ دُونَكَ مِنْ خَدَمِكَ وحَشَمِك، وأَوْلِيائِك وأَعْدائك، وهذا الذي أَعْذُلُكَ عليه هُوَ الذي به تَعْذُل غيرَكَ وتَراه ضالًّا في مَسْلَكِه، متعرِّضًا لمَهْلَكِه.

فقال: أَيَظْلِمُنِي وَلِيُّ نِعْمَتي صُراحًا بلا ذَنْب، ويَجْتَاحُني[3] بلا جَرِيمة؛ وَيَثْلِمُ دَوْلَتَه بلا حُجّة؟

قلتُ: اللهُ يَقِيك ويَكْفِيك، نَرَاكَ بلا ذَنْب، ونَجِدُكَ بريئًا مِنْ كلِّ عَيْب، وغَيْرُك لا يَراكَ بهذه العَين، ولا يَحْكُمُ لك بهذا الحُكم؛ فإن كنتَ تَرَى فُرْصَةً فانتَهِزْها، وإن كنتَ تَحْلُمُ بغُصّةٍ[4] فاحتَرِزْ منها؛ فأبوابُ النّجاةِ مُفَتَّحة، وطُرق الأمانِ مُتَوجِّهة، والأَخْذُ بالاحتياط واجب، قد قَرُب الشَّاخِصُ من هذا المكان، والقِيَامةُ قد قامت بالإرجاف، والطِّيَرَةُ قُشَعْريرة النَّفْس، كما أنّ القشعريرةَ طِيَرَةُ البَدَن، والاسترسالُ كلَال الحِسّ، والفَأْلُ لِسَان الزمان، وعُنْوَانُ الحِدْثَان، ولا يَقَعُ في الأفواه إلَّا ما يُوجِب الحَذَر، ويَبْعَثُ على الرّأيِ والنّظَر، واستقراءِ الأَثَر والخَبَر.

قال: أَمَّا أَنَا بَعْدَ التَّوكُّلِ على الله فقد استَظْهَرْتُ بمحمد بنِ إبراهيم صاحبِ نيسابور، وبفَخْرِ الدّوْلة وهو بهَمَذَانَ على ثلاثة أيام، وبعِزِّ الدّوْلة وهو بمدينة السَّلام؛ ومتَى حَرَبَ حارِب، ورَابَ رائب، أَوَيتُ إلى واحدٍ من هؤلاء.

قال: قلتُ: ها هنا ما هو أَسهَلُ مِنْ هذا وإن كان أَهْوَل، وأَنْجَى وإن كان أَشْجَى، وأَقْرَب

(١) كذا في (ب). والذي في (أ): «مقدار» مكان «بعد أن»؛ وهو تحريف.

(٢) في (أ): «تمل وترشد». وفي (ب): «تمد» مكان «تمل»؛ وهو تحريف في كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا. وتمن وترسل، أي تمن بالعفو عمن أساء، وترسل من أمسكنه، أي تطلقه.

(٣) كذا في (ب). والذي في (أ): «يجنينا».

(٤) في (أ): «بعض» بالعين والضاد. وفي (ب): «بقصة» بالقاف والصاد؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا.

وإن كان أَعْزَب.

قال: ما هو؟ فرِّجْ عَنّي واهْدِني.

قلتُ: لمّا يَدْخُلُ هذا الوارِد [الدّار]، ويَدْنو من طَرف البِساط، تُنْدرُ رأسَه عن كاهله، وتُلقِي شِلْوَه في مزبَلة، فإنّ الهيْبَةَ تَقَع، والنَّائرة تَخْبُو، والعَجَب يَغْمُر، والظِّنَّةَ تَزُول، والصَّدْرَ يَشْتفي، والاعتذارَ يَنتَفي؛ ويُكتَبَ إلى مُوفِدِه بأنَّ الرَّأيَ أَوْجَبَ هذا الفِعل، لأنَّه غَلَبَ على الظَّنِّ أنّه وَافَى لِكَيْدٍ يُوصِلُه إلَيَّ، وبَلاء يُفْرِغُه عَلَيَّ، فأَزَلْتُ هذا الظَّنَّ باليَقين، ودَفَعتُ الشُّبْهَة بالجلاء، واستَخْلَصْتُ النورَ من الظَّلام؛ ولأَنْ تُبْعِدَ ساقطًا مِنْ خَدَمِك، يَسوءُ ظَني به مِن جِهَتِك، ويَقْدَح في طاعتِي لك، [ويُضْرِمُ فيَّ نار التُّهمَة بيني وبينَك؛ خيرٌ لي في نصيحتي لِدَوْلتك، وخيرٌ لك] في بَقائي[1] على أَمْرِكَ وَنَهْيك، مِن أن يَلْتاثَ ضميري في سِياسَةِ دَوْلَتِك، وتَحُولَ نِيَّتي[2] عمّا عَهِدْتَ من القِيامِ بحقِّ جُنْدِكَ ورَعِيَّتِك، وحِفْظِ قاصِيَتِك ودانِيَتِك.

فقال: هذا أعْظَم، واللهُ المُسْتَعَان.

ولَيْتَني أَصَبْتُ بهذا الرّأي[3] أمرًا عَلاَ عَقْلُه، فَيَقبله ببَيَان، أو يَرُدَّه ببُرْهان، فكان يَقْوَى أو يَضْعُف، ويُقْدِمُ عليه أو يُحْجِمُ عنه، فإنَّ المُبْرَم أَقْوَى من السَّحِيل، والسمِينَ أَحْمَدُ من النَّحِيل؛ ثم كان ما كان. وكان مَشايِخُ العِراق والجَبَل يرَوْنَ ما حَدَثَ بذلك الفَتَى أمْرًا فَرِيًّا، وظُلْمًا عَبْقَرِيًّا.

وحَدَّثني القُومَسِيُّ أنّه لم يتقدَّم بذلك أَمْر، ولا سَبَقَ به إِذْن، ولكنْ لمَّا حَدَثَ ما حدث، وَقَع عنه إمساك، وسُتِرَت الكراهيَةُ والإنكار.

* * *

(١) كذا في (ب). والذي في (أ): «ثنائي»؛ وهو تحريف.

(٢) في كلتا النسختين: «يبني»؛ وهو تصحيف.

(٣) وردت هذه العبارة في كلتا النسختين هكذا «وليتني أصبت من أمر بهذا الرأي على عقله»؛ وفيها تقديم وتأخير وتحريف إذ لا معنى لها على هذا الوجه؛ ولعل الصواب ما أثبتنا.

وللأمور أيُّها الوزيرُ ظُهورٌ وبُطون، وهَوَادٍ وأَعجاز، وأَوائل وأَواخِر؛ وليس عَلَى الإنسانِ أن يُدرِكَ النجاحَ في العَواقب، وإنّما عليه أن يَتَحَرَّزَ في المبادئ؛ ولهذا قال القائل:

لأَمْرٍ عليهم أن تَتِمَّ صُدُورُه وليس عليهم أن تَتِمَّ عَوَاقِبُه

وقال سليمانُ بنُ عبدِ الملِكِ أو غيرُه من أَهْل بَيْتِه: ما لُمْتُ نَفْسي على فَوْتِ أَمْرٍ بَدَأْتُه بحَزْم، ولا حَمِدْتُها على دَرْكِ أَمْرٍ بدأْتُه بعَجْز.

ها هنا ناسٌ إذا تلاقَوْا يَنْفُث بعضهم إلى بعض بما هو صريح وكِناية، ويَحتاجُ الأمرُ إلى ابنِ يوسف، ويَسْتَمْلِي[1] الخَبيثُ من الجالس فوقَ مَشْرَعَةِ مكان الرَّوايا.

[2]وليس يصحُّ كلُّ ما يقال فيُرْوَى على وَجْهِه، وليس يَخْفَى أيضًا كلُّ ما يَجْرِي فيُمْسَكَ عنه؛ والأمورُ مَرِجَة، والصدورُ حَرِجَة، والاحتراسُ واجب، والنصحُ مَقبول، والرّأي مُشْتَرك، والثقةُ بالله من اللّوازمِ على مَنْ عَرَفَه وآمَن به، وليس مِنَ الله عزَّ وجَلَّ بُدٌّ على كلِّ حال.

واللهَ أسألُ الدفاعَ عنك، والوقايةَ لك، في مُصْبَحِك ومُمْسَاك، وفي مَبيتِك ومَقِيلِك، وشهادَتِكَ وغَيْبَتِك، ولذوي مليحا[3] في هذا الباب نَفْخٌ وإيقاد، وتَنَافُلٌ وائتِمار[4]، ومسألة وجَواب.

وعند الشيخ أبي الوَفاء مِنْ هذا الحديث ومن غيره ممّا يَتّصل به من ناحيةِ ابنِ اليزيديّ ما يجب أن يُصاخَ له بالأُذن الواعية، ويُقابَل بالنَّفْسِ الراعية، ويُداوَى بالدّواء الناجع، وتُحْسَمَ مادّتُه من الأصل، فإنَّ الفَسادَ إذا زال حَصَلَ مكانَه الصلاح. وليس بَعْدَ المَرَضِ إلَّا الإفْرَاق، ولا بعد النَّزْعِ إلَّا الإغراق.

---

(١) عبارة (أ): «ومسلم الخبيث من الحالين فوق مشرعة»؛ وفيها تحريف ظاهر وفي (ب): «الحبيب» مكان «الخبيث»؛ وهو تصحيف أيضًا. ويريد بالخبيث ابن يوسف.

(٢) ورد في (أ) قبل قوله: «وليس يصح» قوله: «فصل».

(٣) كذا وردت هذه العبارة في (ب) ولم نتبين من هم ذوو مليحا.

(٤) في كلتا النسختين: «وتثاقل واثمار»؛ وهو تصحيف.

إلى ها هنا انتَهى نَفَسي بالنُّصح وإن كانت شفقتي[1] تتجاوَزُه، وحِرْصي يَسْتَعْلِي عليه، لكنّي خادم، وكما يجب عليّ أن أَخْدُمَ بنيّاتِ[2] الصدر، فينبغي أن أَلْزَمَ الحَدَّ بحُسْنِ الأدب.

والله إني لَوَادٌّ مُخْلصٌ، وعَبْدٌ طائع، ورَجائي اليومَ أقْوَى من رَجائي أَمْس، وأَمَلِي غَدًا أبْسَط[3] من أَملي اليوم؛ أشكُو إليك الأرَق باللّيْلِ فِكْرًا فيما يقال، وتَحَفّظا[4] ممّا يُنال، وتوهُّمًا لِما لا يكون [إن كان]، وشرُّ العِدَا، الذين يَتمنَّوْنَ لِأُولِي نِعْمتهم الرّدَى، ويبَيِّتون النَّكائث[5]، ويَكسِرون الأجفان[6]، ويتخازرون بالأعْين، ويَتَجاهَرون بالأذَى إذا تَلاقَوا، ويَتَهامَسون بالألْسُن إذا تَدَانَوْا، واللهُ يَصْرَعُ جُدُودَهم، ويُضْرِعُ خُدُودَهم بين يديك؛ وهذه الرِّقَّةُ منّي والحَفاوَة، وهذه الرِّعْشةُ والقَلَق، وهذا التَّقَبُّعُ والتفزُّع كلُّه، لأني ما رأيتُ مِثْلَك، ولا شاهَدْتُ شِبْهَك، كَرَمَ خِيم، ولِينَ عَرِيكة، وجُودَ بَنان، وحُضورِ بِشْرٍ، وتهلُّلَ وَجْه، وحُسْنَ وَعْد، وقربَ إنجاز، وبَذْلَ مال، وحُبَّ حِكمةٍ[7].

قد شاهدتُ نَاسًا في السَّفَر والحَضَر، صِغارًا وكِبارًا وأَوْساطا، فما شاهدتُ مَنْ يَدِينُ بالمَجْد، ويَتَحَلّى[8] بالجُود، ويَرْتَدي بالعَفْو، ويَتَأَزَّرُ[9] بالحِلْم؛ ويُعْطِي بالجُزَاف، ويَفْرَحُ بالأضياف، ويَصِلُ الإسعافَ بالإسعاف، والإتحافَ بالإتحافِ، غيرَك.

واللهِ إنّكَ لتَهَبُ الدرهمَ والدينارَ وكأنَّكَ غَضْبَانُ عليهما، وتُطْعِمُ الصادرَ والوارِدَ كأنَّ اللهَ قد استخلَفَكَ على رِزْقِهما؛ ثم تَتَجَاوزُ الذهبَ والفِضَّةَ إلى الثيابِ العزيزة، والخِلَع

(١) في كلتا النسختين: «شفتي»؛ وهو تحريف.

(٢) في (أ): «تبيان». وفي (ب): «بثبات»، وهو تصحيف.

(٣) في (ب): «أنشط».

(٤) في (ب): «وغيظا».

(٥) في (ب): «البيابت»، وهو تحريف.

(٦) في (أ): «الأظفار»، وهو تحريف.

(٧) كذا في (ب). والذي في (أ): «وبذل ما أوجب حكمة»، وهو تحريف كما لا يخفى.

(٨) في كلتا النسختين: «وينتحل»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، إذ ليس انتحال الجود مما يمدح به.

(٩) في كلتا النسختين: «ويبارز»، وهو تحريف.

النفيسة، والخَيْلِ العِتاق، والمَرَاكِبِ الثقال، والغِلْمان وَالجواري، حتّى الكتُبِ والدفاتر وما يَضنُّ به كلُّ جَواد؛ وما هذا مِنْ سَجايا البَشَر إلَّا أن يكونَ فاعِلُ هذا نبيًّا صادقًا، ووَلِيًّا للهِ مُجتَبى، [فإنّ الله قد أمَّنَ هذا الصنف من الفقْر، ورفَع من قلوبهم عزّ المال]، وهَوَّنَ عليهم الإفراجَ عن كلِّ مُنْفس[1]، ياقوتًا كان أو دُرًّا، ذهبًا كان أو فِضَّة؛ كفاكَ اللهُ عَيْنَ الحاسِدين، وَوَقاك كيدَ المُفسِدين، الّذين أنْعمتَ عليهم بالأمس على رُؤوسِ الأشهاد، وكانوا كحَصًى فجَعَلْتَهُمْ كالأطواد؛ وهم يَكْفُرون أيادِيَك، ويوالُونَ أعادِيَك، ويَتَمَنَّوْنَ لك ما أَرْجُو أنّ اللهَ يَعْصِبُه برُؤوسِهم، ويُنْزِلُه على أرواحِهم، ويُذيقُهم وَبالَ أمرِهم، ويَجْعَلُهم عِبرةً لكلِّ مَنْ يراهم ويَسْمَعُ بهم، كان اللهُ لكَ ومَعَك، وحافِظَك ونَاصِرَك.

أطلتُ الحديثَ تلذُّذًا بمواجَهَتِك، وَوَصَلْتُه خِدْمةً لِدَوْلَتِك، وكَرَّرْتُه توقُّعًا لحُسْنِ مَوْقِعِه عِنْدَك، وأَعَدْتُه وأبْدَيْتُه طَلَبًا للمكانةِ في نَفْسِك.

وأَرْجُو إنْ شاءَ الله ألاّ أُحْرَمَ هَبَّةً مِنْ رِيحِك، ونَسيمًا مِنْ سَحَرِك، وخِيرةً بنَظَرِك. لَمْ أوفّق في هذه الكلمة الأخيرة، والله ما يَمرُّ بي يأسٌ مِنْ إنعامِكَ فأُفوِّيه بالرَّجاء، ولا يَعْتَريني وَهْمٌ في الخَيْبَةِ لَدَيْكَ فأَتَلافاهُ بالأمل.

إنَّما قُصارَى أُمنِيَّتي إذا حُكِّمْتُ أن أُعْطَى فيكَ سُؤْلِي بالبَقاءِ المَديد، والأمرِ الرّشيد، والعَدُوِّ الصريع، والوَلِيّ الرَّفيع، والدَّوْلَةِ المُسْتَتِبّة، والأحوالِ المُسْتَحَبّة، والآمالِ المَبْلُوغة، والأمانيِّ المُدْرَكة، مع الأمرِ والنَّهْيِ النَّافِذَيْن بينَ أَهْلِ الخافِقَيْن؛ واللهُ يُبْلغني ذلك بطَوْلِه ومَنِّه.

وآخِرُ ما أقول، أيّها الوزير: مُرْ بالصَّدَقات، فإنّها مَجلَبَةُ السلاماتِ والكرامات، مَدْفَعَةٌ لِلمكارِهِ والآفات؛ واهْجُر الشراب، وَأَدِم النظرَ في المُصْحَف، وافْزَعْ إلى اللهِ في الاستِخارة، وإلى الثِّقاتِ بالاستِشارة؛ ولا تَبْخَلْ على نَفْسك برَأيِ غَيْرِك، وإن كان خامِلًا في نَفْسك، قليلًا في عَيْنك، فإنَّ الرَّأي كالدُّرَّة التي رُبَّما[2] وُجِدَتْ في الطَّريق وفي

(١) كذا في (أ)ز والذي في (ب): «معسر»، ولا يستقيم معه الكلام الآتي بعد.

(٢) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «إنما»، وهو تحريف. والسياق يقتضي ما أثبتنا.

المَزْبَلَة، وقَلَّ من فَزِعَ إلى الله بالتوكّل عليه، وإلى الصَّديق بالإسعاد[١] منه، إلَّا أَراهُ اللهُ النّجَاحَ في مسألته، والقَضَاء لحاجته؛ والسلام.

فقال لي الوَزِير بعد ما قرأَ الرِّسالة: يا أبا مزْيَد[٢]، بَيَّضْتُها، وعَجِبْتُ من تَشْقيقِ القَوْلِ فيها، ومِنْ لُطْفِ[٣] إيرادِكَ لها، ومِن بِلّةِ رِيقِكَ بها.

واللهُ يُحقِّقُ ما نأمُلُه له، ونرجُوه لأنْفسنا، ويَنْحَسِرُ عنَّا هذا الضَّبَابُ الّذي رَكَدَ عَلَيْنا، ويَزُولُ الغَيْمُ الّذي اسْتَعْرَضَ في أمْرِنَا، وعلى الله توكُّلْنا، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

رسالة في شكوى البؤس ورجاء المعونة

وجَّهَ بها المؤلف إلى الشيخ أبي الوفاء المهندس الذي كتب له المؤلف هذا الكتاب. وختم كتابه بها:

أيُّها الشيخ، سَلّمَكَ اللهُ بالصُّنْعِ الجَمِيل، وحَقّقَ لكَ وفِيك وبكَ غايةَ المأمول.

هذا آخِرُ الحَديث، وخَتَمْتُه بالرِّسالتين، ويتقَرَّرُ جميعُ ما جَرَى ودَارَ[٤] على وَجْهِهِ، إلَّا ما لَمَمْتُ به شَعَثًا، وزَيَّنْتُ[٥] به لَفْظًا، وزَيّدْتُ مَنْقُوصًا، ولم أَظْلِمْ معنًى بالتَّحريف، ولا مِلْتُ فيه على التَّحْوِير[٦]؛ وأرجو أَن يَبْيَضَّ وَجْهي عِنْدَكَ بالرِّضا عنّي، فقد كاد وَعْدُك في عنايتك[٧] يَأتي عليّ، وأنا أسألُ اللهَ أن يَحْفَظَ عِنايَتَكَ عليّ، كسابق اهتمامِك بأمري[٨]،

(١) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «بالإشهاد»؛ وهو تحريف. وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.
(٢) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «يا أبا فريد».
(٣) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «لفظ»؛ وهو تحريف.
(٤) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «دان»؛ وهو تحريف.
(٥) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «ورتبت»؛ وهو تحريف.
(٦) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «التجويز» - بالجيم والزاي؛ وهو تحريف.
(٧) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «غنائك»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام.
(٨) وردت هذه العبارة في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا «بأمر يرجي» ولا معنى لها على هذا الوجه؛ والصواب ما أثبتنا، كما يقتضيه السياق.

حتّي أَمْلكَ بهما[١] ما وعدْتَنيه مِنْ تكْرمَةِ هذا الوَزير الذي قد أَشْبَعَ كلَّ جائع، وكَسَا كلَّ عار، وتألَّفَ كلَّ شارِدٍ، وأحسَنَ إلى كلِّ مُسيء[٢]، ونَوّهَ بكلِّ خامِل، ونَفَّق[٣] كلّ هَزِيل، وأَعَزَّ كلّ ذَلِيل؛ ولم يَبْقَ في هذه الجماعة على فَقْرِه وبُؤسِه، ومُرِّه ويَأسِه، غيري؛ مع خِدْمَتي السالفةِ والآنِفة، وبَذْلِي كلّ مَجهود، ونَسْخِي كلَّ عَوِيص، وقِيامي بكلِّ صَعْب؛ والأمورُ مقدَّرة، والحُظوظُ أقسام، والكدْحُ لا يَأتي بغيرِ ما في اللَّوْح.

فصل

خَلِّصْني أيها الرّجُلُ[٤] من التَّكَفّف، أنقِذْني من لُبْسِ الفَقْر، أطْلِقْني من قَيْدِ الضرّ، اشْتَرِني بالإحسان، اِعْتَبِدْني بالشُّكْر، اِسْتَعْمِلْ لِساني بفُنُونِ المَدْح، اِكفِني مُؤونَةَ الغَداء والعَشاء.

إلى مَتَى الكُسَيْرَةُ اليابسة، والبُقَيْلَةُ الذَّاوِية، والقَمِيصُ المرقَّع، وباقِلّي دَرْبِ الحاجب، وسَذابُ دَرْب الرَّوّاسِين؟

إلى مَتَى التأدُّمُ بالخُبْزِ والزَّيتون؟ قد واللهِ بحَّ الحَلْق، وتَغَيَّرَ الخُلْق؛ اللهَ اللهَ في أَمْري؛ اجبُرْني فإنني مكسور، اِسقِني فإنني صَدٍ، أَغِثْني فإنني مَلهوف، شَهِّرْني فإنني غُفْل، حلِّني فإنني عاطل.

قد أَذَلَّني السَّفَرُ من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، وخَذَلني الوقُوفُ على بابٍ باب، ونَكِرَني العارِفُ بي، وتباعَدَ عني القريبُ مِنّي.

أغرَّكَ مِسْكَوَيْه حين قال لك: قد لقيتُ أبا حَيّان، وقد أخرجتُه مع صاحِبِ البريد إلى

---

(١) بهما، أي بالعناية والاهتمام.

(٢) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «شيء»؛ وهو تحريف.

(٣) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «وفتق»؛ وهو تحريف.

(٤) يريد بالرجل أبا الوفاء وهو الذي قربه إلى الوزير.

قَرْمِيسِين؟!

واللهِ ثم وحيَاتِكَ التي هي حياتي، ما انقلبْتُ من ذلك بنفقةِ شهر، واللهُ نَظَرَ لي بالعَوْد، فإنَّ الأراجيفَ اتَّصَلَتْ، والأرضَ اقشعرَّتْ، والنفوسَ استوحَشَتْ، وتشبّهَ كلُّ ثَعْلَبٍ بأَسَد، وفَتَلَ كلُّ إنسانٍ لعدوِّه حَبْلًا مِنْ مَسَد.

أيُّها الكريمُ، ارْحَمْ؛ واللهِ ما يَكْفيني ما يَصِلُ إليَّ في كلِّ شَهرٍ مِنْ هذا الرِّزْق المقتَّر الّذي يَرْجِع بعد التَّقْتِير والتَّيْسير إلى أرْبَعين درهمًا مع هذه المَئونَة الغليظة، والسَّفرِ الشاقّ[1]، والأبواب المحجَّبَة، والوُجوه المقطَّبة، والأيدي المسمَّرة، والنفوسِ الضيِّقة، والأخلاقِ الدّنيئة.

أيُّها السيّد، أَقْصِرْ تأميلي، اِرْعَ ذِمامَ المِلْحَ بيني وبَيْنَك، وتذكَّر العَهْدَ في صُحْبَتي، طالِبْ نَفْسَك بما يَقْطَعُ حُجّتي، دَعْني من التعليل الّذي لا مَرَدّ له، والتسويف الّذي لا آخرَ معه.

ذكِّر الوَزيرَ أمري، وكرِّرْ على أُذُنِه ذِكْرِي، وأَمْلِ عليه سُورَةً مِنْ شُكْري، وابعَثْه على الإحسان إليَّ.

افتح عليه بابًا يُغْرِي[2] الرّاغبَ في اصطناع المعروف لا يستغني عن المرغب، والفاعل للخَيْرِ لا يَسْتَوْحِشُ من الباعث عليه.

أَنْفِقْ جاهَكَ فإنّه بحَمْدِ اللهِ عَرِيض، وإذا جُدْتَ بالمالِ فَجُدْ أيضًا بالجاه، فإنّهما أَخَوَان.

سَرِّحْني رسولًا إلى صاحِبِ البَطائحِ أو[3] إلى أبي السؤل الكُرْدِي[4] أو إلى غَيْرِه ممّنْ

(١) وردت هذه العبارة في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا «والسعر الشاري»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا أخذا من سياق الكلام.

(٢) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «يغني» بالنون؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا.

(٣) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «لوالى»؛ وهو تحريف.

(٤) كذا ورد هذا الاسم في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام دون (ب) ولم نهتد إلى وجه الصواب فيه.

هو في الجبال، هذا إنْ لم تُؤَهِّلني برسالةٍ إلى سَعْدٍ المعالِميِّ بأطرافِ الشام، وإلي البَصرة، فإني أَبلُغُ في تَحَمُّلِ ما أَحْمِل، وأَداء ما أؤدِّي؛ وتَزْيينِ ما أُزَيِّن، حَدًّا[1] أَمْلِكُ به الحَمْد، وأُعْرَفُ فيه بالنَّصيحة وأَسْتَوفِي فيه على الغاية. دَعْ هذا، ودَعْ لي ألفَ درهم، فإني أَتَّخذُ رأسَ مال، وأُشارِكُ بقّالَ المَحَلَّة في دَرْبِ الحاجب، ولا أَقَلَّ مِنْ ذا، تقدّم إلى كسج[2] البَقّالِ حتّى يستعين بي لأَبِيع الدَّفاتر. قلتَ: الوَزيرُ مَشغُول. فما أَصْنَعُ به إذا فَرَغ، فالشاعرُ يقول:

«تُناطُ بكَ الآمالُ ما اتَّصَلَ الشُّغْل»

قد واللهِ نَسِيتُ صَدْرَ هذا البيت، وما بالُ[3] غيري يُنَوِّلَه ويُمَوِّلُه مع شُغْلِه[4] وأُحرَم أنا؟! أنا كما قال الشاعر:

وبَرْقٌ أضاءَ الأرضَ شرْقًا ومَغْرِبًــــا ومَوْضِعُ رِجْلِي منه أَسْـــــوَدُ مُظْلمُ

واللهِ إنَّ الوَزيرَ مع أشغاله المتَّصِلة، وأثقاله الباهِظة، وفكره المفضوض[5] ورأيِه المشترَك، لكريمٌ ماجِد، ومُفْضِلٌ مُحْسن، يَرْعَى القليلَ من الْحُرْمة، ويُعطِي الجزيلَ من النِّعمة، ويُحافظ على اليَسير من الذِّمام، ويتقبَّل مَذاهِبَ الكرام، ويَتلذَّذُ بالثَّناءِ إذا سَمِع، ويَتَعَرّضُ للشُّكر من كلِّ مُنتجِع، ويَزْرَع الخير، ويَحْصُدُ الأجْر، ويواظبُ على كسْب المَجْد، ويثابرُ على اجتِلاب الحمد، ويَنْخَدِعُ للسائل، ويتهلَّلُ في وَجْهِ الآمِل، ولا يَتَبَوَّأُ من الفضائل إلَّا في ذُراها، رحيم بكلِّ غادٍ ورائح، ولكلِّ صالحٍ وطالح.

وأنا الجارُ القديم، والعَبْدُ الشاكر، والصاحب المَخْبور، ولكنّك مُقْبِلٌ كالمُعْرِض،

(١) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «جدا» بالجيم؛ وهو تصحيف.

(٢) كذا ورد هذا الاسم بالكاف والسين والجيم في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام؛ ولم نقف على وجه الصواب فيه.

(٣) وردت هذه العبارة في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا «وما نال غيري سؤل وتحول مع شغله وآخر من أنا»؛ وفيها تحريف ظاهر لا يستقيم به المعنى.

(٤) ينوّله ويموّله، أي ينوله الوزير ويموّله. مع شغله، أي مع شغل الوزير.

(٥) المفضوض، أي المنفرق غير المجتمع.

ومُقَدِّمٌ كالمؤخّر[1]، ومُوقِدٌ كالمُخْمِد، تُدْنيني إلى حَظِّي بشِمالك، وتَجْذِبُني عن نَيْله بيَمينك، وتُغَذِّيني بوَعْدٍ كالعَسل، وتُعَشِّيني بيَأس كالحَنْظل، «ومَنْ[2] كان عتبه على مظنَّة عيبك، فليس ينبغي أن يكون تقصيره على تيقّنه[3] بنصرك».

نعم؛ عَتَبْتُ فأَوْجَعْتُ، وعَرَفْتُ البَراءةَ فهلّا نفعْتَ؟ والله ما أدري ما أقول، إنْ شكرْتُكَ على ظاهِرِكَ الصّحيح لَذَعْتُك لباطِنِك السقيم، وإن حَمِدْتُكَ على أَوَّلِكَ الجميل، أفسدْتُ لآخرك الذي ليس بجميل.

قد أطَلت، ولكنْ ما شُفيت، ونَهِلْتُ وعَلَلتْ، ولكن ما رَويت.

وآخِرُ ما أقول: اِفْعَلْ ما تَرَى، واصْنَعْ ما تَسْتَحْسِن، وابلُغْ ما تهْوَى، فليسَ واللهِ مِنْكَ بُدّ، ولا عَنْكَ غِنًى.

والصَّبْرُ عَلَيْكَ أهْوَنُ من الصَّبْرِ عَنْك؛ لأن الصَّبْرَ عنك مقرونٌ باليأس، والصَّبْرَ عليك رُبَّمَا يُؤَدِّي إلي رَفْعِ هذَا الوَسْوَاس، والسّلاَمُ لِأَهْلِ السلام.

* * *

صورة ما كتبه الناسخ في آخر النسخة المرموز إليها بحرف (أ)

تم الجزء الثالث من كتاب «الإمتاع والمؤانسة» بحول الله وحسن توفيقه، في شوال سنة خمس عشرة وثمانمائة، على يد أضعف العباد شرف بن أميرة، أصلح الله شأنه، في مصر المحروسة، حماها الله تعالى من الآفات والعاهات، ومن عوادي الزمان. آمين يا رب العالمين.

تم الكتاب

(١) في (أ) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام: «ومؤخر كالمقدم»؛ وفي كلتا الكلمتين تقديم وتأخير من الناسخ؛ والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٢) كذا ورد هذا الكلام في الأصل. وفيه تحريف ظاهر لم نهتد إلى وجه الصواب فيه.

(٣) على تيقّنه، أي مع تيقنه. «ويكون» هنا تامّة.

- فهرست الأعلام
- فهرست أسماء الأماكن
- فهرست أسماء الكتب
- فهرست القبائل والأمم والفرق

الواردة بالجزء الثالث

من كتاب

الإمتاع والمؤانسة

فهرست الأعلام

الواردة في الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبي حيان التوحيديّ

(أ)

«تم فهرست الأعلام»

فهرست أسماء الأماكن
الواردة في الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة
لأبي حيان التوحيدي

تم فهرست الأماكن

فهرست الكتب

الواردة في الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبي حيان التوحيدى

تم فهرست الكتب

فهرست أسماء القبائل والأمم والفرق
الواردة في الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة
لأبي حيان التوحيديّ

تم فهرست أسماء القبائل والأمم والفرق